«كتاب من الكتب التي تنقذ حياتك».
- لوتشانا ليتيتزيتو

آليتشه كابالي

لن نقدم القهوة لسبينوزا

رواية

مكتبة ١١٨٥

لن نقدم
القــهــوة
لسـبينوزا

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٢
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٢
العنوان الأصلي: Niente caffè per Spinoza
المؤلفة: Alice Cappagli
© 2019 Giulio Einaudi editore s.p.a., Torino
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © أماني فوزي حبشي

مكتبة 31 5 23
t.me/soramnqraa

تُرجم هذا الكتاب بدعم للترجمةَ من وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية
Questo libro è stato tradotto grazie a un contributo per la traduzione assegnato dal Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano.

كابالي، أليتشه.
لن نقدم القهوة لسبينوزا: رواية / أليتشه كابالي؛ ترجمتها من الإيطالية أماني فوزي حبشي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.
٣٤٤ ص؛ ٢١ سم.
تدمك: 9789776743977
١- القصص الإيطالية.
أ- حبشي، أماني فوزي (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٢٠٧ / ٢٠٢٢

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

آليتشه كابالي

لن نقدم القهوة لسبينوزا

رواية

مكتبة | 1185

ترجمتها عن الإيطالية
أماني فوزي حبشي

الكرمة

إلى سيلفيا، وإلسا، وجابريله، وماريا تريزا.

الفصل الأول

حالة طازجة جدًّا

في أغسطس تشتد الحرارة أيضًا في مدينة ليفورنو، التي تجتاحها الرياح عندما يحلو لها.

في الثالثة عصرًا في شارع شيكوني، ومع درجة حرارة تصل إلى اثنين وثلاثين درجة مئوية، والسماء ملبدة بالغيوم، تسود موجة رطوبة. في الجوار، توجد فقط بعض الدراجات البخارية القديمة وبلا كاتم للصوت: صبية يرتدون الخوذات من دون ربطها، والفانِلات الداخلية، ذاهبين ليقفزوا في المياه من فوق الصخور، بشرط ألا ينتهي قبل ذلك الوقود أو ذلك الذي يدسونه في خزان الوقود.

لم أذهب إلى البحر، أقف أمام بوابة «المؤسسات المسيحية للعمال الإيطاليين»، قبل ميعادي كالعادة، في انتظار السيدة بيانكيتي لإجراء لقاء عمل.

وكانت السيدة بيانكيتي تعمل مربية، وكانت مشهورة بدرجة كافية سمحت لها بأن توفر وظائف لعدد غير قليل من الناس بفضل ولعها بالعمل التطوعي. امرأة قديسة، من حين إلى آخر تكون شديدة التكلف، ولكنها قديسة في كل الأحوال.

بالتدريج وصلت بعض المولدوفيات والأرمنيات والأوكرانيات والقادمات من جمهورية الدومنيكان أو من مناطق مجاورة لها. نظرن حولهن بارتباك، ثم رحلن.

t.me/soramnaraa

وهكذا عندما وصلت السيدة بيانكيتي وفتحت البوابة، لم تكن سوى القليلات باقيات على جهة اليسار. ربما من هن أكثر إصرارًا، أو ربما من هن في أسوأ الحالات.

داخل الممر، بجوار نخلة مُتَرَّبة يوجد مدخل مزدوج، لا أحد على اليمين، ولكن يوجد صف طويل على اليسار.

على اليمين مكتوب:

أبحث عن

على اليسار:

مطلوب

وقفت على اليسار، لأتجرع مرارة الصف المعتاد، ومن الجهة الأخرى خرجت امرأة شابة ترتدي الجينز وتيشيرتًا ممزقًا. نظرت إلينا من دون أن ترانا، وذهبت لتدخل في السيارة الوحيدة التي تقف معوجَّة، بل جزء منها فوق الرصيف.

بدأ أحدهم يصيح:

ـ بارونشيني!

اقتربتُ، ولكن بدا أن بيانكيتي لا ترغب في رفع رأسها من بين الملفات.

قررَت أن توضح من داخل الدُّرج:

ـ بارونشيني، ستجدين شيئًا إذا ذهبتِ إلى تانيا هناك.

كانت تانيا أسوأ من بيانكيتي، لأنها كانت تريد أن تتعامل مع الجميع بلطف بأي ثمن، ولكن عندما يتعلق الأمر بالبحث عن العمل فمن الأفضل ألا يسمعك أحد تناقش كثيرًا على أي حال.

ـ بارونشيني الجميلة، كيف حال الأسرة؟

في مدينة ليفورنو نستخدم «جميلة» لأي امرأة عمرها أقل من ستين عامًا؛ هو نوع من التفاؤل يسببه توفر اليود بكثرة.

فكرتُ: وكيف تريدينها أن تكون؟ وجودي هنا الآن، يعني أن الأمور ليست جيدة. لنبدأ بأنني فقدت عملي، ثم إن عمري تقريبًا أربعون عامًا ويتحدث معي زوجي «بالقطّارة». ولكن لن أقول لها هذا، وسأكتفي بأن أرفع كتفي. على كل حال فهمَت تانيا بالفعل.

سألَت:

ـ لا أتذكر، هل لديك أطفال؟ لا أستطيع العثور على ملفك.

لم يكن عليها أن تكون عالمة فراسة.

ـ لا.

إلا أنني سرعان ما ندمت على ردي. ربما تتعاطف أكثر مع الأمهات الشابات.

ثم استرسلتُ، وكأن الأمر يتعلق بأنني شخص مسؤول في العائلة:

ـ إلا أنني مهددة بالإخلاء.

كذبتُ، ولكن لم تكن كذبة بالكامل.

أومأَت:

ـ ربما لديَّ شيء صغير لكِ لأنك إيطالية... حالة خاصة نوعًا ما، جاءتني الآن طازجة جدًّا. مع الجو الحار حاليًّا يلزم هذا، هه؟

وهي التي يبدو عليها أنها لا تجيد المزاح! حسنًا.

ثم أكملَت:

ـ انظري، خرجت للتوِّ امرأة من هنا.

وعلى الفور خطرت ببالي المرأة الغاضبة التي خرجت للتوِّ.

ـ أبوها مسن ووحيد، ولكنه شخص له احتياجاته على حسب ما فهمت، وصعب المِرَاس بعض الشيء.

فكرتُ: أسوأ من ذلك الذي تزوجته سيكون شيئًا مستحيلًا.

ـ هذا السيد يسكن بمفرده، ولكنه بداية من شهر سبتمبر سيحتاج إلى شخص يذهب إليه كل يوم.

ـ بالنسبة إليَّ مناسب. هل يحتاج أيضًا إلى شخص يقضي ليلته معه؟

سيكون ذلك من حسن الحظ.

ـ لا، فهو في الليل ينظم أحواله جيدًا جدًّا.

يا للأسف.

ـ السيد، وفق ما قالت ابنته...

من الواضح أنها تبحث عن الكلمات.

ـ قالت الابنة إنه لا يرى.

ـ إذن، فهو كفيف.

ـ بالفعل، ويفضِّل شخصًا يستطيع القراءة؛ لهذا أعتقد أنك الشخص المناسب.

لم يبدُ عليها أنها مستريحة، كانت تلوح بأسطوانة الساعة المعلقة خارج حقيبتها الكبيرة، وتتدلى على أنفها نظارة القراءة التي ابتاعتها من السوبرماركت وتبدو كالهلال.

ـ أنا أعرف القراءة، ولكن ماذا سيريدني أن أقرأ؟

ـ لا أعرف، قالت الابنة، وهنا كتبت بالحروف الكبيرة: إن القراءة شيء مهم بالنسبة إليه.

كان من الواضح أن الأمر خارج عن البروتوكول المعتاد، أو على الأقل عن بروتوكول تانيا.

تلعثمتُ:

ـ ولكن... ماذا عن باقي الأشياء؟ أعني المنزل، والأمور الخاصة بالمشتريات والطهي؟

ـ ليست أشياء أساسية، هكذا أكدت الابنة. على كل حال لا بد أن تقضي مدة اختبار: إذا بدأتِ على الفور ربما تستطلعين الأمر وتفهمين ماذا يريدان. من جهة أخرى، لو لم تكن هناك تلك التفصيلة الخاصة لما عرفت ماذا سأعرض عليكِ، فقبلك صف لا ينتهي من الأوكرانيات.

نظرَت إليَّ لترى رد فعلي.
أجبت من دون أن أفكر في الأمر لثانية:
ـ بالنسبة إليَّ مناسب.
ـ إذن، سأخبر الابنة وسأعطيكِ رقم هاتفها المحمول، هكذا تتواصلان. لا وقت لنضيعه، فالسيدة على عجلة من أمرها ولا بد أن ترحل.

أجل، لا بد إذن أنها من رأيتها قبلًا.

تنفست تانيا بارتياح. إذا سار الأمر بشكل جيد يمكنها أن تضيف شريطة صغيرة على شكل فراشة على لوحة «الصلوات المُستجابة»، حيث عدد الشرائط قليل.

أنتظر منذ أربعة أشهر على الأقل عرضًا أفضل من توزيع النشرات، وكنت قد بدأت أشعر بالتوتر.

عندما أغلقت باب سيارتي «الباندا» القديمة التي تركتها تحت الموجة الحارة (ولكنها مركونة جيدًا)، شعرت بوضوح بأن هذا النسيم الصيفي الثقيل جزء من حبكة اللحظة. أو على الأقل يمثلها ببراعة.

لم أفهم كيف وصلتُ إلى هذه المرحلة. عندما فقدت عملي في عيادة الطبيب لم أشعر بالقلق كثيرًا، فزوجي يكسب ما يكفينا نحن الاثنين، ويمكنني أن أنعم بالهدوء، وأنتظر أن تتحسن الأمور. أو على الأقل هكذا اعتقدتُ. الحقيقة أن زواجي كان قائمًا وكأنه كوخ مصنوع من خُلل الأسنان منذ البداية بالفعل، ولكنني لم أدرك السرعة التي يفقد بها أجزاءه، ولا حتى عندما يعود في المساء، وقت العشاء ويشغل التلفاز على أعلى درجة للصوت، حتى لا يضطر إلى التحدث معي.

وفجأة وجدت نفسي أطلب منه النقود لخبز «السكياتشاتا» ولشحن الهاتف المحمول، ومن هنا انتقلت إلى الوقوف في الصف للحصول على وظيفة مقدمة رعاية.

أما الآن فأصبح الأمر يتعلق بالفعل برعاية أحدهم، ومن يدري إذا كان هذا هو الاختيار المناسب؟ ذلك الرجل، لا بد أنه سيحتاج إليَّ، وهذا في حد ذاته، بكل صدق، يرعبني.

هل سأكون قادرة على أن أحل مكان عينيه، ولا أجعله يشعر بأنه عبء؟

في الوقت نفسه أنزلت بالذراع اليدوية نافذة «الباندا» القديمة، ومن دون أن أفكر قُدْتُ نحو البحر. ربما على تراس ماسكاني(*) يمكن التنفس بطريقة أفضل من شارع شيكوني. ليس لأنه شارع سيئ، ولكنه لا يشعرني بأي تفاؤل. على الأقل في شارع إيطاليا العريض تشعر أشجار النخيل بسعادة لأنها أشجار نخيل. جميلة شامخة، مستقيمة ولا تبالي بالرياح. ثم إن الأشياء تُضيء أمام البحر، تنتعش، وتصبح ألوانها جميلة، ويحدث هذا أيضًا للأفكار.

كنت قلقة جدًّا بالفعل، وأيضًا غير مقتنعة تمامًا، ولكن شعاعًا من الحماس الغريب أطل من أسفل الشكوك. فهو في نهاية الأمر عمل. حرك هواء البحر بعضًا من الطبيعة الميتة بدخوله من النافذة، وسمح برؤية شيء لامع.

تركت السيارة في مكان ضيق عثرت عليه بمعجزة في ميدان موديلياني الصغير واتبعت آثار السباحين الذين يقفزون كأنهم ضفادع في مواجهة الضوء، في مياه أحواض بانكالدي. كان الجدار الصغير الرخامي يلسع من الحرارة. ثم بدأت التخمينات تتشابك: مَن يدري إن كانت ستتصل بي الابنة؟ من يدري إن كانت ستترك أباها بمفرده؟ من يدري إن كان ذلك السيد لا يُحتمل أو لا يمكن إرضاؤه، أو ممل إلى حد كبير؟ من يدري أين يسكن؟ ربما بالقرب من منزله لا يوجد مكان لركن السيارة.

بعد نحو ساعة رن الهاتف المحمول.

ـ حضرتك ماريا فيتوريا بارونشيني؟ لقد حصلت على رقمك من تانيا من المؤسسة. هل يمكن أن تحضري بعد ظهر الغد؟

(*) ساحة مطلة على البحر، أرضيتها كرقعة شطرنج. (المترجمة).

فكرتُ: حاسمة جدًّا. هذه تتعجل الأمر بكل المقاييس.

ـ غدًا في الرابعة والنصف موعد جيد؟ شارع الإيبراي رقم ٣٩.

قلت:

ـ أجل.

وأغلقَت الخط، حتى قبل أن تكمل عبارتها: «إذن، سأنتظرك».

أحسست أن الأمر يشبه الجلوس على الحافة والبحر يتحرك، وتأتي موجة طويلة وتغرقك بما يكفي لتغطيك الرمال، إلا أنها رمال في نهاية الأمر. مجرد رمال.

الفصل الثاني

في عرض البحر بلا طوق نجاة

في اليوم التالي أتت الرياح الجنوبية الغربية التي تجلب معها الرطوبة الشديدة، بل تُحرك السحب أيضًا. استيقظتُ في الفجر بعد أربع ساعات من النوم، حين أزعجني الهدير الذي يصفر بقوة، وتملكني القلق.

منذ أشهر يحدث هذا. بمجرد أن أفتح عينَي، يذهب ذهني إلى هناك، إلى جرح ما. لم يكن فقط الإحباط ولا عدم اليقين فيما يجب عمله، بل حبًّا في الذات. ولكن ذلك الصباح، حتى عندما وجدت نفسي بمفردي في الفِراش كما يحدث منذ زمن، قررت ألا أعيد التفكير في الأمر.

مع رياح الجنوب التي تهب، وكلب حماتي الذي يجب أن أخرجه، لم يكن أمامي الوقت للسخط.

وصلت إلى رقم ٣٩ في شارع الإيبراي قبل الميعاد، ليكون لديَّ وقت لأركن السيارة. العثور على مكان لركنها ليس سهلًا على الإطلاق، ودرت عددًا لا بأس به من المرات حول صينية الميدان الصغير، مرات كافية لأدرك أن حي فابريكوتي هادئ ويشغله فقط سكانه، مع مقهيين أو ثلاثة، وبعض محال الخردوات والمحال التي تعرض بعضًا من كل شيء.

لم أكن أتردد إليه كثيرًا حيث أسكن في التل، في الفيلَّا الصغيرة القديمة لحماتي التي بنَتها في مكان، بالحكم على الطريقة التي بها تتم صيانة الشارع،

شبه مجهول للإدارة المحلية. ولكنه مكان بانورامي بالتأكيد. لم تكن عمارة شارع الإيبراي كبيرة، بل مبنى يعود إلى الخمسينيات يحيط به سياج من النبات البري، انفجار من شجيرات «البيتوسبوروم» بشيء من جنون العظمة.

ارتديت ملابسي بعناية: قميصًا بوردات جميلة، شعرت بداخله بأنني سأختنق من شدة الحر لأن الأشياء الأنيقة جدًّا، وبسعر معقول، للأسف مصنوعة من الألياف الصناعية، وتنورة تصل إلى الركبة، بالتأكيد مريحة تليق بـ«مقدمة رعاية». بل طليت أظافر يديَّ بلون أحمر مشتعل. وبالتفكير مرة أخرى في ذلك أراه اختيارًا بلا معنى، ولكن رغبت في منح انطباع جيد، حتى وإن لم أعرف الطريق إلى ذلك.

بدأت أدور حول تلك الغابة النباتية التي كادت تصل إلى طولي، واقتربت من لوحة الاتصال الداخلي لأقرأ الألقاب. فجأة شعرت بأنني لم أعد أعرف القراءة.

ها هو: الأول من أعلى.

بينما أوشك أن أضغط الزر فتح أحدهم الباب من الداخل. رفعت الرياح والتيار القادم من الداخل تنورتي وكأنها حواف مظلة، حتى إن الجارة التي ظهرت أمامي أخذت تضحك. ثم، بعد فحصي لبضع ثوانٍ من خلف نظارتها لقرب النظر، استفهمَت:

ـ هل كنت تبحثين عني؟

ـ لا، أبحث عن السيد فارنيزي.

ـ آه، إذن أنت الفتاة الجديدة.

كانت مسلحة بمعلومات عن أشياء كثيرة. فاستمرت:

ـ إذن، انظري، سأعطيكِ نصيحة، تذكري ألا تناديه أبدًا «سيد فارنيزي». ناديه دائمًا «بروفيسور»، أوصيكِ بهذا. أنا أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عامًا. وكوني حذرة.

ـ حذرة؟

ـ أجل، حاولي أن تتحدثي بطريقة عادية، لا تحاولي أن تضعي اعتبارات لا طائل لها، هذا ممكن أن يضايقه.

ـ هل هو صعب المِراس إلى هذا الحد؟

ـ بل أصعب بكثير.

تبدو كمن يستمتع بأن يُشعرني بأنني في عرض البحر بلا طوق نجاة.

ـ هل لديك كلب صغير بالمناسبة؟

ـ لا.

ـ لحسن الحظ، تلك السابقة كانت تصطحب معها كلبها الذي ينبح دائمًا. مسكين البروفيسور، كان يشتكي أنه لم يعد يعثر على راحته.

ـ ربما كان على حق.

قلت هذا فقط لأطمئن نفسي.

ـ سترين، سترين، ستفهمين بمفردك. هيا، أنا سأذهب. هو يسكن في الطابق السابع.

تركت لي الباب مفتوحًا حتى أدخل، تصحبني رقصة من رقصات إبر الصنوبر والشكوك.

كان المصعد يحتفظ بالكابينة الخشبية الأصلية؛ كان بطيئًا ويقفز بطريقة غريبة أمام كل طابق. إذا قُدر لي القدوم مرة أخرى سأصعد على قدمَي، ولكن في هذا اليوم أريد منع العرق عن بلوزتي.

الطابق السابع هو الطابق الأخير، ومجموعة السلالم الباقية تؤدي إلى سطح المنزل، هناك فوق تهب الرياح من بين الثقوب، وعلى البسطة توجد ثلاثة أبواب، متهالكة، ولكن أسوأها على الإطلاق المكتوب عليه:

البروفيسور فارنيزي

أخذتُ نفسًا عميقًا ورننت الجرس. بعد مجهود في العبث بالمزلاج خرجت فتاتان مراهقتان جميلتان، سمراوان وفرحتان، وتقفزان مثل الظبي الذاهب إلى النهر. مرَّتا أمامي كالنسمة وعلى الفور ظهرت الزوبعة، وهددتْ:

ـ احرصا على أن تعودا في الموعد الذي حددتُه.

في حين اختفت الفتاتان في المصعد.

كانت الزوبعة ترتدي أسوأ مما رأيتها ترتديه في ممر المؤسسة، ولكن لا بد أنها تشعر بالألفة مع الأشياء المعوجة، فبالإضافة إلى طريقة ركنها للسيارة، فإن ياقة «البولو» الأخضر الشاحب مقلوبة إلى الداخل. نظرت إليَّ جيدًا في عينَي بطريقة لم أتوقعها. لم تكن نظرة زوبعة أو ضبعة، بل بالأحرى نظرة من يرى وصول عربة المعدات بعد ساعات من الانتظار مع السيارة المعطلة.

سألتني:

ـ حضرتك الآنسة ماريا فيتوريا بارونشيني، أليس كذلك؟

صححتُ:

ـ السيدة...

ولكنني لم أكن متأكدة من ذلك.

تابعت الزوبعة بحرارة:

ـ ولكنك صغيرة جدًّا!

وهذا التقدير دفعني لإعادة تحديد تعريف «زوبعة» الذي ألصقته بها.

مدت لي يدها، الباردة بشكل غريب، ولكنها ذات قبضة قوية:

ـ أنا إليزا ابنة البروفيسور.

دخلنا. كان الضوء في تلك الشقة شبيهًا بضوء شاطئ البحر، واجتهدتُ ألا أضع نظارة الشمس. بمجرد أن أُغلق الباب، سمعت صفقًا قادمًا من كل الجوانب، واجتاحتني دفعة هواء وأيضًا ورقة جريدة. كان يبدو وكأننا على سطح إحدى السفن.

دخلنا إلى المطبخ نخطو فوق مناديل ورقية مبعثرة، أحذية وأوراق حلوى، تركت إليزا الباب مفتوحًا، لكنه صُفق بعدها ببضع ثوانٍ. لحسن الحظ لم يكن هناك أي زجاج.

قالت لي وكأنها تقرأ أفكاري:

ـ هل تعرفين أن تلك الأبواب كانت مصنوعة من الزجاج في زمن ما؟ عندما كنت صغيرة، وفي أوقات هبوب الرياح كان عامل الزجاج في المنزل يفك الأبواب، ويذهب إلى البسطة لينزع الزجاج بالماسة، وأردت مرة أن أطلب منه أن يعطيها لي لأراها من قريب، ولكنني كنت خجولًا، ولم أفعل هذا، وبينما هو يعمل، إذ بلوح زجاج آخر يطير.

يبدو أنها حكاية تسليها في حين لم تسلِّني كثيرًا. فالزجاج المكسور يذكرني، نوعًا ما، بكسور الحياة.

ـ ولماذا لم تنزعوا الزجاج قبل ذلك؟

قالت:

ـ من أجل أبي. لا بد أن تانيا شرحت لك أن أبي لا يرى، عملية تحلل، مرض ينزع القدرة على استقبال الضوء بالتدريج، ثم يحد من المجال البصري وبعدها تنعدم الرؤية.

ـ إذن، كان يرى في السابق.

ـ أجل، حتى وإن لم أعرف إلى متى لأنه لا يتحدث عن ذلك. درس كثيرًا في شبابه، وحصل على شهادتين، وعمل في التدريس طوال حياته. إلا أنه الآن، منذ أكثر من عشر سنوات، يقول إنه لم يعد يرى أي شيء. لذلك، كما تلاحظين، الضوء مهم، ولا بد من وجود أبواب زجاجية، ونافذة كبيرة في المكتب، ليسترشد بالضوء كما تفعل الجِمال بالمياه.

سُمع صوت شيء يقع، ولكنها لم تُعِره اهتمامًا.

أكملت:

ـ أنا هنا لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وإذا رأيت حضرتك أنه يمكنك البقاء في هذا المنزل على الأقل في النهار، سنتفق على كل شيء. ولكن عندما أرحل ستكون هناك حاجة إلى أن تمكثي أيضًا بعد الظهر. هل سبق وأديت هذا النوع من العمل؟

ـ لا، إنها أول مرة.

من الأفضل أن أكون صادقة، لأن الكذبات لا تأتي أبدًا فرادى. ثم إنني، لا أعرف السبب، شعرت بأنني على سجيتي.

لا يمكن بالتأكيد وصفها بأنها امرأة لطيفة. هي تقريبًا في عمري نفسه، وبسيطة جدًّا في تعاملها. أطول مني بقليل، يفتقر جسدها إلى التناسق الموجود في وجهها المستدير، شعرها قاتم طويل ومضموم على شكل ذيل حصان، متبسطة جدًّا في حديثها، أكثر من اللازم. بالنظر جيدًا، ربما تكون أقل إهمالًا مما بدت عليه في الوهلة الأولى. انتابني الشعور بأن وجود الضوء في ذلك المنزل هو ما يدفع إلى الوضوح والبساطة.

سُمع شيء شبيه بخربشة قط على الباب.

ـ بابا، الباب مقفل، افتحه، نحن في المطبخ.

فُتح الباب بحرص، وظهر شخص متدثر بالملابس، يقف باستقامة، توجد بعض الشعيرات البيضاء غير المصفوفة على قمة رأسه، متوسط الطول. يرتدي خفين مبطنين. لا بأس على الإطلاق في شهر أغسطس. بلا نظارة، وعيناه متجهتان نحو النافذة.

قالت إليزا:

ـ بابا، أقدم لك السيدة بارونشيني.

نهضتُ بينما هو يمد يده بضعف من دون أن ينزع عينيه عن النافذة.

ـ إذن، يسعدني أن أرحب بك. حضرتك شقراء؟

هل يمكن أن يُعرف لون الشعر من الرائحة؟

ـ في الواقع لا أرى نفسي شقراء، ولكن أعتقد ذلك.

شددت على يده ويبدو أن هذا الأمر جعله يبتسم أخيرًا.

ـ حسنًا، شقراء وإيجابية.

ثم أضاف:

ـ واسم حضرتك؟

ـ مارفي.

تجهم وجهه.

ـ حسنًا، لا أعتقد ذلك، ربما يكون لك اسم مركب؟

ـ اسمي «ماريا فيتوريا»، ولكنه اسم طويل، وينادونني «مارفي».

ـ إذن يا آنسة، فلتعلمي أنه ليس الشيء نفسه، إذا كان اسم حضرتك «ماريا فيتوريا»، فأنا سأناديكِ «ماريا فيتوريا». الاسم شيء مهم، وأتمسك به جدًّا، إذا لم يكن ذلك يضايقك.

كان مهذبًا إلى أقصى حد، وراقيًا في أسلوبه، على الرغم من عشوائية ملابسه والنبرة الحادة. في كل الأحوال يبدو كشخص قوطع في أثناء عمله لشيء.

ـ والآن وقد تعرفت عليكِ، أحييك، حيث لا بد لكما من التحدث عن أشياء لا تخصني. آه، كدت أنسى، سأترك هذا الباب مفتوحًا وأتمنى ألا تبردا.

اختفى وانغلق الباب بقوة بعد بضع ثوانٍ. كانت الحرارة ثلاثين درجة تقريبًا. وإذا أردنا أن نكون دقيقين لا بد أن نتحدث عن أمور تخصه.

قالت إليزا:

ـ حسنًا، الآن رأيته، هو هكذا، لديه قناعاته. من جهة أخرى، أكمل لتوِّه عامه الثمانين. إليك، تلك هي أدويته.

وعلى الصوان الجانبي يوجد جبل من العبوات.

ـ الحبة الوحيدة المهمة بالفعل هي تلك الخاصة بالبنكرياس، فقد خضع لعملية إزالة ورم منذ ثلاث سنوات.

حدَّقتُ إلى الأدوية.

قالت محتفظة بتماسكها:

ـ تبعًا لطبيب العائلة، أمامه على الأقل عام آخر.

ـ هل يعلم هذا؟

ـ إذا أدرك أنك شقراء، ربما يعلم أيضًا اليوم والساعة.

ضحكت. بدا لي أنه لا يوجد ما يُضحك.

تشجعتُ وسألتها:

- ولكن ماذا عن مسألة القراءة التي قالوا لي عنها؟

- اسمعي، إذا استطعتِ اختلاس النظر إلى المكتب، ستدركين الأمر بمفردك.

نهضنا، وأطلعتني على المنزل. كان كبيرًا جدًّا، ولكن غير مُزين، حتى لا نقول عارٍ. توجد فوضى لا يمكن وصفها، وخاصة في الغرفة التي تعسكر فيها الفتاتان الصغيرتان: سريران غير مرتبين، صنادل مبعثرة، علب الماكياج مفتوحة.

لا توجد ستائر على أي من النوافذ ذات الزجاج المتسخ.

علقت إليزا بروح رياضية:

- وهكذا يحل الوسخ محل الستائر.

ولكن مكتب البروفيسور مَعرض بالفعل: تحتل النافذة الجدار المواجه للغرب بأكمله، والضوء يعمي العين. ما تبقى مزدحم بالأرفف المليئة بالكتب حتى السقف. على مكتب قديم تكومت صحف، وصحف أخرى مختلطة مع البريد مبعثرة على الأرض. توجد صورة وحيدة، تقف بأعجوبة على رف منفصل، تغطيها الشمس، فظهرت ملامح من فيها بصعوبة: البروفيسور، ومعه امرأة تصغره، على الأقل، بعشرين عامًا.

ثم تحت الرف يوجد فراش يُطوى. هو أيضًا تغطيه الصحف.

سألتُ مرتعبة:

- وهل يجب قراءة كل شيء؟

- لا، لا، ولكن كل تلك الكتب تمنحه شعورًا بالصحبة. وهو يرى أن لها نفسًا، إذن لا غنى عنها.

- نفسًا؟

- بالتأكيد. تقريبًا قرأها كلها، المشكلة هي التذكر، أو على الأقل تذكر الجوهر. أحيانًا يكفيه العنوان.

فكرتُ: إذا كان العنوان يكفي يمكن استعراض المكتبة كلها في أسبوع.

في غرفة أخرى يوجد فراشٌ زوجي، وفوضى من نوع مختلف، بل إنني رأيت آلة كمان ممددة على وسادة ونوتات موسيقية مبعثرة. تعرفت على الجينز الممزق الموضوع على مقعد، من الواضح أنه يُعد جزءًا من أدوات العمل.

في الصالون، ربما الغرفة الوحيدة المنظمة بشكل ما، عثرنا من جديد على البروفيسور. كان المصراع اللفاف مسدلًا، وكادت النافذة الملحقة بالمكتب تكون كذلك لو لم يرفعها بعض الشيء ليدس يده أسفلها. عندما دخلنا فزع.

ـ بابا، ما الذي تفعله؟

ـ لديَّ بعض الفتات في جيبي.

ـ ولماذا تضعه على حافة النافذة؟ للعصافير؟ ستحضر الحمامات.

ـ أعتقد أن الحمامات وضعت بيضها في أصيص الخبيزة، إذن لا بد أن تعثر على الطعام عندما تفقس.

قال هذا بهدوء، كمن يتحدث عن أمر لا يمكن تجنبه.

ـ إليك، أترين يا مارفي؟

صحح هو:

ـ ماريا فيتوريا.

ـ هل أنت متأكد يا بابا أن هناك بيضًا؟ كيف استطعت أن تفعل ذلك؟ هل تحسسته بيدك؟

ذهبنا إلى النافذة ورفعنا المصراع قليلًا. الأواني ممتلئة بطين موضوع من يدري منذ متى، وبالفعل وجدنا بيضتين صغيرتين في واحدة منها.

ـ إنها الحمامات، أنا أسمعها في الصباح، تبدو منشغلة.

تنهدت إليزا ثم صحبتني حتى الباب. في المدخل وبعيدًا عن أذنَي أبيها، ختمت:

ـ لقد رأيتِ الوضع. فكري في الأمر، وقولي لي شيئًا هذه الأيام من

فضلك، هكذا يمكننا أن ننظم كل ما يتعلق بالتعيين المعتاد، والعدد الأسبوعي للساعات، وما إلى ذلك. وبؤسًا لمن لا يفعل كل شيء كما ينبغي له، يمكن أن يُصيب هذا أبي بسكتة قلبية.

ـ ولكن ما اسم البروفيسور؟

ـ لوتشانو.

رددتُ:

ـ لوتشانو...

إذا كانت الأسماء مهمة، فقد تعلمت بالفعل أول شيء.

حتى مع محاولاتي ألا أعرق، عرقت. بل بالتحديد كنت أعرق وأنا في طريق عودتي إلى المنزل. عندما رآني الكلب أخذ يهز ذيله متحمسًا. علامة سيئة، لا بد أنه لم يعد يحتمل. على المائدة عثرت على ورقة تركتها حماتي:

في العام القادم ستدفعان أنتما فاتورة مياه الحديقة.

كان شيئًا جديدًا، لأن، في نهاية الأمر، تلك النباتات التي أسقيها ملكها. على كل حال، إذا كانت رحيمة فستتركنا حتى نهاية العام، ربما لأنني لا بد أن أعتني بالكلب، أكثر كائن حي يهمها بعد ابنها الذي مر على المنزل وترك لي على الأريكة كومة من القمصان لأكويها. الآن أصبحت هذه طريقته في التواصل معي. في وقت ما تصرف كزوج، أما الآن فيبدو وكأنه نزيل في فندق صغير، بإدارة عائلية. من حين إلى آخر أخدع نفسي بأنه سيدرك هذا ويعترف بأن كل شيء انتهى، حتى الوقفة الكلاسيكية للتفكير كانت ستمر على ما يرام. ولكن لا شيء. فقط الصمت، وهو أسوأ من أي نقاش. من جهة أخرى، أنا أيضًا كنت أفعل القليل، كنت معتادة أكثر على الاستسلام وليس على التصرف.

وضعت اللجام على الكلب، كلب «بوينتر» لطيف، أحبه كثيرًا أنا أيضًا. أتعب فقط من الاعتراف بذلك، أحيانًا لأنه كلب حماتي، وأحيانًا لأنني لا

أجيد فهم ما يحدث في قلبي. نظر إليَّ بامتنان، وسرنا في الشارع الترابي خلف المنزل حيث تركته حرًّا. إلا أنه استدار قبل أن يجري في الحقول، للتأكد أنه لم يُترك بمفرده. ابتسمت وألقيت له بعصا:

ـ اذهب يا أتشيتو.

أطاعني وهو يجري كالسهم في سعادة. حتى وإن أطلقت صاحبته عليه اسمه «بارولو»، الآن يستجيب فقط للاسم الذي ألصقته به أنا.

في ذلك الأصيل، وبينما الشمس تتجه نحو الأفق ورياح الجنوب ما زالت تهب، تساءلت: هل يمكن من النافذة الضخمة لدى البروفيسور رؤية خيوط السديم في المساء وطيور السنونو؟ وهل ستعود الحمامات لترقد على بيضها في الأصيص الخالي من الخبيزة؟

يقع منزلي في الظل، ولأول مرة فكرت في أن منزلًا ذا إضاءة قليلة لا تنبت فيه الآمال، كما يحدث مع البطاطس التي إذا ظلت في الظلام لا تنمو براعمها.

الفصل الثالث

إعصار نظافة

كانت تلك هي رياح الجنوب التي ستستمر ثلاثة أيام، ومعها البحر الهائج. كان الرذاذ على تراس ماسكاني يُغرق الأقدام، ولكن الأمر مستحب مع هذا الحر والرياح الصاعقة. وهكذا أمام الأمواج العالية اتصلت بإليزا وأخبرتها بأنني أنوي أن أبدأ مرحلة الاختبار. تسلحت بروح مبادرة غير عادية عندما قررت أن أتصل، ولكن إليزا لم تجعلني حتى أنتهي من المرحلة الأولى.

ـ إذا أردتِ يمكننا أن نبدأ التعيين من الشهر القادم، ويمكننا الاتفاق على هذا. ويكفي ألَّا تقولي هذا لأبي.

ـ عظيم بالنسبة إليَّ.

كنت بحاجة إلى نقود، سواء أوضحت هذا أم لا.

ـ إذن سأنتظرك. غدًا أو بعد غد، الشيء نفسه. من فضلك لا تحضري قبل الساعة التاسعة.

هكذا خلال يومين كنت هناك، ومن دون قميص مطاط، بل ارتديت تيشيرتًا من القطن الصحي، انتظرت خلف شجيرات «البيتوسبوروم» حتى يجتاز عقرب الساعة دقيقة. رأيت أيضًا تلك الجارة الأسوأ من «الكي جي بي»، التي تعرف كل شيء، وهي تخرج ومعها عربة التسوق، وانكمشتُ خلف الأغصان وكأنني طائر الشحرور. لم أُرِد التعرض لمزيد من الاستجواب.

في تلك الساعة في منزل فارنيزي، الهدوء غير طبيعي. ترتدي إليزا

فستانًا صيفيًّا، به ثقوب، يكشف عن ساقيها الجافتين. يجلس البروفيسور إلى الطاولة ومعه فنجان تخرج منه باستمرار القهوة باللبن بسبب قطعة كبيرة من كعكة «الشامبيلًا» التي لا تدخل بين الحواف، ولكنه يصر بعناد أن يسقيها في القهوة.

غرفة البنتين مغلقة. ربما تكونان نائمتين.

قالت إليزا بصوت منخفض:

ـ صباح الخير.

دخلتُ من دون أن أتسبب في ضوضاء.

ـ هل الكل نيام؟

ـ لا، لا، أعتقد أن ابنتيَّ مشغولتان بالهاتف المحمول، إلا أن عصفورًا دخل إلى المكتب ولا يريد أبي إزعاجه وهكذا قرر البقاء في المطبخ.

ـ عصفور؟

ـ أجل، يحدث هذا أحيانًا لأن النافذة دائمًا مفتوحة. أغلقنا الباب، ربما يرحل مرة أخرى.

إن عاجلًا أم آجلًا سيصنع لنفسه عشًّا في المكتب.

فكرت: بما أن الأمور تسير بهذا الشكل، فإن المساحة التي سأتحرك فيها ستكون محدودة جدًّا. عليَّ أن أقوم بـ«مرحلة التجربة»، كما قالت تانيا، وأتيتُ بِنيَّة محددة وهي أن أنظف وأنظم.

ـ من أين أبدأ؟

وبسبب لا يمكن تفسيره بوضوح، أجاب البروفيسور الذي يمسك في يده بقطعة الدونات، وفي اليد الثانية بمذياع صغير على أذنه، قائلًا:

ـ يمكنك بداية أن تقرئي لي عناوين صحف الأمس.

ـ لا يا بابا، لن يحدث هذا، لا بد أن تنظف ماريا فيتوريا ونحن في الخارج، هكذا يمكن العثور على أحذيتك التي لا يعرف أحد أين اختفت.

أطفأ المذياع، وسأل قلقًا:

ـ وإلى أين أنا ذاهب؟

ـ ستأتي إلى البحر معنا.

ـ وماذا عن فالّي؟

ـ ستفتح ماريا فيتوريا لفالّي وتتفاهمان معًا.

ومن هي يا ترى؟ شخص آخر له ثقله في هذا المنزل. سأبدأ الشك أن هناك أشياء كثيرة لا أعرفها.

شرحت لي إليزا:

ـ فالّي هي أخت أمي. وهي مفيدة جدًّا فيما يتعلق بالمسائل الإدارية، لأنها تعرف كيف تملأ استمارات «المؤسسة القومية لتأمين المستخدمين ضد حوادث العمل» و«المؤسسة القومية للتأمين الاجتماعي» وما إلى ذلك.

أضاف البروفيسور، وهو لا يشعر بأي حماس لأنه سيذهب إلى البحر:

ـ إنها إعصار نظافة.

ـ كفى يا أبي، توقف عن هذه القصة.

قال متضايقًا:

ـ ماريا فيتوريا، إن فالّي تلك تعثر دائمًا على شيء ليس على ما يرام، وتتهمني بأشياء لم أفعلها.

ـ مَن، أخت زوجتك؟

كنت أتخيلها جافة جدًّا، طويلة، رفيعة، تشبه كرويلّا دي فيل(*).

ـ أجل، أجل، سترين.

استنتجت إذن أنني سأتعامل مع شخصية صعبة جدًّا.

أكمل البروفيسور:

ـ ولكن في رأي حضرتك، أليس الجو شديد البرودة للذهاب إلى البحر؟

(*) إحدى الشخصيات الشريرة في عالم ديزني. (المترجمة).

ـ بابا.

ـ اصمتي ودعينا نسمع رأيًا محايدًا حول الموضوع. إذن، ما رأيك يا آنسة؟ أو يا سيدة؟

بصراحة، لم أحب أن أُقحم في تلك المسألة، ولم أكن قادرة على تحديد حالتي الاجتماعية. على كل حال إذا لم تكن درجة الحرارة ثلاثين درجة ستكون على الأقل ثماني وعشرين. حاولت أن أكون دبلوماسية:

ـ بروفيسور، توجد رياح أكثر من أي شيء آخر، ولكنها ليست باردة.

ـ إذن، إذا خرجنا يجب أن أرتدي واقي المطر.

ـ ولكن يا بابا، لنأخذ الرداء ربما احتجنا إليه! لم نصل بعد إلى العاشر من أغسطس!

لا بد أن إليزا واحدة ممن ينفجرون فجأة.

حاولت أن أدافع عنه:

ـ حسنًا، ربما إذا أراد والد حضرتك أن يتدفأ...

ـ لن نتحدث حتى عن هذا.

نهض أخيرًا عن الطاولة واختفى في الحمام، ثم خرج منه وهو يحمل كنزة صوفية ملفوفة تحت ذراعه معلنًا بأنه مستعد. ينقصه الحذاء فحسب. أو بالأحرى ينقصه فَردة منهما، عندئذٍ بحثا عنها في الخزانة، بالقرب من الخف المبطن بالفرو، بجوار الأحذية الصيفية. ولكن لم يعثرا عليها.

استغرق الأمر نحو ربع ساعة للعثور على زوج آخر باللون نفسه، وإقناع البروفيسور بأنه مناسب، ولكنه قال إنه ليس مستريحًا على الإطلاق. بل، بالتحديد قال إنه مرتاح في فردتَي حذاء: واحدة سوداء وأخرى بنية.

وهكذا في النهاية، كان دوري أن ألمع بالورنيش الفردة البنية لنعثر على حل مناسب للمشكلة. بالنسبة إلى البروفيسور، فقد ارتدى الحذاء الشتوي في الخفاء. اختتمت إليزا:

ـ أهم شيء: أن تفتحي الباب لفالِّي، وأن تردي على الهاتف. ولكن إذا

أردت أن تتخلي عن راحتك هذا الصباح، فخذي من فضلك تلك النقود الموضوعة على الطاولة وأعدي لنا شيئًا لنأكله. إذا ذهبتِ قبل أن نعود، المفاتيح موجودة في آنية الأدوية خلف الشراب.

أضاف البروفيسور:

ـ يكفي ألا تتركوا لي كوسة مسلوقة بعد الاتفاقيات.

اختفى كلاهما داخل المصعد، ومعهما الفتاتان الصغيرتان اللتان خرجتا شبه نائمتين فجأة من الغرفة. سارتا تجران أخفافهما بغير رغبة في المدخل ونظرتا إليَّ وكأنني كائن فضائي.

عندما أغلق الباب كان لديَّ الانطباع بأنني لست بمفردي، أو لست بمفردي كما أشعر في منزلي. بالإضافة إلى الرياح التي تصفِّر، هناك شيء حي ومخيف لأشياء لم أستطع أن أميزها.

حاولت أن أركز في عملي.

ولكي أبدأ فتحتُ باب المكتب من حيث يُسمع تغريد عصافير. كان طائر السنونو ببساطة قد أخطأ الزاوية: كان عشه فوق النافذة من الجهة الخارجية، ومن الواضح أنه اختلط عليه برواز المبنى مع الجزء الداخلي لعارضة السقف. وبصعوبة استطعت أن أُخرجه وأن أجعله يعثر على اتجاهه الصحيح. ثم أغلقت النافذة.

الآن استطعت تمييز دقات الساعات المختلفة المختبئة، وصنبور مغلق بطريقة سيئة، ومذياع آخر مشوش مدفون لست أدري أين، وحفيف أوراق تتطاير بضعف، ربما في الصالون، والسلك الهوائي الذي يرتطم بزجاج النافذة، كما تفعل الحبال مع سواري السفن عندما تكون في مهب الريح.

جمعت كل الصحف المبعثرة على الأرض وكومتها على المكتب. حتى بهذه الطريقة، تتصاعد الروائح القوية للأوراق المطبوعة وكأننا في مطبعة. بمجرد أن أزلت ما على الأرض شعرت وكأنني أسير فوق الرمال. وهو ما منحني إجابة عن سؤال طرحته على نفسي عن أين يمكن لأحد أن يصطحب،

على البحر في ليفورنو، شخصًا لا يرى، وأن يتجنب الصخور، ربما يأخذه إلى مقاطعة بيزا، حيث الشاطئ يبدأ من قرية كالامبرونه حتى فوهة نهر الأرنو ويمتد كأنه مسار طويل، بكل الزوائد والملحقات، بما فيها المنشآت.

ثم سألت نفسي لماذا يوجد فِراش متنقل في المكتب، وفهمت أن البروفيسور ربما ينام هناك، حيث توجد ملاءة، وغطاء من الصوف يتناسب مع مفهومه عن برد الصيف الشنيع. تحت الوسادة المصنوعة من الريش يرقد مذياع آخر، ذلك الذي يشوش، فأغلقته.

من الواضح أنه ترك الغرفة الكبيرة ذات الفراشين للحفيدتين، وأن إليزا تمكث في الغرفة الأخرى، ربما مع زوج لم أرَه حتى الآن، واكتفى في المكتب بالفراش المتنقل غير المريح الذي تملأه حبوب رملية.

شعرت باستياء. لم يكن هذا الوضع المتعب مناسبًا لشخص في سنه، على الأقل يمكنه أن يضع أريكة جيدة تُحوَّل إلى فِراش في الصالون، نظرًا إلى أن المنزل كبير بالفعل. إلا أن في الصالون لا توجد الكتب ولا الصحف، إذن، تبعًا لنظرية إليزا، سينقصه الدافع الرئيسي ليمكث على سجيته. في مقابل ذلك يوجد مذياع جرانديج كبير، به محرك للأسطوانات، شيء عتيق، حتى وإن لم توجد أي أسطوانات على مرمى البصر.

لا بد أنه فكر في أن الضيافة ليست على الإطلاق شيئًا ثقيلًا. تقريبًا كما يفعل مع الحمامات في أواني الخبيزة.

عندما رن الجرس، لم أكن قد نجحت بعد في أن أمنح للمنزل منظرًا منظمًا، بل كنت قد عثرت للتوِّ على المكنسة الكهربائية الموضوعة خلف باب الغرفة الكبرى.

فالِّي المذكورة والمخيفة هي امرأة قصيرة، صغيرة الحجم ترتدي نظارة شمس ضخمة، ترتدي ملابسها بعناية وتضع الكثير من أحمر الشفاه. تحمل حقيبة تبرز منها صحيفة. بنظرة سريعة، كانت تقريبًا في السبعين من عمرها أو أكثر من ذلك بقليل. لا، لا تشبه كرويلَّا، ولكنها تشبه طائرًا مستديرًا وكأنها

طائر المحاكي. نظرت إليَّ من أسفل إلى أعلى وهي ترفع نظارتها، وبعدما ابتسمت ابتسامة، وديعة جدًّا، صاحت:

ـ حضرتك بالتأكيد ماريا فيتوريا، أنا أخت زوجة لوتشانو.

وقبل أن أتنفس أضافت بفخر:

ـ أحضرت الجريدة بملحق أخبار بيزا.

لم يبدُ لي أيٌّ من الخبرين مثيرًا للحماس، ولكنني اجتهدت في إظهار أدنى حد من الاهتمام. ففي نهاية الأمر أنا هنا فقط من أجل قدراتي المزعومة على القراءة، ويجب عليَّ أيضًا أن أجد الوقت لأظهرها.

دخلَت وكأنها محقق يتقدم إلى مسرح الجريمة: تدرس جيدًا أين تضع قدميها الصغيرتين على الحبيبات الأصلية للأرضية، وهي تحرص على ألا تلمس أي شيء. ثم نظرت حولها، باستياء.

ـ هل رأيت يا آنسة كمَّ الفوضى في هذا المنزل؟

حركت رأسها وهي تمد عنقها بعض الشيء إلى الأمام كالدجاجة، ولكن لا بد أنها أخطر بكثير من مجرد دجاجة.

قلت، متفاخرة بخبرة لا وجود لها:

ـ يوجد ما هو أسوأ.

ـ أنا سعيدة لأن ابنة أختي عثرت على حضرتك. فهي بالفعل تحتاج إلى مساعدة مع كل ذلك الذي يجب عمله. ثم ذلك الرجل المسكين الذي تركته بمفرده.

على الرغم من الصوت الضعيف والمستسلم، لم تترك عباراتها أي متنفس.

أخذتُ منها الحقيبة بالجريدة، وعلقتُ وشاحها على مشجب من الحديد المشغول الذي لم يكن مفهومًا كيف بقي مثبتًا حتى الآن على الجدار مع كل ما علقوه عليه.

ـ إذن، أيتها العزيزة ماريا فيتوريا، سعيدة لوجودك هنا.

كررتْ:
ـ ولكن هل حضرتك بمفردك؟
ـ أجل، ذهبوا إلى البحر.
ـ جميعهم؟
ـ من رأيتهم أنا، أجل.
ـ ولكن هل معهم أيضًا زوج إليزا؟
ـ لا، لا أعتقد.

بدا عليها الارتياح. خفضت كتفيها وتغيرت نبرة صوتها.

ـ شيء غريب، لأنني قلت للوتشانو إنني سأقرأ له أخبار بيزا.

شعرتُ بأنهم رحلوا بالتحديد لهذا السبب.

ـ لقد أحضرت أيضًا كل استمارات تأمين المستخدمين ضد الحوادث، من فضلك لنحاول أن نضعها في مكان آمن، في حالة إذا تمكنًا من العثور على واحد في هذا المنزل.

قالت، وهي تعرج في المكان لتعثر على مكان آمن:

ـ بالتأكيد، عندما تكون ابنة أختي هنا تنقلب الأشياء رأسًا على عقب؛ بينها وبين بنتيها، لا أعرف من الأسوأ! بالتأكيد أخذنَ كل تلك الطباع من لوتشانو وليس من أختي التي كانت دقيقة مثلي. على كل حال، أيتها العزيزة ماريا فيتوريا، افعلي ما تستطيعين ولا تقلقي.

عندئذٍ وضعت استمارات التأمين في الخزانة، حيث توجد ماكينة عمل المكرونة الشرائط:

ـ هنا بالتأكيد لن يمد أحد يده.

ووجدت أنني أتفق معها تمامًا على هذا، من ذلك الذي فهمته.

ـ لديَّ النية بأن أنظف الأرضية المليئة بالرمل، وأفكر بأن أبتاع بعض الأشياء، قالت لي إليزا أن أعد شيئًا ليأكلوه، وألا تكون كوسة مسلوقة.

حاولت أن أوجز، نظرًا إلى أن تلك ربما أرادت أن تغير البرنامج. وبالفعل.

ـ تشغيل المكنسة معركة خاسرة، وسيكون من المناسب في حالة لوتشانو أن يأكل الكوسة المسلوقة والبرقوق المجفف المطهو، والفواكه المجففة، والأشياء الخفيفة لأن...

ثم توقفَت.

اختصرتُ لها:

ـ بسبب جراحة أجراها بالبنكرياس.

ـ بالضبط. وكوليستروله مرتفع، ولا يجري فحوصات، ولا يرغب في معرفة شيء عن العلاج. في سِنه ومع ذلك الذي أصابه لا يجد سوى أطباء يجعلونه يفعل ما يحلو له. من جهة أخرى فأنتم، يا أهل ليفورنو، تفعلون ما يحلو لكم دائمًا. منذ أن توفيت أختي، رفض وجود أحد في المنزل، وهكذا تناول البيض المسلوق كل يوم! ثم حضرت امرأة يومين في الأسبوع لأنني أصررت على هذا، وفي أحد الأيام اكتشفت أنها تقلي له أي شيء وتترك الطاسة بالزيت في الفرن من مرة إلى أخرى. أشعر بالدهشة أنه أُصيب فقط بوَرم في البنكرياس، لو كنت مكانه لمتُّ قبل ذلك.

ـ لا تقلقي، أنا لا أقلي أبدًا.

ـ أحسنتِ، على كل حال ما حدث قد حدث بالفعل، يكفي ألا تطاوعي لوتشانو في طلباته من البسكويت المقرمش، والمكسرات ومشروب البايلي والقشدة...

في الواقع، عندما وضعتُ الدونات الكبيرة التي تناولها على الإفطار على الرف، لاحظتُ بأنها مليئة بزبدة الفول السوداني.

ابتعدتُ عن الموضوع:

ـ إذن، أختك توفيت منذ عدة أعوام.

ـ أجل، فجأة، كانت إليزا قد انتهت للتوِّ من امتحان التوجيهية. كانت لا تزال شابة، امرأة مسكينة. مأساة، تركت هذين الاثنين بمفردهما:

أحدهما تقريبًا كفيف، والأخرى صبية صغيرة غير قادرة حتى على أن تطهو الأرز الأبيض. وماذا فعلت إليزا؟ بدلًا من أن تتابع تعليمها الجامعي وتمكث بجوار أبيها، بدأت تعزف الفيولا في كل مكان. هي بارعة بالطبع، ولكنها ذهبت حتى مدينة لوجانو، تاركة ذلك المسكين هنا مع مشكلات عينيه. بل تزوجت صغيرة جدًّا في السن وأنجبت فتاتين.

قالت هذه الأشياء باستياء واضح، سواء فيما يتعلق بأختها التي في رأيها ماتت في أسوأ الأوقات، أو فيما يتعلق بمن ظل على قيد الحياة. إلا أنها التزمت الصمت فيما يتعلق بسبب الوفاة. ولكن على الأقل أوضحت لي نوع الآلة الموسيقية؛ لم تكن آلة الكمان، بل فيولا.

ـ ابنة أختي ليس لديها ما يكفي من المال دائمًا، أتعرفين لماذا؟ لأنها لم تكن لديها قَطُّ الرغبة في النقاش ولأنها لا تعرف كيف تُقدر قيمة نفسها... لديها زوج، ولكنك قلت إنه ليس موجودًا، صدقًا يا ماريا فيتوريا؟

ـ لا.

وفيما يتعلق بمن لا يُقدرون قيمة أنفسهم، فكرت بأنني لست الوحيدة.

ـ أفضل، ولكنه سيأتي، كوني مطمئنة.

كنت مطمئنة، ولكن بدا لي أنها هي من تشعر بالقلق.

أكملَت:

ـ لا أريد أن أقول شيئًا، ولكن هذه الفتاة لم تصِب الهدف قَطُّ.

ها هي، قد قالتها.

ـ بالتأكيد، أتعرفين؟ إليزا سيئة الحظ، أيضًا لأنها وجدت نفسها تحمل أثقالًا كثيرة فجأة، وهي ما زالت صبية. ولكن رحيلها هكذا، بين ليلة وضحاها، لم يتسبب إلا في مضاعفة مشكلاتها.

ولم تحدد أي مشكلات.

أخذت تفتح أدراج المطبخ التي تُغلق بالضغط، والتي تبرز منها أوراق وفواتير.

ـ أترين؟ فهي لا بد أن تنقل البنتين والعائلة من هنا إلى هناك، وهنا يصبح كل شيء فوضويًّا، أتمنى على الأقل أن يسددوا فواتير الكهرباء والغاز لهذا الرجل المسكين.

تركتُها تفتش في جبل الأوراق المطلوبة، ووضعتُ مريلة عثرتُ عليها بمعجزة في خزانة المقشات. ولأستغل وجودي، أخذتُ ألمع فردة الحذاء البني المتبقية، وأديت عملًا جيدًا، وبينما تتحرك خلفي، أخذت أفكر في كلمات البروفيسور: «إنها إعصار نظافة... ستجد دائمًا شيئًا ما ليس على ما يرام».

وكدت أنفجر من الضحك. ولم يحدث لي هذا منذ مدة.

الفصل الرابع
فن التعامل مع النساء

في الساعة الواحدة والنصف كانت سيارتي «الباندا» كالفرن. ولم يعد أحد من البحر بعد. ومكثت السيدة فالِّي، ربما لتُجري التفتيش العام، كما قال البروفيسور.

اتفقنا على الراتب، بل نجحت معها فيما يتعلق بالمكنسة الكهربائية.

وافقَت على ما فعلتُ:

- ربما حضرتك على حق، يمكن أن يتزحلق لوتشانو بكل هذا الرمل تحت حذائه. في الواقع، من حين إلى آخر، أراه بنتوء ما في رأسه.

وهذا أيضًا.

شعرتُ تقريبًا بالسرور، إلى حد أنني استمتعتُ بإعادة التفكير في وقت الصباح.

الخلاصة، تولت السيدة فالِّي أمر الجانب «القبيح» معي: كم ساعة عمل عليَّ في الأسبوع، أوقات العمل المرنة والمتروكة لتقييمي، ترك الإيصالات في حقيبة قديمة ومُمزقة، ترك الأبواب إما مفتوحة جدًّا وإما مغلقة حتى أتجنب أن يباعد بينها البروفيسور بقدميه لأنه «لا يعرف كيف يضع يديه أمامه»، مواعيد الأدوية و«جميعها، جميعها بالفعل»، وليس كما قالت إليزا. من الواضح أنها وأبوها ليس لديهما الشخصية التي تعطي التعليمات، لهذا تطوعت هذه المرأة الضئيلة لهذه المهمة بدلًا منهما. في رأيي، غير أنها

من بيزا، كانت أيضًا شديدة الدقة، ولهذين السببين لا بد أنها صعبة الهضم بالنسبة إليهما.

على كل حال، في نهاية يومي الأول اخترت سلطة قمح بالخضراوات: خضراوات نيئة، وابتعدت عن الكوسة المسلوقة. علقت السيدة فالِّي أمام السلطانية الممتلئة:

ـ في هذه الساعة لن أركب السيارة لأعود إلى بيزا، الجو حار جدًّا وفي سِني يجب ألا أنهك نفسي. ولكن يمكنك أن تتركي كل شيء هنا وسأنتظر أنا الرباعي.

أعتقد أن السبب هو أنني، لأمنح لمسة شخصية، وضعت أيضًا الأفوكادو. ولم ترَ هي الأفوكادو من قبل.

أما في منزلي فعثرتُ مرة أخرى على قمصان لا بد من غسلها، وأتشيتو يستقبلني بفرح، في الظل. في المنزل الجو دائمًا منعش، وعندما تكون هناك رياح وشمس أترك النوافذ مفتوحة لتجف الفطريات، أما في المساء فيجب عليَّ التعامل مع الناموس. لم تُقرر الحماة أن تستدعي العامل ليصلح التسريبات الواقعة على الجانب «الخاص بنا» من المبنى، ثم إن ابنها غير موجود على الإطلاق، ولذلك يمكنني أن أتعفن أنا أيضًا، بهدوء، مع الجدار.

أحضرت معي المريلة التي عثرت عليها لدى البروفيسور لأغسلها جيدًا وأنزع آثار الورنيش عنها، وهكذا، وبينما أمسك المريلة في يدي، عثر عليَّ زوجي الذي ظهر فجأة بقمصان أخرى ليلقيها عليَّ.

قال ساخرًا وهو ينظر إليَّ نظرة عابرة كالمعتاد:

ـ أرى أنك تجدين ما يشغلك.

ـ ماذا حدث الآن ولا يعجبك؟

لم يجبني.

ـ هل ستتعشى هنا؟

ـ لا حتى ولو متُّ.

ـ وما السبب؟

ـ انظري إلى نفسك.

وأرادها أن تكون مزحة.

ـ أحاول العثور على شيء لأفعله.

وابتلعت ريقي.

أغلق الحمام على نفسه، وشعرت أنا بغصة في حلقي. كنت أرغب في أن يختفي أو أن يعتذر، ولكن الشيئين كانا على القدر نفسه من الاستحالة. لم يخرج صوتي. ومع غياب الصوت بدأت الأفكار تضطرب. علامة السعادة التي اختبرتها منذ قليل اختفت، ولم تعد لديَّ الرغبة في أن أخبره عن عملي. ليذهب إلى الشيطان. فيما يخصني، ما زال مسؤولًا عني ماديًّا.

نظر إليَّ وكأنني قطعة أثاث عليه حملها على منصة التحميل، وأخذ أحد القمصان التي غسلتها وكويتها. وسألني:

ـ ولكن، أين ذلك الأزرق؟

ـ يقولون: «من فضلك».

ضحك.

كان ما زال مبتلًّا، ولكنني لم أخبره، كما أنني لم أخبره بأنني عثرت على عنوان إحدى صالات القمار في جيبه. بالتأكيد يجب ألا أبرر خدماتي كمغسلة. ذهبت إلى المطبخ وأكلت قطعة فاكهة كادت تفسد، ثم أخذت أتشيتو إلى الحقول التي تستعمرها الصراصير والذباب.

مكثت لأنظر إلى زاوية زرقاء تظهر من خلال بعض نباتات الدفلى، ربما جزء من البحر، ربما أيضًا جزء من السماء لأن خط الأفق يذوب فيها. من الصعب التركيز عندما تغالبك الرغبة في البكاء. ربما أمي على حق عندما قالت إنه لا يجب الزواج في سن العشرين «لأن ما يؤخذ في الليل تجدينه أمامك في النهار»، ولكنني لم أرغب في الاعتراف بالهزيمة.

تفوح من القمصان الملقاة على المقعد رائحة الدخان والقلي، فيما هو يدور باستمرار في المنزل باللباس الداخلي، وفي يده أوراق مليئة بالأرقام.

حاولتُ مرة أخرى:

ـ كيف يسير مشروع بناء الفيلّات؟

ـ ومنذ متى وأنتِ تهتمين بهذا؟

بالفعل، كان على حق. التحدث أو الصمت أصبحا سيان، لم تعد للكلمات أي ثقل. فكرت: وعلى كل حال، لينسى إذن عنوان صالة القمار.

منذ سنتين تقريبًا، دخل في مشروع مع شركة بناء طموح، وبوصفه مهندسًا شارك في بعض المشاريع التي «تسير بنجاح كبير». ولكنه تضايق بشدة عندما قرر المركز الطبي، حيث كنت أعمل، تركي بلا عمل. شرحت له أنهم لم يعودوا بحاجة إلى شخص يدير مواعيد العلاج الطبيعي. عبَّر عن غضبه وانقطع عن الكلام، اخرسَّ مثل السمكة.

ألقيتُ بنفسي على ياقات القمصان لأمحو بصابون مارسيليا الشعور بالضيق. حتى ذلك الوقت عرفت كيف أدبر أمري، وحاولت أن أجد سببًا لتلك النوبات المستمرة للغضب، وليس فقط لأن دون باراكيني ينصح بهذا في عظاته. بل يردده أيضًا في غرفة الاعتراف: الصبر، التعويض الإلهي. ولم يرِحني هذا كثيرًا، نظرًا إلى أن الحال تزداد سوءًا. من جهة أخرى، عندما يشعر الواحد منا بالانهزام لا بد أن يتمسك بشيء ما، ولذلك اعتدت أن أتردد أكثر إلى الكنيسة من دون أن أتساءل عن ذلك، فقط لأعثر على بعض الأجوبة ولأستمر. نظرت إلى دون باراكيني وأنا أشعر بالرغبة في أن أشكو فحسب، حتى قام هو، في عصر أحد الأيام، وبعد أن تحملني لمدة نصف ساعة، رفع رأسه لينظر إلى تمثال العذراء خلفي التي اقترحت عليه أن يرسلني إلى «المؤسسات المسيحية للعمال الإيطاليين» لأبحث عن عمل بشيء من المثابرة.

هزني نباح أتشيتو. يشعر بالضيق من زوجي الذي يرتدي ملابسه ليخرج من جديد.

أمسك حقيبته:

ـ ارفعيه من أمام قدمَي، بما أن أحدكما يفهم الآخر.

أمسكتُ أتشيتو من طوقه، ثم أخرجت القمصان من فتحة الغسالة وذهبت لأفردها في الخارج، تاركة الكلب يجري بينما تحرق الشمس ذراعَي. سأكوي في المساء، وغدًا سأبقى لدى البروفيسور وقتًا أطول، هذه المرة من دون السيدة فالّي.

على سلك الكهرباء تقف العصافير في صف وكأنها مشابك الغسيل. كلها متفقة أن تقف هناك وأن تشارك انطباعاتها عن اليوم، على الأقل هي تفعل ذلك. أمسكتُ لجام أتشيتو ومشيتُ على قدمَي نحو المركز التجاري الجديد. أريد أن أشرد قليلًا وأنا أفكر فيما يمكن أن أبتاعه بنقود قليلة لبروفيسور كفيف. عثرت على زرعة ريحان جميلة، ستكون مناسبة جدًّا، لأنها ستعلن عن نفسها عبر رائحتها.

في اليوم التالي، وفي تمام التاسعة صباحًا، كان البروفيسور بمفرده. فكرتُ في أن هذا شيء حسن، فرصة لأفهم شخصيته أكثر، ولكن بالأخص سأفهم شخصيتي أنا أفضل. هل أستطيع أن أقضي شتاءً كاملًا وأنا أعتني به؟ كنت أخشى أنني سرعان ما سأقول أو أفعل شيئًا ما بطريقة خاطئة. أفيض بالنيات الحسنة، ولكن تبدو لي المواقف في هذا المنزل صعبة التوقع.

لم أعثر على البروفيسور فورًا، أسمع، من بعيد، صوت مذياع صغير مفتوح، ولكنني لا أتبين مكانه. هكذا أخذت أدور في المنزل ونبات الريحان الصغير في يدي، وفتحت الأبواب التي لا بد أنها أُغلقت دفعًا حتى وإن خفت شدة الرياح. في النهاية عثرت عليه في الشرفة والمذياع الصغير في جيبه، يتمشى ذهابًا وإيابًا وكأنه باندا في قفصها في حديقة الحيوان. فزع عند تحيتي، لم يتوقع أن أفاجئه.

علق بينه وبين نفسه:

ـ إذن، ذهبوا جميعًا إلى البحر كما سبق وأعلنوا.
ثم أضاف:
ـ ماريا فيتوريا، ما رأيكِ، الجو بارد بعض الشيء هذا الصباح، أليس كذلك؟

في الطابق السابع وفي قلب الشمس ويرتدي كنزة صوفية، تقريبًا في منتصف أغسطس، يتطلب السؤال سرعة البديهة في الرد. قلتُ:
ـ أنا أشعر بالحر، ولكن ربما لأنني أتحرك كثيرًا.
ـ بالفعل، أفهم. إلا أنني لا أشعر بذلك. الآن لا بد أن أتعامل مع صباحي فقد انتهى البرنامج الذي يهمني.

بالفعل تخرج من المذياع الصغير موسيقى روك لا تبدو لي مناسبة لبروفيسور مسن.

تجرأتُ، وأنا متأكدة أنه سيرفض:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ هل ترغب حضرتك في أن تتمشى؟
ـ يا ليت.

وبدا كأنه لم يُرد سوى هذا.
ـ يمكننا أن نسير كل شارع الإيبراي وأن ندخل من الجانب إلى حديقة فيلَّا فابريكوتي، وأن نعبرها ونخرج من ميدان روما، ثم...
ـ بروفيسور، لا بد أن أؤدي بعض الأعمال، ثم أجهز الغداء. هل يمكن أن نفعل ذلك بعد نحو ساعة؟
ـ بالتأكيد. فأنا أعيش وفق الظروف.

ثم تنهد.
ـ إذن، استطعتِ التعرف أيضًا على فالِّي، هل تفاهمتما؟

وأخيرًا أطفأ المذياع.
ـ بالتأكيد. لقد اتبعتُ التعليمات.
ـ حسنًا، حضرتك تفكرين في الأمر مثلي، إذن سنتضامن.

من يدري كيف أدرك هذا، كنت حريصة جدًّا، عمل عظيم من الدبلوماسية.

ـ بالنسبة إلى ابنتي فإنها إعصار. هي وابنتاها يتسببن في الاضطراب. أنا من يعيش دائمًا بمفرده، أقبع الآن في الأركان، ولكن سترين كيف ستعود الأوقات التي أكون فيها بالفعل سيدًا على مملكتي. أو ما يقرب ذلك، نظرًا إلى أنكِ ستكونين موجودة.

ثم ابتسم، وكأنه يرغب في الاعتذار عن الفكرة الأخيرة. إلا أنني فهمته جيدًا جدًّا، فقد كان معتادًا أن يتحكم بمفرده في وقته وكل شيء يتحرك خلفه.

ثم قال فجأة:

ـ أشعر تحت أصابع يدي اليمنى، هنا على الدرابزين، بالرطوبة تتكثف، وأيضًا بالأصوات قد انخفضت بعض الشيء. هل ترين ظلال شجرة الزعرور في الممر المواجه؟

ـ ليست واضحة.

ـ ماذا عن ظل واقي محل الطلاء المواجه؟

ـ لا.

ـ إذن، عندي حق. والحمامات صامتة هذا الصباح. إذا خرجنا خلال ساعة علينا أن نأخذ معنا المظلة.

ـ سأدخل المنزل يا بروفيسور، سأبحث عن مكان لأضع النبتة لأنني لا أريدها أن تُحرق.

أراد أن يمسكها بيده ويشمها، بدا مسرورًا.

ـ جميلة تلك الرائحة، طازجة وشهية. يمكن وضعها في مكتبي، فهناك توجد الشمس وليست شديدة الحرارة ولا البرودة، لا بد أن تكون في حال جيدة هناك.

قال هذا وكأن الزرعة من العائلة نفسها التي للعصافير والحمامات. وفي كل الأحوال لم أتفق معه على مسألة الحرارة.

ولكي أرضيه دخلت لأبحث عن زاوية في المكتب، ولكن هذا من المستحيلات، حيث تكفي المسطحات فقط لوضع فنجان صغير. في النهاية قررت وضعها في المطبخ، يمكنها على الأقل هكذا الحصول على شمس الصباح، وقلت له:

- إن هذا يبدو لي الحل الأفضل.

- هل حضرتك متأكدة بالفعل؟

- بلا شك.

مكث يلف إلى الأمام والخلف في الشرفة، وهي ذات درابزين منخفض، خالية من الغطاء، بلا أي ستائر، شيء يثير القلق بعض الشيء. ولكن لم يكن يشعر بالدوار، ولا بالارتفاع بالتأكيد. بعد ذلك بقليل عثرت عليه في الردهة يبحث عن القبعة ونظارة الشمس. كانتا مدفونتين تحت سترة ملونة من الصوف، ليست له. وأعلن بعد أن أصبح في كامل هيئته بأنه سيعود إلى الخارج «بعد مدة وجيزة».

- ولكن، أحتاج إلى أن تقرئي لي عبارة يا ماريا فيتوريا.

فكرت: يا إلهي، ها نحن قد وصلنا.

- هناك في المكتب، على اليسار، في الرف الأول يوجد كتاب لشوبنهاور، عنوانه «العالم إرادة وتمثلًا». ولكن بالقرب منه لا بد أن يوجد كتاب آخر له، صغير جدًّا، عنوانه «فن التعامل مع النساء(*)». أتعلمين؟ إنه موضوع يهمني.

ذهبت لأبحث في المكتب، حتى وإن كنت لا أعرف من كان ذلك الذي يتحدث عنه، ولم يكن لديَّ أي فكرة عن الطريقة التي يُكتب بها اسمه، ولكن لحسن الحظ عثرت عليه على الفور.

(*) «فن التعامل مع النساء» هو ترجمة العنوان كما جاء بالإيطالية. وبالإنجليزية: *On women*. (المترجمة).

ـ افتحي الفصل الرابع واقرئي لي واحدة من أقواله المأثورة عن فضائل النساء.

ـ النساء بصفة عامة؟

رفع حاجبه، ثم ضحك:

ـ كل النساء، واللاتي لم يكن شوبنهاور كريمًا معهن لأسباب متنوعة، وأيضًا شخصية. ولكن ستجدين شيئًا مناسبًا جدًّا.

وهكذا، وبالمريلة التي ربطتها للتوِّ وقفاز من المطاط، أخذت أتصفح حتى الفصل الرابع. بدا لي موقفًا عجيبًا. كنت أعتقد أنني سأقرأ جالسة جيدًا أمام الطاولة، في أوقات مختارة لهذا، وليس هكذا فجأة وبلا أي سبب.

إلا أنني انطلقت:

ـ «النساء بلا شك أقل شاعرية من الرجال، لذلك لا يرين في الأمور أكثر مما هي عليه في الواقع».

قرأت بلا تردد، وبدا لي أن العبارة مكثت في الهواء وكأنها في فقاعة الكتابة في الرسوم المتحركة.

ـ تمامًا هذا هو بالتحديد. استمري، يوجد أيضًا اعتبار آخر حول النصائح، بهذا الصدد.

ـ «ليس من الخطأ في مواقف صعبة أن يطلب المرء النصيحة أيضًا من النساء، تبعًا لعادة لدى الجرمان. إن طريقتهن في استيعاب الأشياء، في الواقع، مختلفة تمامًا عن تلك الخاصة بالرجل، وخاصة فيما يتعلق بالميل النسوي لأن يضعن في الاعتبار، بسهولة، الطرق الأقصر للوصول إلى الهدف».

يقاطعني:

ـ بالفعل، أستطيع أن أقول إننا وصلنا إلى المقصود: إليزا عثرت على حضرتك بسرعة لتحل ظرفًا صعبًا يتعلق بي، وحضرتك عثرت بسرعة

على الطريقة التي تجعل أحد المكونات الطازجة في متناول يدك، وتضمن نجاة النبتة الصغيرة.

شيء لا يُصدق.

ـ هل يمكن أن تجعليني ألمس الكتيب.

قدمته له، وأخذ يقلب الصفحات.

ـ أنا أتفق مع شوبنهاور على الأقل في هذا.

ـ ولكن هل بالفعل أحضرت النبتة الكتاب إلى ذهنك؟

ـ مصير النبتة، حتى نصبح أكثر دقة. شوبنهاور فيلسوف، والفلسفة أساس العلم، حتى ذلك الخاص بالطبيعة الإنسانية.

ثم عاد إلى الشرفة وتركني كاللوح. ربما كان على حق حول الفلسفة، من يدري. من جهة أخرى، درستُ سنتين فقط في معهد تجاري، وبدأت دراسة الفلسفة في السنة الثانية، مع أستاذ جسَّد الملل نفسه.

أعدت الكتاب إلى مكانه ثم كرَّست وقتي لغرفة الفتاتين، حيث تعرقلتُ بهاتف محمول لمبة تشغيله مفتوحة. الحقيبة مفتوحة والملابس مكورة بداخلها، وفي كل مكان تيشيرتات متسخة، ومقلوبة ومكوَّمة في أي مكان، وكأنها ألقيت من قطار مُسرع. جمعت كل شيء ووضعته في الغسالة.

أما بالنسبة إلى الرمال، ففالِّي على حق، فهي معركة خاسرة. من حسن الحظ أن المكنسة الكهربائية تبدو جديدة.

في غرفة إليزا أيضًا عثرت على فوضى شديدة، ومن جديد تلك الآلة الموسيقية موضوعة على الفراش غير المرتب. لم أجرؤ على تحريكها، وهكذا رتبْت حولها.

اتصل أحدهم وانطلق البروفيسور كالصاروخ محاولًا أن يضع يديه للأمام بطريقة عشوائية، مخاطرًا بأن يصطدم بالحواف. استنتجت أن الهاتف

شيء مقدس، وأن فالِّي كانت على حق لأن تقول إن البروفيسور يباعد بين الأبواب بقدميه.

ـ أجل، حسنًا! في الساعة الحادية عشرة ستجدونني أمام البوابة، أكيد، أكيد...

مكالمة وجيزة جدًّا ملأته حماسًا. مكث ممسكًا بالسماعة في يده لأن هاتفه جهاز من الأنواع القديمة، واستطاع بصعوبة أن يعيد وضع السماعة مرة أخرى جيدًا كي لا يخاطر بأن تنقطع الحرارة.

قلت:

ـ توجد هواتف أكثر تطورًا يا بروفيسور، يمكنك أن تضعها في جيبك.

ـ أجل، قيل لي هذا. ولكنني مرتبط بهذا الهاتف ذي الصوت التقليدي، ذلك الصوت المعتاد الذي كنت أسمعه أيضًا منذ ثلاثين عامًا.

ـ حسنًا، يمكن استعادة هذا الصوت أيضًا.

وفي أثناء ذلك كنت أحاول أن أتخلص من التراب في المدخل، بلا نجاح كبير بسبب تيارات الهواء.

واختتم:

ـ ثم إنه عندما يرن أذهب لأرد.

للوهلة الأولى بدا تعليقًا بلا جدوى، عندئذٍ شعرت برغبة في الابتسام. وأجبت:

ـ بالتأكيد، إذا رن الجرس يذهب الواحد منا ليرد.

ـ ليس هذا بالأمر الهين يا ماريا فيتوريا، الذهاب للرد على الهاتف يفترض العديد من الظروف. الأولى أن نكون متأكدين من وجود الهاتف.

يا إلهي. شعرت بأنني إوزة.

ـ أعلمك أن الأمر يتعلق بكوستانتينو. سيأتي مع أورورا ليصحباني، إذن لا داعي لأن تأخذيني للخارج. إلا أنه ستحين فرصة...

كان يخشى أن أتضايق من هذا، وألا أعرض عليه أن نتجول مرة أخرى.

ـ كما تريد. صديقا حضرتك؟

ـ بالضبط، هما أيضًا أستاذان، وعندما يستطيعان أو يريدان أن يصحباني، نفعل أشياء مثيرة جدًّا.

ـ من أي نوع؟

ـ نذهب لنبتاع الصحيفة من ميدان فاتوري، ثم نتجول هنا في الجوار، ثم نجلس على دكة صغيرة مشمسة نسبيًّا، فهما يريدان أن يجلسا في الظل حيث الهواء، ونقرأ معًا العناوين الرئيسية.

كان هذا تقريبًا ما يشبه جولتي في السوبرماركت. ربما لهذا لم أستطع أن أفهم حماسه.

ـ أحيانًا نقرأ أيضًا المقال الافتتاحي.

لاحظتُ أنه لا يقول على الإطلاق «يقرآن لي» ولكن «نقرأ»، وكأنه عمل جماعي.

واقع الأمر أنه أصبح مستعدًّا بعد ذلك بعشر دقائق، يرتدي الحذاء الذي غيرت ملامحه بالورنيش الأسود، وتيشيرتًا أحمر نبيذيًّا مبقعًا بعض الشيء وسترة. ذهب إلى صوان الحائط بحثًا عن السترة الواقية من المطر.

ـ بروفيسور، في أي ساعة سيأتيان؟

ـ في الحادية عشرة.

ـ بقيت ساعة، هل سترتدي الحذاء وكل شيء من الآن؟ أليس هذا مبكرًا بعض الشيء؟

ـ نعم، بالنسبة إليَّ كل شيء سيان.

عاد إلى الصالون، وجلس على الأريكة وهو في كامل هندامه. وتغلب عليَّ شعوري الأموي غير المستخدم.

ـ بروفيسور، ولكن إذا كنت ستخرج من الأفضل أن تبدل ذلك التيشيرت لأنه مبقَّع، لربما تلاحظه صديقتك البروفيسورة وتتضايق.

ـ أتعتقدين هذا؟

كان يتمسك بألا يظهر بمظهر غير لائق.

ـ إذن، هل يمكنك أن تبحثي لي عن تيشيرت مناسب لما لديك من توجه عملي، كما قرأتِ للتوِّ، وأنا سأغيره بكل سرور.

لم يكن أمرًا يسيرًا جدًّا حيث لم يكن لديه سوى القليل من التيشيرتات والمكرمشة للغاية. يمكن الفهم، جيدًا جدًّا، أن أحدًا لم يهتم بأشيائه منذ مدة طويلة.

علق:

ـ لحسن الحظ أن فالِّي ليست هنا، وإلا ستقول على الفور إني أبدو مثل «العربجي» وستجبرني على شراء ملابس.

ـ حقًّا!

ـ تقول إنه لا بد من التخلص من ملابسي الصيفية، ولكنني لا أصدق هذا، إن هذه مشكلة رغبتها في الكمال. أتعرفين؟ إذا نشد البشر الكمال بشدة في الحياة سنفقد جميعًا الفرص الجيدة.

فكرتُ في أن هذا ربما يكون حقيقيًّا، هكذا بالسمع، حتى وإن لم يتضح لي جيدًا ما يقصده.

ولكن لفالِّي أيضًا وجهة نظر مهمة، في الدرج لم أعثر على أي تيشيرت يصلح. في النهاية عثرت على واحد جديد، لونه أصفر محرج.

سأل البروفيسور على الفور:

ـ إنه ذلك الأصفر، أليس كذلك؟

مكثتُ مدهوشة، لأنني لم أعلم بالفعل كيف تمكن من أن يُدرك هذا.

تحسَّسه بانتباه:

ـ يبدو لي أنه الأفضل. أهدته إليَّ حفيدتاي ربما لتسخرا مني، ولكنه الأكثر نعومة.

آه، الآن فهمت كيف تعرف عليه.

أراد أن يبدل ملابسه في الحمام، فعاد وياقته مقلوبة إلى الداخل. لا بد

أنها عادة عائلية، الياقات المعوجة. قدته لأن يضبط نفسه بطريقة أفضل، ويصفف الشعر القليل المتبقي، ثم ليعود إلى الصالون على الأريكة في انتظار الموعد.

علق مشيرًا نحوي:

ـ «لا يوجد رجل عظيم بالنسبة إلى وصيفه».

ولكنني لم أمكث لأجاريه، حتى وإن صدمتني العبارة. جلس هناك في صمت، وبلا مذياع، ولكن لم يطلب أي شيء، بدا كأنه يقيس الزمن. ثم ناداني لكي أبحث له عن «الساعة الناطقة». نظرًا إلى أنني لم أعرف ما هي، وصفها لي بأنها مثل ساعة اليد، ولكن بها بعض الأزرار الصغيرة.

ـ لا بد أنها في المكتب، ولكن تبدو كأنها تبخرت.

استمر بحثي ولم أعثر عليها.

ـ ابتاعتها لي ابنتي من السوق الأمريكية، أتعرفينها؟

ـ بالتأكيد، وكيف أكون من ليفورنو إذن؟

ـ إذن، ليس شيئًا خطيرًا إذا فقدتها، يمكنك أن تصحبيني بعد ذلك لأبتاع أخرى. وأهدتني ابنتي أيضًا سلسلة مفاتيح إذا صفرتُ لها ترن، ولكنني لا أستطيع التصفير، ماذا عنكِ؟

ـ لا يا بروفيسور، أنا لا أعرف كيف أصفِّر.

ـ خسارة بالفعل، لأنني لا أعرف أين توجد المفاتيح.

ليس أمرًا هينًا البقاء وراء شخص مثله. من المؤكد أن عليَّ اكتشاف ما المهم في الحقيقة عمله في هذا المنزل، إلى جانب الجري خلفه.

ـ الآن عندما أفكر في الأمر ربما، يا ماريا فيتوريا، وضعت المفاتيح في السترة الواقية من المطر.

كان هذا صحيحًا، لحسن الحظ.

ـ الوقت هو أحد أكثر الأشياء إلزامًا. يجب أن أشعر بحضوره جيدًا.

يا للسماء! وقتي أنا الذي طار.

بمجرد أن استعاد ساعته الناطقة بدا مستريحًا، ولكن عندما حانت الساعة الحادية عشرة لم يرغب في أن أصحبه إلى المدخل.

ـ سأنتظر هنا وسأقف بجوار السياج النباتي، وفي كل الأحوال لن أتحرك من فوق الرصيف. ولكن من فضلكِ أعطيني مظلة.

ـ هل ستمطر فعلًا؟

رأيته بالفعل أقل اقتناعًا.

ـ من يدري، توجد مُقدمات منطقية. لا يجب أبدًا الاستهتار بالمقدمات، أتعرفين ذلك؟

اختفى في المصعد، وتأكدت أنا من النافذة. المجموعة الصغيرة موجودة. ثم أدركت أنه على الدرابزين توجد إشارة لبعض قطرات أمطار ثقيلة صيفية.

الفصل الخامس

بينما تغلي المياه

لم تراجع إليزا فواتير الشراء قَطُّ. أضعها في الحقيبة القديمة كما أخبرتني السيدة فالِّي، ولكنها لم تأخذها، تلقي بها في سلة المهملات من دون أن تفكر للحظة. رأيت ذلك بعينَي، وفي المرة الأولى شعرت بالدهشة. كان يمكنني أن أستحوذ على أكثر مما ينبغي لي أو أن أخطئ في عد ما تبقى. على كل الأحوال، على قدر حرص فالِّي، كانت تلك لا تهتم حتى بالأمور الأساسية. إلا أنني كنت حذرة مثل عادتي، بل أضع النقود في الحقيبة الصغيرة، بالمليم. ولكن تلك الحركة، لم أرَ قَطُّ أي شخص يفعلها، ولا حتى زوجي في أفضل الأوقات، ولا أمه عندما أبتاع لها عبوة طعام القط الذي كان لديها. حتى وإن كنت أبتاع عبوة الطعام بنقود ابنها.

لم أقاوم:

ـ ولكن حضرتك يا إليزا، ألن تراجعي الإيصالات؟

ـ يجب أن تخاطبيني بلا تكلف، لقد قلت لك هذا بالفعل.

لا، لم تقُل لي هذا.

ـ ثم إننا في العمر نفسه. ولماذا يجب أن أراجع تلك الفواتير، لأحكي ذلك لخالتي؟

ذهبتُ لأفتش في كيس المهملات لأطلعها أنني ابتعت أيضًا منظفات باهظة الثمن.

نظرت إليَّ، وبدا عليها أنها تتسلى:

ـ خيرًا فعلتِ. ولكنني علمت هذا قبل الآن، فقد رأيت العبوات في الحمام.

مكثتُ مدهوشة وأنا ممسكة بالإيصال المكرمش في يدي.

ـ أثق بكِ، إذا لم أثق بكِ كيف سأتركك هنا بمفردك مع مسن لا يرى، الذي عندما كان يرى لم يكن يعرف حتى سعر الخبز؟

ـ إذن، ربما لم تكن ظروفه بهذا السوء من قبل.

ها قد قلتها، حتى وإن لم أرغب في هذا.

ـ حسب الظروف، أحيانًا تمنحك الحياة ما يؤكل، ولكن تنزع منكِ شيئًا ما، وأحيانًا أخرى تترك لكِ كل شيء، ولكنها لا تمنحك ما يؤكل. بالنسبة إلى أبي لا خيار لديه: لا بد أن يثق، على الأقل بما يتبقى له من حياة.

جلبت هذا لنفسي. إلا أنني كنت أتمنى فقط «أن ما يتبقى من حياة» للبروفيسور يستمر ما يكفي ليساعدني حتى أستجمع حياتي المبعثرة.

لكنني استمررت في عدم فهم ثقتها: إما أن بيانكيتي قالت لها إنني الأمانة المتجسدة، وإما أن هناك شيئًا آخر.

سألتُ بحرص:

ـ ولكن نظرًا إلى أنكِ ترين، على الأقل ألقي نظرة سريعة للتحقق، سأشعر براحة أكثر.

قالت:

ـ لقد ألقيت النظرة السريعة، لقد نظرت إليكِ في وجهك.

ثم ذهبت إلى غرفتها لتعزف الفيولا.

صوت غريب، حزين بالتأكيد. بمجرد أن أدرك البروفيسور أن مذياعه صاحبه صوت آخر غير معتاد، أطفأه على الفور وانتقل إلى الصالون. أراد الاستماع إلى إليزا، وأغلق النافذة جيدًا حتى لا تزعجه أي ضوضاء. ربما

تُذكره تلك الموسيقى بشيء ما، أو ربما شعر بالاحتياج لأن يسجلها في ركن ما في ذاكرته وكأنها مخزون يقتات عليه. أخبرتني إليزا بأنه في وقت ما، عندما كان يرى، عمل على تخزين الضوء تحسبًا لوصول الظلام، ربما الآن يفعل الشيء نفسه مع الموسيقى. توجد أشياء يمكن تجميدها مثل الفاصوليا الطازجة أو أسماك البربوني الحمراء، ولكن مع الأشياء غير المادية يلزم شيء مختلف تمامًا عن التجميد.

استمرت إليزا نصف ساعة في العزف، الوقت الذي انهمكتُ فيه في تقطيع كل الخضراوات ووضعتُ الحساء على النار. هذه المرة وضعَت الآلة في حقيبتها وأعادت ترتيب الفراش بمفردها، ثم أخذت تُجري اتصالات هاتفية.

سألتُ بحرص:

ـ ألن تذهبوا إلى البحر هذا الصباح؟

أجابني البروفيسور:

ـ لا، لا أعتقد هذا، ولكن إذا ذهبتِ حضرتك للتسوق، يا ماريا فيتوريا، هل يمكنك أن تبتاعي لي الجريدة؟

قال هذا كمن يطلب شيئًا ممنوعًا، وأراد أن يعطيني بضعة يوروهات بالقوة:

ـ لنتأكد أنها ستكفي.

كانت الفتاتان قد خرجتا مع بعض الصديقات.

وردت إليزا على مكالمة منتصف الصباح:

ـ لن يخرج أبي معكما اليوم لأنني يجب أن أصحبه إلى المصرف.

نحو الساعة الحادية عشرة ارتدى البروفيسور، بشكل لا يُصدق، سترة خفيفة، وحذاء غير مريح، ونظارة الشمس. أراد أن يأخذ معه المظلة، ولكن إليزا لم تتنازل عن موقفها.

ـ اليوم الشمس تفلق الحجر، ثم إذا أردت بالفعل أخذ شيء، لأنها ستمطر، سآخذ معي المظلة التي يمكن طيها.

ـ لا، لا، فقط لأنني أردت أن أمسك بشيء في يدي.

عندئذٍ فهمتُ: لم يكن يرغب في أن يستخدم عصا الأكِفَّاء الخاصة، ولا يرغب أحد في الاعتراف بهذا. إلا أن أحدهم جلبها له، فقد رأيتها في إحدى زوايا المطبخ، مخبأة بين المقشات.

لم أعرف ماذا عليهم أن يفعلوا في المصرف، ولكن أمرًا ما كان مؤكدًا في كل الأحوال: يعارض البروفيسور هذا لأنه لن يستطيع أن يقوم بجولته الصغيرة، وإليزا عصبية أكثر من المعتاد.

انتهزتُ الفرصة لأنظف المكتب حيث عادت الرمال من جديد، نظرًا إلى أنها تطير. ووسط تلك الفوضى عثرت على خطابات بظرف ذي طابع بريدي جوي، ومقال من صحيفة يعود بالتحديد إلى عشرين عامًا. على الرغم من أنها أشياء قديمة فإنها في متناول يده أكثر من الأشياء الحديثة.

كان لديَّ الكثير لأفعله، ولأنني إذا جلست وقرأت سأخاطر، خاصة أن الحساء يغلي. ولكنني كنت بمفردي ولن يزعجني أحد. وهكذا قرأت العنوان:

> في ذكرى لاورا بودجي، المعلمة المشهورة للتوجيهي التي توفيت منذ شهر إثر حادث مأسوي في كالامبرونه

تركت السيدة زوجًا، مشهورًا هو أيضًا في المدينة (يبدو أنني كنت الوحيدة التي لا تعرفه)، وابنة قاربت سن النضج. لم يُقل أي شيء عن الابنة، والقليل عن الزوج.

أما حزمة الخطابات فمربوطة بمطاط بارز، ولكنه تهالك، وبُعثر المحتوى في المكان.

بالنظر إلى الختم والطوابع الضخمة الملونة، فهو بريد وارد من الولايات المتحدة.

لم أجرؤ على النظر إلى الخطابات، ولكنني فكرت في أن البروفيسور سيطلب مني عن قريب أن أقرأ له منها بعض الأجزاء، نظرًا إلى أن الأمر

يتعلق بأشياء متروكة هناك على سطح بحر الصحف. من قطع في الأظرف تبرز كتابة عادية وواضحة جدًّا تبدأ دائمًا بعبارة:

العزيز جدًّا لوتشانو

أو ربما لا، لن يطلب مني أبدًا أن أقرأ منها سطرًا واحدًا لأنها تتعلق بشيء شخصي جدًّا، وبالماضي. ربما يفكر في أنه قد عثر على مكان آمن لأوراقه، أو لم يكن يتخيل أن خادمة متحمسة يمكنها أن تحركها. أو ربما لا يهتم. ركزت لأتذكر العبارة التي قالها في اليوم السابق: «لا يوجد رجل عظيم بالنسبة إلى وصيفه». حسنًا، ربما أخذها من أحد كتبه. ولكنها عبارة جميلة.

وضعت الخطابات جانبًا بعد أن ربطتها برباط مطاط جديد. وهكذا لا تتبعثر كالأوراق الجافة التي تعصف بها الريح.

تحت المكتب تسود الفوضى: عشرات من نسخ «التايم»، العديد منها ما زال مغلفًا بالسوليفان المُرسل به. أمريكية أيضًا تلك، ذات أغلفة مخيفة، وجوه ضخمة لرؤساء دول أو مشاهد حرب. بالتأكيد الأمر لا يتعلق بمجلات محال تصفيف الشعر.

لاحظت أن التواريخ المكتوبة تعود إلى أعوام سابقة بعيدة، حتى تلك المحتفظة بالتغليف. وكأنه في لحظة ما انتهت العلاقة مع أمريكا، ولم يعد أحد يهتم بعد ذلك بأخبارها.

أعدت كل شيء تحت المكتب، ونظمت الصالون بعض الشيء، وطويت غطاء الأريكة. ونظرًا إلى البرد المزمن لدى البروفيسور، شعرت عندئذٍ بالقلق من الشتاء.

كانت المدفأة من نوعية التدفئة المستقلة، ومن ثَم عليَّ أن أتعلم كيفية تشغيلها في سبتمبر، ذلك إذا لم يتجمد البروفيسور في منتصف أغسطس.

في الزوايا، على الأرض، عثرت على أكواب متسخة، لم تكن موجودة في الأيام السابقة.

عندئذٍ فكرت في أنها ربما تكون غلطة الفتاتين، ولكن بالشم أدركت

أنها احتوت على نبيذ، تجولت في المنزل لأفتش، وعثرت على واحد آخر في غرفة إليزا، وآخر صغير جدًّا فوق رف معلق.

عندما عاد البروفيسور والابنة كنت أمسك في يدي بالطماطم جاهزة بالفعل، محشوة بالريحان والخبز المتبقي. لم أرغب في إلقاء الخبز، بدا لي الأمر كالإهانة، وتمسكت بأن أقول هذا.

قال مؤيدًا:

ـ أحسنتِ، في وقت الحرب كان الخبز نادرًا، مثل العرفان بالجميل اليوم.

قالت إليزا:

ـ ماريا فيتوريا، من فضلك ضعي صحنًا إضافيًّا.

ـ لقد أعددت الأشياء اليومية المعتادة، لم أعرف أن لديكم ضيوفًا.

ـ لا تقلقي، بالأمس وصل زوجي، سيهتم هو بأن يبتاع شيئًا يعجبه.

شخص أطول مني بقليل، ذو شعر رمادي، يميل إلى السمرة، مظهره عادي جدًّا، اندفع داخل المنزل ناظرًا إليَّ بضيق، وكأنني متطفلة. واختفى قبل أن تنظم إليزا نوعًا من التعارف.

أغلق البروفيسور عليه مكتبه. وعندما ذهبت لأصافحه، قال لي:

ـ ماريا فيتوريا، ستأتين في الغد، أليس كذلك؟

ـ بلى، اطمئن.

ـ رائع، سأسمع الأخبار من المذياع، ولكن أوصيك بأن تغلقي الباب من جديد من فضلك، وإلا سيصبح التيار شديدًا.

أغلقت الباب من جديد. لم تكن هناك حركة لأي نسمة هواء.

الفصل السادس

التخيل في الظلام

ذلك الأصيل لم أستطع أن أنزع من رأسي أنه سرعان ما سيحين الوقت لأقرأ تلك المجلات المعنونة «تايم». كانت لديَّ شكوكي حتى في طريقة نطق العنوان نفسه، حتى وإن كنت أصل إلى ذلك. لو كان عليَّ أن أفعل شيئًا بهذه الصعوبة لأخبرتني تانيا من المؤسسة، إلا أنها حددت أنني لا بد أن أقرأ الإيطالية بطريقة «مقبولة». هذا فقط.

في عامَي الدراسيين في المعهد التجاري تعلمت قول الأشياء غير المهمة بالإنجليزية من نوع: «هل تفضل كوبًا من الشاي أم كوبًا من القهوة؟»، وربما تعلمتها جيدًا لو أكملتُ الدراسة. إلا أنني تركتها وذهبت لأعمل في مطعم للبيتزا حيث توجد ملاعب كرة القدم، لأعد الإيصالات وأنظم مواعيد لعب الفرق. ومكثت هناك بما يكفي لأتعرف على من أَصبح، بعدها بأعوام، زوجي. كان ساحرًا في إدارة رأسي، راسخًا على حراسة المرمى بتركيز هداف مُختار لا يضيع عن نظره الهدف أبدًا. يتبع فريقه بعينيه، ويناور الكرات من دون أن يتحرك كثيرًا.

كان صخرة، ووثقت بهذا.

وهكذا تزوجته، ربما مبكرًا جدًّا عندما أعيد التفكير في الأمر.

شيء آخر أخذت أسترجعه: الإيصالات الملقاة من دون حتى إلقاء نظرة. تلقي إليزا بها وتضع لي نقودًا أخرى في الدرج، المبلغ نفسه في

كل مرة. تضعه في كل الأحوال، حتى وإن لم تكن النقود قد انتهت، وإن لم أطلب منها نقودًا أخرى، فقط لتتأكد أنه لا ينقص شيء، حتى أصبحت لديَّ قناعة أن النقود، في ذلك المنزل، تنمو تلقائيًّا، مثلما ينمو العفن في منزل حماتي.

إلا أن النقود لا تسقط من السماء. ففي نهاية الأمر لم يكن البروفيسور سوى شخص على المعاش، ربما يحصل أيضًا على إعانة الإعاقة، ولكنه بالتأكيد لم يكن قارون. كان المنزل عاريًا، عامرًا فقط بالكتب. في إحدى الردهات توجد أيضًا مكتبة مكتظة بالمعاجم والدفاتر. دفاتر منتفخة، صفحاتها مجعدة، مليئة بخط مثل نبش الدجاج، مكتوب بقلم جاف. ليس هناك أثر لحسابات ولا أرقام، ولا حتى خرائط للعثور على الكنز.

لأصل إلى منزلي يوجد أمامي طريقان: أن أمر على الكورنيش أو أن أسير في الطرق الداخلية.

عامة، بمجرد أن أركب السيارة، تأخذني سيارتي «الباندا»، الحارة جدًّا، إلى مقصدي عبر الطرق الداخلية. عادة ما أكون متعجلة لأرى إذا كان كل شيء على ما يرام في المنزل، وإذا كان أتشيتو يحتاج إلى أن يتبول، أو تحتاج حماتي إلى شيء، أو ترك لي زوجي القمصان المعتادة، وإذا جف العفن. إلا أنني بعد واقعة الإيصالات ذهبت من جهة البحر، بل ابتعت لنفسي شطيرة لآكلها أمام الصخور. نزلت أكثر نحو الجنوب وجلست على كتلة في أنتينيانو، حيث في الصيف يعوم الناس عادة، أو على الأقل يحاولون، نظرًا إلى انخفاض مستوى المياه.

كان الجميع يستمتعون كثيرًا، والمياه مغرية، شفافة، ومن فوقي سماء زرقاء بها بعض الكرات القطنية البيضاء. هناك من يمكث ليشوي في الشمس، ومن يتحدث جالسًا على طرف صخرة، ومن يحاول الصيد. أحدهم صدم قدمه بقنفذ بحر، وأخذ يتأمل باطن قدمه.

كانت الشطيرة شهية، وأشعرتني برغبة في اتخاذ قرار ما، في الغد سأذهب إلى البروفيسور وزي البحر في حقيبتي، وسأرتديه قبل أن أرحل، ثم سآتي لآخذ غطستين. أنا أيضًا.

في صباح اليوم التالي عثرتُ على زوج إليزا في المدخل. تصرف كالمرة الأولى، مبديًا الضيق مع كل خطوة من هناك حتى الحمام. يصر على أن يُفهمني أنني غزوت أرضه. لديه شيء ما يذكرني بزوجي.

الآخرون جميعًا كانوا صامتين، ومحبوسين في المطبخ. تنهمك إليزا في تنظيف المائدة، فيما استمر البروفيسور في إلقاء البسكويت وقطع من «الكروستاتا» في فنجان القهوة باللبن بطريقة عشوائية. تشرب الفتاتان، بلا رغبة، عصير الفاكهة من المعلبات، وفي الجوار يسبب الفتات السعادة لصف من النمل يجري بطول الحوض.

أنعش وجودي الكل بعض الشيء.

قال البروفيسور:

ـ ماريا فيتوريا، سأخرج معكِ هذا الصباح.

ـ كان حساء الخضراوات شهيًّا جدًّا، هل تعدين لنا اليوم سلطة من سلطاتك؟

سألتني إليزا.

بدا لي تشجيعًا جيدًا.

قال البروفيسور من جديد:

ـ لا بد أن أخرج معها، نظرًا إلى أن أصدقائي لن يستطيعوا الحضور: أحدهم لا بد أن يذهب للطبيب بسبب الحمى الروماتيزمية، بينما الآخر سجين تعليمات زوجته، وأورورا تعاني وجع أسنانها.

ـ إنه مستوصف يا بروفيسور.

ـ فيما عدا أورورا التي تتمتع عادة بصحة جيدة، أصدقائي، كما يمكن أن تتخيلي، لم يعودوا شبابًا.

ـ على كل حال، ما زالوا يسيرون، أليس كذلك؟

ـ ذلك المصاب بالروماتيزم يسير ببطء، على الأقل مثل فالّي قصيرة القامة.

كدت أضحك، إذن يمكننا أن نقول إن كل عيوب العالم مُركزة في فالّي.

في هذه الأثناء، دخل زوج إليزا، أخذ بيرة من الثلاجة واختفى. شيء مبشر في التاسعة صباحًا.

سأل البروفيسور ابنته بصوت منخفض، وكأنه يحاول أن يحتمي من تلك الغزوة:

ـ متى ستذهبين إلى البحر؟

ـ بعد قليل. وعند الساعة الواحدة والنصف ستعد ماريا فيتوريا سلطة شهية.

ـ لا أريد سلطة.

ـ بابا، إنها مفيدة لك.

ـ لا أستطيع أكلها، تهرب من شوكتي باستمرار.

ـ لتعثر لنفسك على عذر آخر يا بابا.

نهض وغرس نفسه في الصالون، ربما بالقرب من نافذة الحمامات. ولكن لحسن الحظ وضع يديه أمامه.

شعرت بشيء من التوتر، التوتر نفسه الذي أستشفه منذ شهور في منزلي. ليس لأنهم يفعلون أو يقولون شيئًا معينًا، ولكن يمكن للهواء المحيط بهم أن يُقطع بالسكين.

في خلال نصف ساعة خرجوا جميعًا، وذهبت أنا لأُخرج البروفيسور من مخبئه.

أعلمته سابقًا:

ـ أنا على وشك تشغيل المكنسة الكهربائية.

ـ وبعد ذلك ستصحبينني لأبتاع الصحيفة، أليس كذلك؟

ثم علق:

ـ ذهبوا من دون حتى أي تحية، للأسف ليس في إمكاني تغيير الأشياء.

لاحظت أنه يوجد، على حافة النافذة، كوب في وضع خطير، على وشك السقوط. أخذته بحذر حتى لا يلاحظ.

قال:

ـ أشتم رائحة نبيذ، غريبة.

شممت. كان أنفه حساسًا.

ـ بهذه المناسبة يا ماريا فيتوريا، هل يمكن أن تقرئي لي بداية مُختصر إبكتيتوس؟ لا بد أن يكون هناك، تحت الصحف.

نظمت الصحف، ولكنني لم ألحظ الكتاب.

حدد البروفيسور:

ـ إنه ملف صغير مفكك بعض الشيء.

عثرت عليه، لحسن الحظ لم أُلقِ به مع أوراق الدعاية.

ـ اقرئي لي، من فضلك، من البداية، ستجدين كيف يمنح التعليمات الخاصة بكل موقف. هل لديكِ ما يكفي من الإضاءة؟

كان الضوء قويًا إلى حد أنه يمكنني الاستعانة بنظارة الشمس، ولكن إذا كان الأمر فعلًا كما يقول، من الأفضل أن أقرأ وأنا واقفة مرتدية المريلة:

ـ «من الأشياء ما هو في قدرتنا وطوقنا، ومنها ما ليس في قدرتنا وليس لنا به يد: فمما يتعلق بقدرتنا: تقييمنا ونوازعنا ورغبتنا ونفورنا، باختصار كل ما هو من عملنا وصنيعنا. ومما لا يتعلق بقدرتنا أبدانُنا وأملاكُنا وآراؤنا...»، هل أستمر؟

ـ فلتتركي ما يلي حتى تصلي إلى: «باختصار كل ما ليس من عملنا وصنيعنا». ثم؟

ـ «أما الأشياء التي في قدرتنا فنحن بطبيعتنا أحرار فيها، بلا حائل بيننا وبينها ولا عائق. وأما الأشياء التي ليست في قدرتنا فهي أشياء هشة

وعبودية وأمرها موكول لغيرنا. تذكر إذن أنك حين تأخذ ما هو بطبيعته مملوك على أنه حر، وما هو موكول لغيرك على أنه لك، فلسوف تخيب، وتأسى وتنخذل...».

ـ أجل، بالتحديد. من الأفضل دائمًا أن نوفر على أنفسنا فكرة سواء زائدة أم ناقصة. أعطيني من فضلك الكتيب لأضعه في سترتي.

ـ بروفيسور، هل يمكن أن تشرح لي فيما بعد بطريقة أفضل.

حك رأسه متمتمًا:

ـ يجب ألا نرغب بعند في أن تسير الأمور كما نتمنى، ولكن أن نتمنى أن تسير على سجيتها.

حاولت أن أقول شيئًا رصينًا:

ـ ربما، ولكن أليس مستسلمًا بعض الشيء إبكتيتوس هذا؟

ـ رواقي، رواقي.

ـ لا يمكن أن نستخرج الدماء من اللفت، أليس كذلك؟ يقولون هذا أيضًا في السوق.

ضحك.

ـ أحسنتِ. ولكن هذا لا يكفي، لا بد ألا تمسنا الأشياء، إلا أننا بصورة عامة نغضب. كوننا نشعر بأننا بخير أو في حالة سيئة يعتمد فقط على أنفسنا، وعلى طريقة تقييمنا المواقف. إلا أنني لا أرغب في أن أشعركِ بالملل.

فكرت في الإيصالات. ربما هي تثق بي لأنه يجب عليها ذلك. وهذا لب الموضوع فقط.

أعادني البروفيسور مرة أخرى إلى أرض الواقع:

ـ ما رأيكِ في فنجان قهوة جميل مثل ذلك الذي شربناه بالأمس؟

ـ تقول إليزا إن شرب القهوة كثيرًا ربما يؤذي حضرتك.

ـ ربما، ولكنها ذهبت إلى البحر.

- إذن، ماذا سنفعل؟
- لن نقول أي شيء لأحد.
اختتم:
- يبدو لي أمرًا حتميًّا. الأوقات الصعبة تتطلب حلولًا استثنائية.
أخذت كنكة موكا صغيرة وحاولت أن أعد قهوة خفيفة.
- رائعة. كنت أحتاج إليها بالفعل. سأرتدي حذائي ثم أنتظركِ تحت بجوار السياج.

كانت تلك أول تمشية من سلسلة طويلة، كنت أشعر بذلك، ولكنه لم يكن اليوم المناسب للبداية. مع وجود خمسة أشخاص في المنزل - لم تُشِر عائلة إليزا إلى أنها ستذهب من هنا بكل فوضاها - كان لديَّ الكثير لأفعله، ولم أعلم أين يمكنني أن أضع «الجولة» في اليوم. إلا أنني لم أقوَ على أن أقول للبروفيسور إن الوقت متأخر. تلك الأحداث الصغيرة مثل المكالمة أو التجول في الخارج تبدو ذات أهمية حيوية لنجاته، بالأهمية نفسها التي بها يجب عليَّ أن أهتم باحتياجاته. بدأت أشعر بتناغم معين معه، وكان افتقاده الكامل للشعور العملي يحنن قلبي في نهاية الأمر.

وبسرعة نزعت عني المريلة والشبشب لألحق به. رأيت قبعته المصنوعة من القش تبرز من خلف السياج.
- كما ترين، حضرتك، فأنا قد حافظت على وعدي بأن نستعيد تمشية اليوم السابق، من المؤكد لم تتوقعي هذا.
بالفعل، لم أتوقع أنه يهوى جولة فيلَّا فابريكوتي إلى حد أنه يعرض عليَّ زيارة بالشرح.

كانت الأيام، على كل حال، تقترب بسرعة، وبدا لي الوقت هناك أسرع. من يدري إذا كان سيقدم لي درسًا أيضًا عن هذا.
- حسنًا، نقترب الآن من كشك الصحف في ميدان فاتوري، تعرفين أين هو، أليس كذلك؟

- لا، كشك الصحف لا. إلا أنني أعرف جيدًا مكان بائع الفاكهة ومحل بيع جبن الماعز المفضل لدى حضرتك.
- بالتأكيد، لكلٍّ منا تخصصاته، ولكنني بعد ذلك سأطلعكِ على عجائب المنطقة وخاصة فيلَّا فابريكوتي، حيث أذهب أنا وأصدقائي، وحيث كانت تركتني إليزا عندما تأخذ الطفلتين إلى الحديقة وهما صغيرتان. ولكن في إحدى المرات، وهي صغيرة، ركنتها أنا مع إحدى صديقاتها، في تلك المرحلة كنت أستطيع بعد القراءة جالسًا على أريكة. أترين كيف تقلب الحياة الأوراق؟

كنا نسير تقريبًا بخطوة جيدة، واستنتجت أن الذهاب للتجول معه أمر سهل جدًّا.

اصطحاب شخص لا يرى أين يضع قدميه، يستلزم التخيل المستمر أين يمكنه وضعهما. فالأرصفة ضيقة، أو مليئة بالحفر، أو متسخة، أو الناس لا يفكرون في إفساح الطريق، ولا يتخيلون أنهم سيقابلون في مواجهتهم شخصًا كفيفًا. أجل، ربما كانت العصا ضرورية، ولكنني قررت ألا أفتح الموضوع.

- إذن، يا ماريا فيتوريا، سأمسك بمرفقك، وهكذا أفهم جيدًا إلى أين يجب أن أتجه، إلا أنني أحذرك من أنه يجب علينا أن نعبر الطريق.

أدركت أنني أتعب أكثر من التركيز على الطريق من المشي نفسه، بل إنني لم أركز قَطُّ بهذه الطريقة في حياتي، إلى حد أننا تجاوزنا بائع الصحف.

قال فجأة البروفيسور:

- لا بد أنه هنا. سمعت صوت جوليو.

كان بائع الصحف قد أعد الصحف اليومية بالفعل:

- ولكن يا لها من فتاة جميلة يا بروفيسور هذا الصباح، هه؟

قدمني له بتهذيب شديد:

ـ اسمها «ماريا فيتوريا».

كان بائع الصحف يرتدي نظارة كالهلال، متزنة على طرف أنفه المُجعد، سمينًا، أصلع ومرحًا. قال لي:

ـ هل تعرفين أن البروفيسور في الصباح مواعيده دقيقة جدًّا، إلى حد أنني عندما أراه يمكنني أن أضبط ساعتي.

بينما نبتعد علق:

ـ كدت أصبح أسوأ من كانط.

ـ ممن؟

ـ كانط. كان أكبر روتيني.

علقتُ:

ـ إذن، كان عليه أن يعمل قليلًا.

ـ أصبتِ. إذن حضرتك لم تسمعي قَطُّ هذا الاسم؟

ـ ربما. أتذكر فقط سقراط وأفلاطون.

ـ إذا فكرنا جيدًا فهما يكفيان ويفيضان.

ـ ولكن حضرتك يا بروفيسور، ماذا كنت تُدرِّس؟

أجاب:

ـ الفلسفة، والتاريخ أيضًا.

كان واضحًا. في تلك اللحظة شعرت بالفعل بأنني وصيفة لرجل عظيم.

ـ ولكن تلك العبارة التي قلتَها ذلك اليوم، هل هي من تأليفك؟

دُهِش:

ـ هل يمكنكِ أن تُذكريني؟

ـ «لا يوجد رجل عظيم بالنسبة إلى وصيفه».

ـ آه تلك، لا، إنها عبارة هيجل، الرجل العظيم يظهر لوصيفه كما هو، كاشفًا عن احتياجاته. أنا أعرف أين كتبها.

لم يستكمل، ربما كان متعبًا. وكانت عيناي مركزتين على قدميه، يجرهما

بعض الشيء، وكأنه يرغب في أن يتبع مسار الأرض. أحيانًا يتعرقل ببعض الحصى، أو يتعثر في بعض الحفر الصغيرة.

يمسك بجرائده اليومية الثلاث بقوة تحت ذراعه الحرة، وكأنه يخشى أن تهرب منه. أعطاها لي بحرص شديد، بمجرد أن أدرك أن الإشارة حمراء، نظرًا إلى أنني لم أتحرك.

ـ هل يمكنكِ، من فضلك، أن تقرئي لي العنوان على اليسار، تحت العنوان الرئيسي؟

ـ مكتوب: «إذا كانت تلك هي أوروبا».

ـ أشكرك، أشكرك، يكفي فقط أن تقولي لي من وقَّع المقال.

عبرنا، وشعرت بأن أنفاسه متهدجة بعض الشيء. يرتدي كنزة ثقيلة، ومع ذلك الحر، هذا أقل شيء.

ـ هل يكفي حضرتك معرفة العنوان فقط واسم الكاتب؟

ـ يكفيني الآن، أحيانًا يصنع الخيال المعجزات.

أربكني هذا الرد.

ـ هل يمكنكِ أن تري فيلّا فابريكوتي هناك على اليمين؟

ـ أرى بوابة.

ـ ذلك بالتحديد. هذا هو مقصدي اليومي، هل ندخل هنا نحو عشرة أمتار؟

لم يبدُ لي ذلك حقيقيًّا، إلا أننا جلسنا على مقعد تحت شجرة بلوط.

تعبر الشمس متربة هنا وهناك بين الأغصان، ويسود السلام.

سألته:

ـ لماذا لا تذهب إلى البحر حضرتك أيضًا من حين إلى آخر؟

ـ اليوم على سبيل المثال. غدًا الوقت سيسوء.

وصل طائر شحرور ليغني على تمثال رخامي أمامنا.

علَّق:

ـ لطيف، هل يقف فوق الغصن أم على رأس ماسكاني؟
ـ على الرأس.
ـ ثم يقولون إن التماثيل الرخامية لا تفيد في شيء.
تأملته: قبعة من القش نازلة على جبهته تلمس نظارة الشمس، قدماه النحيفتان واحدة فوق الأخرى، جذعه مُمدد بعض الشيء للأمام وكأنه يحاول أن يلتقط الأصوات أو الحركات، كتفاه محدبتان بعض الشيء، ولكنهما ما زالتا عريضتين جدًّا. ربما كان سباحًا.
ـ حضرتك يا ماريا فيتوريا، تتساءلين عن بعض الأشياء، أليس كذلك؟
جفلتُ. هل يمكن أن يسمع أفكاري؟
ـ حضرتك، وأنت ما زلت تتمتعين بمتعة النظر، لا تتخيلين كم الأشياء المنقوشة في ما لم يعد بالإمكان رؤيته.
ـ بروفيسور، عمَّ تتحدث، عن المقالات؟
أخذ يضحك.
ـ لا، هناك الأشياء مكتوبة وليست منقوشة.
بحق السماء، هذا أسوأ من السير ليلًا، ولكن زاد فضولي والدقائق تمر.
ـ فكري في الهواء الذي يمكنه أن يحرك ذلك الشحرور على رأس التمثال. كل حركة انتقال تُولِّد تغييرًا يصل إلينا.
ـ بأي معنى؟
ـ مثل المياه يا ماريا فيتوريا، مثلما يحدث في المياه. جربي أن تفتحي هذا الملحق.
ووضع أمامي ملحقًا صغيرًا، اختاره بمعيار لا أجد له تفسيرًا.
ـ يوجد فيه مقال مثير، أليس كذلك؟ يتحدث بالتحديد عن تيارات الجاذبية. أرأيتِ، مثل تلك التي في المياه.
ربما تحدثوا عن هذا الأمر في المذياع، نظرًا إلى أنه يتحدث بنبرة واثقة.

وجدت المقال وشعرت بالفزع من فكرة قراءته، ولكن الأسوأ من ذلك: الصورة.

ثقب أسود.

ـ لا تقلقي، لن أطلب من حضرتك قراءته.

ـ إذن، ماذا تفعل يا بروفيسور، هل تتخيل هذا أيضًا؟

فهمت أنني، وليس هو، من يتلمس طريقه في الظلام، على الأقل في هذه اللحظة.

ـ لا، يجب ألا أتخيل أي شيء، يجب فقط أن أحترس من ألا أفقد أبدًا صفاء النفس. على الرغم مما يكتبونه على صفحات الجرائد.

رفع رأسه واستلقى على المقعد، وكأنه خضع أخيرًا لاحتياجه إلى الاسترخاء، وفي الواقع طار الشحرور بعيدًا، وكأنه كان تجسُّدًا لأفكاره.

ـ ولكن ألا أُشعركِ بالملل بتلك المناقشات؟

ـ لا يا بروفيسور، يبدو لي أن حضرتك تنيرني كمصباح.

بمجرد أن أعددت المائدة، وتركت كل شيء جاهزًا، ارتديت لباس البحر الأزرق ذا القطعتين، ذلك الذي صنفه زوجي وكأنه «إسفنجة للصحون»، وانتظرت حضور الباقين، مع البروفيسور في الصالون الذي يشغل ساعته الناطقة كل خمس دقائق تقريبًا.

ـ الوقت متأخر، لا بد أن تذهبي، اتركيني هنا مع مذياعي الصغير.

بدا قلقًا، نافرًا من شيء ما. قال لي إنه يقلق عندما يتأخر أحد «لأن ما لا يمكن توقعه للأسف موجود»، ولكن لم يكمل عبارته لأننا سمعنا صوت وضع المفتاح في الباب، أخيرًا.

الفصل السابع
السباح

نزلت بعجل على السلالم الرخامية ووصلت بسرعة إلى سيارتي «الباندا». كنت أريد أن أذهب أكثر إلى الجنوب هذه المرة، بعد مدينة كالافوريا بقليل.

شعرت بإحساس العصيان الذي ينتابني كفتاة عندما تزوغ رفيقاتي من المدرسة. «سنتقابل عند البوابة قبل أن يرن الجرس ثم نأخذ الحافلة التي تسير بمحاذاة ساحل الروميتو، هيا، تعالي معنا!».

ولكنني في النهاية لم أتبعهن، ربما لأنني بداخلي كنت هناك أسبح كعروس البحر بمنشفة بلون النمر، ولكن أذهب إلى المدرسة في كل الأحوال.

في ذلك اليوم ذهبت مباشرة حتى الصخور. أشعر بالأسى فقط بالفعل من أجل أتشيتو، ولكنني سأصالحه.

نزلت إلى أسفل بحثًا عن موقع أترك فيه حقيبتي.

كان البحر يتموج للتوِّ من رياح المايسترال ويرتفع دائمًا في تلك الساعة، ولكنها ربما أفضل لحظة للضوء، قوة الشمس مع نفحة الهواء، فيها يتشابه الاستمتاع بالمياه من داخل البحر أو خارجه. جلست وقدماي في شيء كالحوض الطبيعي لأنظر إلى حركة الموجة التي تُغير من لونهما.

كان منظرًا جميلًا، وبداخلي أحاول أن أصفه كأنني أرغب في حكيه للبروفيسور. لم أستطع لأنني لم أكن بارعة في استخدام الكلمات أو ربما لأن الكلمات لا تخضع لي.

ـ مارفي!
لم أفهم على الفور من أين يأتي ذلك الصوت.
سمعتُ الصراخ:
ـ بارونشيني!
كانت تانيا، والمعبأة بصعوبة في بكيني أحمر اللون بنقاط بيضاء، إلى حد أنها بدت لي كأنها ترتدي شريحتين من السلامي.
تجر خلفها طفلًا تغطيه الخربشات يقفز باستمرار مثل ضفدعة من الصخرة إلى المياه ومن المياه إلى الصخرة، حتى التهب جسمه كله كأنه الجزرة.
استمرت في الصياح، من على مسافة أقلها أربعة أمتار:
ـ إذن، ماذا ستقصين عليَّ؟
لم نكن فوق جزيرة منعزلة، ولم يكن لديَّ سوى القليل جدًّا لأقوله. في الواقع تضايقت جدًّا أنها نادتني بهذه الطريقة، هل لا بد أن تعرف السلطعونات أيضًا أخباري؟
ـ بخير. كل شيء على ما يرام.
ـ في المرة الأخيرة لم تكن الأمور على ما يرام، هل تتذكرين؟
لحسن الحظ يصرخ أهل ليفورنو كثيرًا، لذلك لم يبدُ على أحد أي فضول. فيما عدا واحد.
ـ أجل، أجل، ولكن على كل حال أعمل الآن.
ـ لدى فارنيزي، أليس كذلك؟
ـ بلى، لدى البروفيسور.
ـ هل رأيت أنه بقليل من الإرادة الحسنة يمكن الحصول على كل شيء؟
ميركو!
كان الطفل قد ألقى بنفسه على ثعبان مائي من المطاط واتجه نحو البحر المفتوح.

ـ انظري إلى هذا الملعون، ومن ذا الذي يجب أن يلحق به، هذا حفيدي. ميركو، عُد إلى هنا!

لم ينظر إليها، وأجاب بأنه أخذ يسبح وكأنه لا بد أن يصل إلى جزيرة جورجونا.

وهكذا انتقلت إلى حافة ذلك المقفز الطبيعي، حتى خشيت من التأثير الذي يمكن أن تحدثه شطيرة ضخمة من السلامي إذا سقطت في المياه.

ـ ميركووووو!

ولكنني نجوتُ. قال الجالس بجواري، الوحيد الذي تابع كل ما حدث:

ـ الآن سأذهب أنا.

ـ ولكن انظر كيف يسبح بسرعة. ميركووو!

أضاف ذلك الشخص:

ـ سأمسك به على الفور.

نهض بهدوء، ورأيت انعكاس هيئته في الضوء، لم أستطع أن أنظر إلى وجهه لأرى إذا كان الأمر مسليًا. ذهب ليضع الزعنفتين وهو يجلس على قمة الحافة ثم غطس.

سمعتُ تانيا تقول بصوت منخفض، لأنها اقتربت:

ـ إيبيه بارونشيني، أعتقد أن أحدهم معجب بك.

كان يكفي السباح بعض الضربات ليمسك ويجلب إلى الشاطئ العوامة المطاطة بحملها الذي تململ. عندئذٍ هدده:

ـ إذا عاودت الذهاب سيأتي خفر السواحل لأخذك.

ـ أشكرك، أحسنت. والآن هو يسمعني جيدًا هو وأمه وأبوه!

بدأ الطفل المزعج على الفور في النحيب، مما أدى، شكرًا للسماء، إلى استحالة أي محاولة حوار أخرى من جهة تانيا.

في ذلك الوقت نزع السباح زعنفتيه، وألقى بنفسه في البحر على بُعد مترين مني، بمهارة شديدة.

ـ وحضرتك يا آنسة، هل تعرفين طريق العودة بمفردك من جورجونا؟
ورأيت ابتسامته تنعكس على سطح المياه اللامعة.
ـ يكفيني أن أصل أمام صخرة الميلوريا.
بمجرد أن تأكدت من أنني غير ملحوظة إلى درجة كبيرة، قفزت في الماء كأنني بطة في البركة. لم أنظر جيدًا إلى ذلك الشخص، ولكن كان قوامه لا بأس به، ربما أصغر سنًّا مني، ولم يبدُ لي «متمردًا». وما أثبت ذلك انطلاقه بحيوية بالنية الواضحة لمن يرغب في أن يُترك بسلام.
الغوص في المياه كان بمنزلة شفاء، بمنزلة معمودية. ربما كان ذلك الاستحمام الثالث لي في هذا الموسم لأنني قد نسيت بالفعل أنه فيما وراء المآسي، يمكن أن يوجد شيء آخر.
ابتعدتُ قليلًا، وأنا أسبح بعشوائية بسعادة غير منطوقة، وفي الوقت نفسه مثبتة نظري على الصخرة، والحقيبة والمنشفة، وعلى تانيا التي تدفع التيشيرت في رأس الطفل المزعج، وخط التل مقابل السماء.
أغمضتُ عينَي، ووضعتُ رأسي تحت المياه وشعرت بانتعاش البحر، ثم ابتعدتُ عن الشاطئ بكسل، لأتذوق ذروة كل ذلك الجمال. وأنا أتمنى أن تسير الأمور كما تسير.
وجدتُ نفسي على مسافة معقولة، حتى إن السباح مر بجواري مرة أولى، ثم ثانية ثم ثالثة.
في الرابعة توقف وسأل بعد أن تفل المياه:
ـ ولكن حضرتك يا آنسة أتسبحين أم تؤدين دور الشمندورة؟
ـ أطفو بصفة عامة.
كان شعره قصيرًا، قاتمًا، ووجهه مربعًا ومائلًا إلى السمرة بعض الشيء. ولكنه لم يخلع نظارته.
ـ إذن، نظرًا إلى أنني قدمت صنيعًا لصديقتك، هل تقدمين حضرتك صنيعًا لي؟

ـ إذا لم يكن الأمر يتعلق بألا أذهب لأصطاد الأخطبوطات، ربما نتحدث.

ـ لا، لا يوجد أي أخطبوطات، يكفيني ألا تتحركي من هنا، ربما تتظاهرين بالموت.

ـ لماذا؟

ـ يهمني مكانك كدليل. فتحْتك رأيتُ «أوريليا أوريتا» رائعة الجمال.

يا إلهي، شخص آخر يعرف أشياء لا نهائية أكثر مني.

ـ التي تعني؟

ـ قنديل البحر.

ـ لا. أين؟ النجدة!

وأخذتُ أرفس بغضب لأعود نحو الشاطئ.

ـ لم تكن تلك هي الاتفاقية.

ـ قنديل البحر، لا!

ـ ولكنه كائن عضوي مثير للاهتمام، وخاصة أقل عدوانية.

استمر ذلك الشخص ماكثًا بهدوء في موقعه.

ـ هذا ما تقوله أنت!

ـ هل نتعرف؟

كنتُ بعيدة بالفعل. بفضل قنديل البحر هذا سبحت كالصاروخ. مكث هو خلفي ورأيته يغوص تقريبًا في المكان الذي هربتُ منه. ثم أخذ يعوم كالضفدعة نحو الشاطئ، وقلَّت الابتسامة على سطح الماء بوضوح.

ـ أقل عدوانية، أليس كذلك؟

ـ النوع الأول بلى، ولكن بجواره كان يوجد واحد من نوع «بلاجا نوكتيلوكا»... صغير، وردي، وهجم.

تحدث كأن في فمه توجد ثمرة كستناء. كانت شفتاه قد انتفختا بالتأكيد بعض الشيء، وكدت أضحك.

ـ هل كان صديقك أيضًا «البلاجا نوكتيلوكا»؟ إذا لم تكن لديك الرغبة في أن تقفي كالشمندورة كان يكفي إخباري بذلك.

قفز على الصخرة وأعطاني ظهره، العريض، وبحث عن عصا. بدا مستعدًّا جدًّا لأي موقف.

سألني:

ـ هل سأراك مرة أخرى؟

ـ ربما نتقابل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فكرتُ: بل أحب أن أراك مرة أخرى.

في المنزل لم أستطع أن أركن السيارة بسبب أتشيتو الذي كان يقفز حولها فرحًا. كانت حماتي ترتدي البذلة الرياضية الخضراء من نسيج الشنيل، التي كنت أهديتها لها منذ أعوام، وتُحرك اللجام كأنه المقود. لن يطيعها الكلب بالتأكيد. كان بالفعل إنجازًا أن استطعتُ أن أفتح باب السيارة.

ـ بارولو، اتركها لحالها!

أما ذلك فلم يُصغِ لها، كان يتصرف مثل ميركو حفيد تانيا. لم يكن لدى أتشيتو أي شكوك، في هذه اللحظة كان واضحًا أنه يفضلني منذ مدة طويلة.

اقتربت حماتي، واستطعت أن أرى الشعر الأبيض الذي بدأ ينمو من جديد تحت الصبغة الحمراء التي تطلب مني دائمًا أن أضعها لها:

ـ هل قرأت الورقة؟

ـ أي ورقة؟

ـ لا بد أن تدفعي أنت فاتورة المياه، لأن ابني قال لي إنه لا يحتكم على نقود، بينما أنت أجل، لأنك لا بد وقد خبأتِها منه.

ـ حسنًا.

دُهِشتُ. لم أرغب في أن أستقبل أي استفزاز، ولكنها أعدت بالفعل أسلحتها وبدا لها مستحيلًا أنها لم تفِدها بشيء.

أخذتُ اللجام من يدها وأتى أتشيتو على الفور لأضعه له.

ـ اسمعي، طلب أن تعدي له الأريكة، مسكين، فهو يعمل حتى وقت متأخر، وليس مثلك.

ـ حسنًا.

ـ ولكن ألا يمكنك أن تضعي لي الصبغة صباح الغد؟

ـ لا، في الصباح لا، ولكن يمكن في المساء.

ـ ولكن ماذا تفعلين طوال اليوم، حتى ذلك الوقت؟

ـ أقرأ.

ـ ينقصنا هذا أيضًا.

بدأت تنفعل، لم تكن تعرف أين تهجم، كأنها ثعبان.

ـ سأصبغه بمفردي إذن، حتى من الخلف، وهكذا تستمتعين بكل أيامك، من يدري كيف سيصبح.

ـ حسنًا.

كان حقيقيًّا، ساء الجو بعض الشيء، بسحابة رمادية لم تتحرك من فوق بلدة مونتينيرو. غطاء، ولكن محمل بالأمطار، حتى البروفيسور أعلن سابقًا عن ذلك.

كان أفضل من البارومتر، عندئذٍ استفسرت منه عن هذا الشأن، فقال بسخرية:

ـ لديَّ مصادري.

ـ وهي؟

ـ في البداية كان اليمام، ولكن أخشى أن أحدهم طرده، إذن الآن، أيتها العزيزة ماريا فيتوريا، أصبح مصدر معلوماتي المؤكدة هو باب الحمام.

ـ بمعنى؟

ـ يصر عندما توشك الرطوبة على الحلول، ثم عندما تمطر يتوقف عن الصرير ويعلن عن الشمس.

ذهبت لأتأكد، وبالفعل كان يصر قليلًا.

ـ ولكن من فضلك لا تضعي الزيت على المفصلات لأن هذا سيكون غير مناسب بالنسبة إليَّ.

ـ هل سبق وحاولت حضرتك؟

ـ بالطبع. ثم أزلت الزيت بالمناديل الورقية حتى أعيده كما كان.

ـ أعدك، سأتركه كما هو.

ـ وأيضًا اليمام كان يجب أن يظل في مكانه. الجميع مقتنعون بأنهم لا بد أن يحسنوا الأمور، ولكنهم لا يعلمون بالتحديد معنى تحسين الأمور.

ثم أضاف:

ـ إنه شيء بائس عندما يحكم أحدهم في محلك، وعلى حياتك، بل إنه في الحقيقة إيذاء فعلي. حاولي أن تضعي نفسك مكاني.

التزمتُ الصمت لأنني اعتقدت أنه سيضيف شيئًا آخر.

ـ فالِّي على سبيل المثال.

بالتحديد.

ـ قررت فالِّي بدلًا مني، وفي هذا الصباح تآمرت مع ابنتي لتأخذني وتبتاع تيشيرتات. ثم قررتا أنني يجب أن أجد لباس بحر آخر لأنني فقدت الكثير من الوزن. على حسب قولهما. بالنسبة إليَّ، لا، لأنني أشعر بأن بطني كبير.

نظرتُ إليه جيدًا، كان نحيفًا بالفعل، أخذ يشد حزام البنطال المثقوب الذي يرتديه في المنزل، ولكن بلا نتائج مقبولة. ربما ذلك الشعور بـ«البطن الكبير» لا بد أن يوصله إلى الطبيب وليس إليَّ.

قلت:

ـ بروفيسور، بما أننا نتحدث عن هذا، ربما تحتاج إلى أن تبتاع حزامًا.

ـ فكرة سديدة.

بدأ يصبح لي تأثير معين.

ثم اختفى، وبينما أنظم المطبخ، ظهر مرة أخرى وكومة من النقود في يده. من يدري من أين أحضرها، لا بد أن لديه مخبأ آمنًا.

ـ ماريا فيتوريا، نظرًا إلى أنني ليس لديَّ أمل في اليوم، وأنني لا بد أن أذهب لأبتاع تلك التيشيرتات الشهيرة، أريد أن تخبريني إذا كانت هذه الأوراق كافية.

ـ إذا لم تكن ذاهبًا لابتياع تيشيرتات مطرزة بالذهب، يمكنني أيضًا أن أقول إنها تزيد على الحاجة.

تمتم:

ـ ليست زائدة على الحاجة. ثم إذا تبقى منها شيء، أعلم ما يجب عمله. ولكن في رأيك هل ابنتي وحفيدتاي يرتدين ملابس أنيقة؟ حضرتك تعرفين، لا يمكنني أن أدرك هذا.

فاجأني السؤال، حاولت أن أجمع أفكاري لأقول شيئًا دبلوماسيًّا:

ـ حسنًا، يبدو لي أن ثلاثتهن يرتدين...

ترددتُ:

ـ بطريقة عادية، أي مثل الجميع، «كاجوال» بعض الشيء.

ـ «كاجوال».

ـ أجل، أجل، تُقال هكذا يا بروفيسور.

ـ «كاجوال».

ـ لا أعرف كيف يمكنني أن أصف هذا، فلنقل: جينز وتيشيرت.

ـ لا يمثل هذا مفهوم الأناقة.

ـ في الواقع «الكاجوال» يعني...

اختتم:

ـ إنهن يرتدين ملابسهن بطريقة عشوائية.

ـ ليس تمامًا.

ـ من الواضح أن ابنتي لا تعتني على الإطلاق بنفسها. لديَّ شعور بأنه لا أحد يفكر فيها.

كان اعتبارًا مرًّا، وبينما كان يضع كومة «الأوراق» في جيبه، قال بينه وبين نفسه:

ـ ما دمت على قيد الحياة، سأهتم أنا بذلك، فأنا أبوها.

ـ متى تذهبون؟

ـ في العصر، بمجرد أن تصل فالِّي بسيارتها الصغيرة الرائعة.

ثم بدأ يبحث عن حذاء ليخرج به.

أعلمَني:

ـ ستأتي أورورا هذا الصباح، بل سأقول لها أن تصعد، هكذا تتعرفين عليها.

كان مرتبكًا مثل تلميذ قبل الامتحان.

انتعل الحذاء الصحيح، وبمفرده، ثم جلس في المطبخ بالقرب من الهاتف، في موقع استراتيجي، بقبعته وسترته. بل وضع أيضًا نظارة الشمس. وفي المجمل، كان أنيقًا، على غير العادة.

أخذتُ النقود للتسوق ورأيت أن كل إيصالاتي القديمة محشورة في الدرج، من دون أن يفحصها أحد بالتأكيد. هذه المرة، رميتها أنا بنفسي. كان البروفيسور جالسًا في صمت، بلا مذياع صغير ولا ساعة ناطقة.

ـ ولكن سيادتك ستخرج بكل تلك النقود في جيبك.

ـ على الأقل سأكون واثقًا بأنه إذا حدث أي شيء مفاجئ سأكون مستعدًّا. ولكن من يدري، ربما أعثر في صندوق البريد على فاتورة لأدفعها، أو يمكن أن تكون لديَّ فرصة لمساعدة أحد. من الأفضل دائمًا ألا تكون لدينا ديون مع العالم، أتعرفين؟ إنها مسألة أمانة مع المجتمع بأكمله. كنت أقول هذا لطلبتي دائمًا، ربما فهم أحدهم هذا. فهذا جزء من مفهوم الميراث.

أخرج كتيب إبكتيتوس وأخذ يقلب الصفحات، وضعتُ جانبًا القفاز المطاطي. الآن أصبحت أفهم.

أضاف:

ـ لنمرر الوقت، أنعشي لي ذاكرتي بالقاعدة ٣٨.

ـ «عندما تمشي فأنت تأخذ حذرك من أن تطأ مسمارًا أو أن تُلوى قدمك. فلتأخذ حذرًا مماثلًا من أن تؤذي عقلك الموجِّه. وإذا راعينا هذه القاعدة في كل فعلٍ فسوف نباشره بأمانٍ أكبر»، ولكن حضرتك تتذكر بالتفصيل كل العبارات؟

ـ لا، ولكن لديَّ بعض النقاط المرجعية لمساعدة الذاكرة، آثار صغيرة تساعدني على...

رن الجرس، نهض البروفيسور وذهب ليفتح بدقة لا بأس بها.

كانت أورورا، البروفيسورة، في طولي، بشوشة ومبتسمة، سنها بين الستين والسبعين، بتسريحة شينيون رمادي، أحمر شفاه مشتعل، وحلق من اللآلئ الصناعية بدا كأنه حلوى مغلفة بالسكر. وجهها مستدير، عيناها الخضراوان الصغيرتان تنضحان فرحًا، وفي وسط وجهها أنف طويل يشبه أنف زيتونة(*). إلا أنها كانت ممتلئة وتخفي قوامها تحت فستان واسع بلون الخبيزة، مطبوعة عليه زهور الخشخاش. يمكن القول إنها لا يمكن أن تمر من دون أن يلاحظها أحد. لا بد أنه أسلوبها لتشير إلى مشكلة ما عندما تذهب للتمشية مع شخص كفيف.

ـ أوه يا لوتشانو!

غردت كطائر الحسون:

ـ يا له من جو حار! يا لها من فتاة رائعة! وهل هذه رائحة أكل مشوَّح؟

استمرت عملية التعارف وقتًا طويلًا، بين عبارات التعجب الصاخبة

(*) شخصية كارتونية، زوجة باباي البحار. (المترجمة).

والمصافحة، ثم ذهبت هي لتضع على المكتب، الذي يحمل بالفعل الكثير، كومة من الصحف القديمة، مرتبة في حقيبة. أكدت أنها قرأت كل شيء بعناية، وأنها لا توافق على أي شيء، وأنها ستعيدها إلى المُرسل في حالة «مناقشات موسعة مستقبلية».

لا أعرف عما تتحدث، ولكن لم تكن إجابة البروفيسور سوى الذهاب لاستدعاء المصعد وقد أفلت من الاصطدام الحتمي بزاوية.

قالت أورورا بصوت منخفض وهي تقترب مني:

ـ ماريا فيتوريا. إن حظ حضرتك سعيد بأنك ستمكثين بالقرب منه، فهو يرى أفضل منا ثم...

لم تُنهِ العبارة، ولكنها أومأت بإشارة ما بين التحية و«سنتحدث فيما بعد».

خرجت هي أيضًا على بسطة الدرج، واختفيا داخل المصعد. جريت لأرى ما يحدث لصلصة الطماطم. «لكل منا اختصاصه»، هكذا قال البروفيسور في إحدى المرات.

تبولت سيارتي «الباندا»، حرفيًا، على الأرض. كان يكفي أن أدير المفتاح لينير مصباح خزان المياه. وهكذا نظرت تحتها. وجدت بحيرة كبيرة، على الأقل كان ظل شجرة الزعرور يواسيني، ظل شاحب صنعته الحرارة وشمس باهتة، ولكنها ما زالت قاسية. بالتأكيد ليس من السهل الوصول إلى الروميتو في تلك الحالة. قلت لنفسي: لا بحر اليوم إذن، لا بد أن أبحث عن ورشة.

كنت هناك أفكر فيما يجب عمله، عندما رأيت على الناصية عربة ضخمة، لامعة، تقترب.

اقترب من سيارتي الاقتصادية المعطلة، كان زوج إليزا.

سأل من دون أن يحيي، كعادته:

ـ هل أنت ذاهبة؟

أجبته:

ـ يا ليت، السيارة بها عطل.

ـ حسنًا.

ورحل بسرعة شديدة.

بعد دقيقتين وصلت إليزا بسيارتها الصغيرة وبنتاها بداخلها. فعلَت الشيء نفسه، اقتربت:

ـ ماريا فيتوريا، ما زلت هنا؟

ـ سيارتي «الباندا» تسرب مياهًا، لا بد أن أعثر على ميكانيكي.

ـ لا أحد يفتح هنا قبل الخامسة.

بالتأكيد، إذا لم أذهب أنا إلى البحر فإن الميكانيكيين سيذهبون حتمًا.

ـ يمكنني أن أعيرك سيارتي، إذا أردتِ.

لم تهتم باعتراضاتي التي أطلقت عليها هي «اعتبارات فارغة»، ركنت سيارتها في عرض الطريق، خرجت، وأنزلت الفتاتين الغامقتين كالشوكولاتة وبشعرهما الطويل المبلل، وأعطتني المفاتيح. مر زوجها سيرًا، على مسافة بعيدة ممسكًا بحقيبة ضخمة، وهو ينظر أمامه مباشرة.

قالت إليزا:

ـ أعرف الميكانيكي جيدًا. اليوم سآخذ له سيارتك ببطء، على كل حال هو قريب، ثم غدًا صباحًا سنبدلهما مرة أخرى.

لا أعرف كم مرة شكرتها، هي وحماسها وطرقها في الاستعجال. قالت لي إنه إذا حدث الشيء نفسه لها لكنت فعلت المثل. ولكنني لم أكن متأكدة إلى هذا الحد.

ربما سيارتها أصغر من سيارتي، ولكنها بالتحديد أحدث. عادت إليَّ الرغبة في أن أذهب لأغطس في البحر، بل فكرت أيضًا في الطريق السريع الذي يؤدي إلى الشرق أو إلى الغرب، ولكن في النهاية عدت إلى المنزل.

أيقظ فيَّ الحدث الطارئ الشعور بالواجب. كنت أريد أن أركن السيارة في مكان آمن، مثل الممر الواقع على جانب منزل حماتي، حتى لا أخاطر بخدش في الصاج. بمجرد أن وصلت وجدت أن حالة السيارة من الخارج أسوأ منها في الداخل، بل إنها مغطاة بحمم من الصمغ هنا وهناك كأنها مكثت لمدة طويلة تحت أشجار الصنوبر. كان بها أيضًا انبعاجان، واحد في الأمام والآخر في الخلف. في المقابل تبدو الإطارات جديدة. تشبه إليزا: الأشياء الأساسية موجودة، ينقصها فقط المظهر.

في منزلي كل شيء كالمعتاد، فيما عدا الكلب الذي ينام بطريقة غير مفهومة، والعفن الذي يتمدد بسعادة أكبر. ليس هناك قمصان، ولكن كان زوجي بنفسه هو الممدد على الأريكة واضعًا مقياس الحرارة تحت إبطه.

قال:

ـ أشعر برغبة في القيء.

علَّقت:

ـ تفعل ذلك دائمًا عندما تراني.

ـ أتحدث بصدق.

ـ وأنا أيضًا.

ـ حسنًا، فهمت. أعيريني سيارتك.

ـ بها عطل.

ـ وكيف عدتِ؟ هل طرت مثل ماري بوبينز؟

ثم نهض وذهب ليتأكد من النافذة إذا كنت أقول الحقيقة.

ـ ماذا عن تلك الموجودة بالخارج؟

ـ أعاروها لي.

ـ إذن، يمكنهم إعارتها لي أنا أيضًا.

ـ أحتاج إليها بعد قليل.

وكان صحيحًا، أردت أن أغسلها وأن أعيدها إليها، نظيفة على الأقل.

عاد إلى الأريكة، وقال:
ـ على كل حال سأموت قبلها.
بدا مُدمَّرًا، ولكنني لم أسقط في الفخ.
ركَّبتُ اللوح، وسخنت المكواة، ثم بدأت أكوي في صمت بينما هو في موت ظاهري. على الأقل، في الماضي، كان يحاول أن يساعدني، ثم نضحك معًا على النتيجة. في ذلك الزمن كنا نأخذ كل شيء كمزحة. ربما هذا هو الخطأ.
عند لحظة ما قال:
ـ مرري لي ذلك الأزرق.
ـ من فضلِك.
حددتُ ومررته له مكرمشًا.
فتَّش في الجيب الصغير، كان القميص الذي عثرتُ فيه على عنوان صالة القمار.
ـ لا بد أن توجد بطاقة هنا.
استمررت في الكي، بهدوء:
ـ لم أرَ أي بطاقة.
ـ وإلا...
بدأ ينفعل.
ـ إذا كانت مهمة كان يمكنك أن تضعها في محفظتك.
نهض وأخذ يفتش في كل مكان بطريقة أكثر عصبية. ولكن العثور مرة أخرى على البطاقة يعتمد عليَّ، وأكملت الكي. من الأفضل أن يظل بعيدًا عن صالات القمار.
نظرت إليه، بدا لي مختلفًا، مثيرًا للشفقة. ولكن استمر شعوري بعدم الشفقة نحوه.
ارتدى قميصًا ما زال ساخنًا وخرج. بل حيَّاني أيضًا.

انتهيت في خلال نصف ساعة، ثم ذهبت لأغسل السيارة وأنزع حمم الصمغ من على النافذة. كنت أريد أيضًا أن أضع نبتة تمر حنة صغيرة في أصيص زرع. كانت تلك، بلا أي مشكلات، يمكن أن تمكث، بلا مشكلات، في الشرفة معرضة للشمس. كان يمكن للبروفيسور أن يربت على أوراقها بأصابعه، يمكن أن ينبش داخلها بعض طيور الشحرور أيضًا.

الفصل الثامن

هواء نقي

بدأ ينتابني الانطباع بأنني أتنقل كالمكوك ليس بين بيتين، ولكن بين كوكبين. الكيلومترات القليلة التي تفصل بين حياتي عن تلك التي للبروفيسور تبدو لي سنوات ضوئية تُعبر في عشرين دقيقة على الأقصى، بما في ذلك الإشارات الحمراء.

عندما دخلت بنبتة التمر حنة اصطدمت بالجارة «الكي جي بي» ومعها عربة التسوق. تفحصتني من خلف نظارتها الضخمة لقصر النظر، وعندما اتضحت لها الصورة استنار وجهها.

سألتْ على الفور:

ـ هل رأيت السيارة الجديدة؟

ـ أي سيارة؟

ـ ولكن كيف أي سيارة، تلك الكبيرة، لقد وضعوها أسفل شرفتي.

ـ لا.

ـ وأخت الزوجة، تعرفْت عليها؟

ـ أجل.

ـ وكيف سارت الأمور؟

ـ بطريقة جيدة، أعتقد.

ـ تلك السابقة لك، طردتها هي. وماذا عن تلميذه القديم؟

ـ أيهم؟

ـ ذلك الأسمر الذي يعمل في بيزا ومن حين إلى آخر يأتي ويقرأ له.

هذا أمر جديد بالنسبة إليَّ.

ـ أعرف أن هذا الصباح لا بد أن يأتي الطبيب.

ـ الطبيب؟

توترتُ، بالتأكيد.

ـ أجل، كان يبحث عن كتاب لابنه، وربما يكون لدى البروفيسور. إذا لم يكن هو من لديه أطنان من الكتب، من سيكون لديه؟! هيا، لقد تأخرت.

دُهِشتُ.

عندما فتحتُ الباب وجدتُ البروفيسور يقف في المدخل وهو يمسك جبهته. كان لديه قطع صغير وتورم.

ـ ماذا حدث، هل أُصبت؟

ـ لقد وجدت عائقًا غير متوقع في طريقي...

ـ ولكن أين؟

ـ في الردهة. شيء غير مألوف، على ارتفاعي نفسه كان به بروز ثم اختفى.

في الجوار لم يكن هناك أي شيء. الشيء الوحيد الحقيقي كان التورم والقطع الصغير.

قلت له أن يجلس في المطبخ، وأخذت بعض الثلج من المجمِّد. خلف الباب توجد أقصاب الصيد التي لم ألحظها من قبل. بدت لي متناسبة مع الحادث. أعددت كيسًا من قوالب الثلج وأعطيته للبروفيسور:

ـ ضعه حضرتك على جبهتك.

من الطريقة التي نفَّذ بها من دون أن يعترض تخيلت أنه متألم كثيرًا، ولكنه لم يرغب في الكحول، ولا حتى ذلك الذي لا يحرق. لم يكن يثق به، كان عملًا شيطانيًّا «خاليًا من أي نتائج علاجية». من الواضح أن المطبخ منظم، وأردت أن أعيد إلى إليزا مفاتيح سيارتها وأن أشرح لها أين وضعتها.

سألتُ:

ـ أين ذهبوا جميعهم؟

ـ إلى السطح.

ـ ولكن كيف؟

ـ ليس لديَّ أي فكرة عما يجربونه، ولكنهم صعدوا ولم أرَهم بعد ذلك.

ثم بدَّل اليد التي بدأت تتجمد، وأضاف:

ـ لم أكن لأراهم في كل الأحوال.

كان يبدو كقط يمكث في المنزل في انتظار أن يمر الوقت، إلا أن الخبطة جعلت شيئًا آخر يخطر على باله. تمامًا مثل القط، الذي يمكث على الأريكة مُمددًا وعيناه شبه مغلقتين، ثم يقفز على حين غرة ويتبع شيئًا يظهر فجأة ويختفي ولا أحد يعرف أين.

قال وهو يظهر مرة أخرى وكتاب في يده:

ـ ماريا فيتوريا، نظرًا إلى أننا بمفردنا ولا أحد يراقبنا، هل يمكن أن تعدي لي قهوة جيدة؟

كنت مستعدة، وأخذت الخلطة المضبوطة.

ـ ولكن قبلها، هل يمكن أن تقرئي لي شيئًا وجيزًا؟

ـ بالطبع.

ـ الأمر يتعلق بقاعدة أساسية لإبيقور تلزمني الآن، أعتقد أنها الرابعة. جربي أن تري إذا كان لديك ضوء كافٍ.

ـ «لا يدوم الألم في الجسد، ولكن كأقصى حد يمكث أقل وقت، ولا يثابر ذلك الألم لأيام حيث سرعان ما تتغلب عليه المتع الجسدية: بل كلما طالت مراحل المرض فإن المتع الجسدية أوفر للجسد المتألم». ولكن يا بروفيسور هذا شخص مجنون، وأيضًا اللغة تبدو لي غريبة.

ضحك:

ـ لا، لا، الترجمة أمينة جدًّا. إبيقور يشرح لي كيف تُدار المشاعر. حتى تلك الخاصة بذلك التورم الذي جلبته على نفسي لشرودي.

هذه المرة ضحكت أنا، وأعدت إليه الكتاب. كنت أعتقد أن أتباع إبيقور هم من يستمتعون بالحياة، ولكن يبدو أنني أخطأت.

وضعت له القهوة على الطاولة، حيث تركتها في متناول يده مع كيس صغير من السكر.

تبرَّم:

ـ عندما يصل زوج ابنتي فإن الاختراعات الجديدة لا تُحصى، لن أتفاجأ إذا كان لديهم بالون هواء ساخن.

صعدتُ مجموعة السلالم القليلة التي تؤدي إلى سطح المنزل ووجدت نفسي أمام باب خشبي بلا مفصلات، مُفسخ، مستند بصعوبة ومُعشق في الأرضية، السقف يلمع بدهان فضي. وواقع الأمر أن السطح مصطبة ضخمة: على اليمين شلال من الهوائيات والأسلاك في الهواء خلف حاجز ممزق، وعلى اليسار، فيما وراء الغسيل المنشور، توجد منطقة واسعة بين العمود الصدئ والجدار العادي المقشر. من الواضح أنه فيما وراء الجدار لا يمكن الذهاب لأنه، فيما عدا جزء يمكن السير عليه، ولكن تقريبًا بلا حافة، يوجد فراغ.

تقف إليزا تمامًا هناك، في تلك المنطقة المكونة من بضعة أمتار صغيرة التي يحدها الفراغ، وهي تصرخ:

ـ لم أعد أستطيع، سأذهب الآن!

أما أنا، ولأني أعاني الدوار، فتسمَّرت. أصابني الشلل من أخمصَي قدمَي إلى قمة شعري. حاولت أن أفهم المشهد، ولكن كانت هناك رياح.

بينما الفتاتان تتشمسان، يمسك الزوج بشيء كأنه جهاز للتحكم، وانهمكت إليزا في جمع الملابس الداخلية التي تَسبب جسمٌ طائر في أن ينزعها بعيدًا عن حبال الغسيل. تخاطر، عمليًّا، بحياتها من أجل بعض الألبسة الداخلية.

اقتربتُ من الحاجز، وأنا أمد يدَي نحوها وأقول لها:
ـ تعالي في الأمان.
أخذتُ منها الغسيل وساعدتها على التسلق.
سألَت:
ـ ومَن يقرر إذا كان الأمان هنا أم هناك؟
ابنة أبيها تمامًا.
استمر زوجها يحرك ذراعيه بجهاز التحكم هذا غير المعتاد وهو يبرطم:
ـ أنا أعاني الدوار وأنت لا.
يبدو أن هذا بدا له تفسيرًا مناسبًا ليرسل زوجته على بُعد متر من الفراغ.
ـ توجد أشياء عديدة لا أعانيها، ولكن الأمر سيان...
ذهبنا لننشر الألبسة على الحبال القليلة الموجودة أعلى ذلك الجزء، سألتُها:
ـ ولكن لمن هذا السطح؟
ـ من يدري؟ إنها مساحة مشتركة، يأتي الجميع إليها، والغسيل هنا يجف في دقيقة.
ـ أشكرك على السيارة، لقد وضعتها في شارع لابريولا، أمام بوابة طبيب الأسنان.
قالت:
ـ قال الميكانيكي إن سيارتك ستكون جاهزة في الساعة الثانية، مكانه قريب من هنا.
ـ ولكن ما هذا الجهاز؟
ـ طائرة من دون طيار، يسمونه «درون».
ـ وما فائدته؟
ـ التسبب في مضايقتي.
بمجرد النظر كان الأمر يتعلق بأداة طائرة، ولا يبدو أنه يستغرق وقتًا

وجيزًا، عندئذٍ قررتُ أن أعود إلى الأسفل، لأن من المؤكد أن البروفيسور سيكون قد أنهى القهوة، ومن الأفضل إخفاء آثارها.

لم يعجبني السطح، كان مقلقًا، ولكن لم أعلق مع البروفيسور الذي كان مُصرًّا أنه تمشى عليه. بعدها بقليل عادت أيضًا إليزا، وهي تشعر بالحر وتنفخ. رأت نبتة التمر حنة التي تركتها على الطاولة وقررتْ أن تضعها في الشرفة، تمامًا كما كنت سأفعل أنا.

ـ بابا! أحضرت لك ماريا فيتوريا نبتة، هل تريد أن تراها؟

ـ أجل، أريد بالفعل أن أراها.

لمسها وذهب ليعتزل في المكتب ومعه مُسجل بالقرب من أذنه. عندما دخلت لآخذ كوبًا متسخًا، لم يدرك هذا.

قالت إليزا:

ـ طلب تسجيل مقال عن أصل الكون من أحد تلاميذه القدامى، يعمل الآن بيولوجيًّا. يسجل له على الشرائط القديمة بجهاز عتيق، أشياء كنت أستخدمها أنا. لن أحكي لك عن المرات التي تزحلقت فيها على قلم الحبر السائل.

ـ هل رأيت أن لديه تورمًا خفيفًا؟

ـ كانت أمي تصر أن لديه «القديس».

ـ القديس؟

ـ شخص كان دائمًا يجعله يفلت من الأخطار بشعرة، وفي كل المرات، فهو لديه تلك الموهبة تجاه المخاطر. وخاصة عندما يسلق المكرونة بمفرده. من يدري أي نوع من القديسين هو، ليس نوعًا قديسيًّا بالتأكيد.

ـ يقول كاهن كنيسة القديسة مريم إنه لا يجب علينا تحدي العناية الإلهية، لأن ذلك غير لائق.

ـ إذن، اشرحي أنتِ هذا لأبي هذا الشتاء، ولكن أعتقد أنه سيقاوم بالتأكيد. حتى وإن أديت أنا، في مكانه، زيارة صغيرة للكنيسة.

تركتني أغسل السلق، وظهرت من جديد بثوب لم أرَه من قبل، ويناسبها جدًّا، شبيه بعض الشيء بالأسمال التي ترتديها.

سألتني:

ـ هل يعجبك؟

ـ يناسبك جدًّا.

كان رداءً بسيطًا من الكتان ولونه فيروزي، قصير جدًّا، وما زالت بطاقة الثمن معلقة فيه. تخيلت أنه نتاج «أوراق» اليوم السابق.

ـ ابتاعه لي أبي ببواقي نقود التسوق.

كانت تنظر إليه مسرورة.

بعد ذلك بقليل دخلت الفتاتان، كل منهما تحدق إلى هاتف محمول، والزوج مع الشيء الطائر.

لم يلحظ أي منهم ثوب إليزا الجديد، التي قالت:

ـ هل لاحظتم أي شيء؟

أومأ البروفيسور. من الواضح أنه هو الذي لاحظ.

عندما خرجت كل القبيلة، شعرت بالارتياح، كأن التوتر قد زال. حتى البروفيسور شعر بأنه حر لأن يتمطى كقط.

كان على حق: من دون الضيوف ستتغير الأمور، سيعود هو مرة أخرى سيد أرضه، وسيد يومه. على كل حال كان لا بد من استبعاد أنه في ذلك المنزل سيسود السكون.

وكبداية، كان أمرًا نادرًا أن يظل هو ثابتًا لوقت طويل. عندما لا يذهب إلى فيلّا فابريكوتي كان يسرع إلى الشرفة، أو يسير بحسم ذهابًا وإيابًا في الردهة بمجرد أن أؤكد له أن الطريق غير مشغول.

يقول:

ـ ماريا فيتوريا، من فضلك، هل يمكن أن تأخذي الكتاب الثالث من

اليمين في القسم الأوسط من المكتبة المركزية. تلك المتعامدة على النافذة.

ـ بروفيسور، حضرتك أدق من العقل المدبر لعملية اختطاف.

ـ أعرف مكتبتي عن ظهر قلب. هل يمكن أن تقولي لي من فضلك إذا كان هو كتاب «رسالة فلكية».

تركتُ سلطانية الخضراوات لتُصفى، وذهبت بخطوة واثقة إلى المكتب.

ـ أجل، مكتوب: «جاليليو جاليلاي».

ـ حسنًا، يتطابق تمامًا مع العنوان، من فضلك أعطيه لي.

أدار الكتاب كأنه يتأكد أن به كل الصفحات، ثم عاد إلى المكتب، وصفَّه خلف الصورة المعتادة الشاحبة.

ـ إليك، الآن يجب أن يبقى هنا، وهكذا أجده في متناول يدي.

العجيب أنه لم يطلب مني أن أقرأ. ولكن رن جرس الهاتف.

كان لا بد أنه يعرف أنها فالِّي، لأنه أرسلني لأرد. سألَت إذا كانوا قد خرجوا جميعًا، وقالت إنها ستمر وتأخذه ليؤدي بعض المهمات.

رحلتُ قبل أن يعودوا، وتركتُ، كالعادة، كل شيء مجهزًا، وارتديت لباس البحر وذهبت لأستعيد سيارتي من الورشة. في تلك الساعة، ومع ذلك الحر، لم يكن هناك أحد يسير في الشارع، سوى أولئك الذين عليهم أن ينزلوا من مركباتهم ليدخلوا إلى المنزل.

قال الميكانيكي:

ـ مضبوطة الآن، لا يمكن العثور على قطع الغيار القديمة تلك بسهولة.

لم يكن لديَّ كل النقود اللازمة، في لحظتها.

ـ اذهبي ولا تقلقي، لن أنتقل من هنا، ثم إنك صديقة مقربة للقادمة من لوجانو، حسب ما فهمت.

بالتأكيد «القادمة من لوجانو» لا تترك ديونًا مثل أبيها.

اتجهت نحو كالافوريا لغطستي الخامسة لهذا الموسم.

بالقرب من البحر كان الهواء خفيفًا، متزعزعًا بعض الشيء، نظرت على الفور إلى النقطة التي يمكن الوصول إليها بسهولة. فرشت منشفتي وجلست لأنظر إلى الأفق وجزيرة جورجونا: تلك الهيئة النائمة بالأنف تجاه السماء. وخلفها بقليل تظهر جزيرة كابرايا، وبتحريك النظر قليلًا نحو الشمال يمكن رؤية حتى الجزء الشبيه بالإصبع الكبيرة لجزيرة كورسيكا.

في مقابل جزر الميلوريا، على بُعد مائة متر من الشاطئ، رأيت قاربًا شراعيًّا يبدو متجهًا نحو الصخور. تبعته بنظري، لا بد أن يكون شيئًا مسليًا المكوث هناك فوقه والتمتع بانتعاش رياح المايسترال. تمددتُ على الموقع الأكثر نعومة وأغمضت عينَي وأنا أستمع لاهتزاز المياه، ذلك الصخب المنتظم، الشبيه بالهدهدة. كنت أرى منزلي. في تلك الساعة يحرك الكلب ذيله بانتظار أن يأخذه أحدهم خارجًا، ربما تحدثت حماتي للتوِّ بالسوء عني مع الجارة، وبالنسبة إليَّ، لم يعد هذا يهمني كثيرًا الآن، ربما استطعت أن أجمع بعض الصنوبر لأصنع فطائر «النيتشو»... لا بد أنني غفوت حيث أفزعني صخب شديد لشيء يحدث بجواري، بدا لي كالصفعة. ثم أصابتني رشة مياه.

على بُعد خطوتين مني يوجد زوج زعانف وقناع. والقارب الشراعي يقف تمامًا أمام الصخور، تحت ضوء الشمس الساطع. وتحركه الريح.

صاح أحدهم من القارب:

ـ استيقظتِ؟

السباح الذي رأيته المرة الأخيرة كان يتخلص من معداته وهو يلقيها بدقة شديدة.

ـ لا داعي للقلق...

تابع كلامه من القارب:

ـ فأنا أعمل مسدد سكاكين.

قدري أن أراه دائمًا في مقابل الضوء. سألته:

ـ هل شفيتَ من قبلة قنديل البحر؟
ـ شفيت جدًّا، ألا ترينني؟
ورفع الكلفة بيننا بلا أي مشكلة.
ـ هل عُمتِ؟
ـ ليس بعد.
ـ المياه ساخنة، هنا جيدة، اسمي «أنجيلو».
الأسماء مهمة، قال لي البروفيسور هذا في المرة الأولى.
ـ وأنتِ، ما اسمك؟
ونظرًا إلى أنها مهمة، قلت اسمي كاملًا.
ـ إذن، يا ماريا فيتوريا هل تحبين أن تقومي بجولة في القارب؟
ـ لن أستطيع، ربما المرة القادمة، ليس لديَّ متسع من الوقت.
ـ هيا، مجرد عشر دقائق، سأساعدك على الصعود.
كنت أخاطر أن أحرج نفسي، فلم أعرف بالفعل كيف أصعد على قارب مثل ذلك، من دون سلم، من دون أن أتحول إلى سمكة بوري، هكذا، على قدمين.
ـ أشكرك يا أنجيلو، ولكن...
ـ إذا لم ترغبي في أن تتعبي نفسك في القفز، قولي هذا.
كشف أمري. حاولتُ أن أكذب.
ـ كتفي تؤلمني.
ـ فهمت، إذن سأذهب بمفردي.
شد إحدى القمم وابتعد.
صرخ، قبل أن يختفي في الضوء:
ـ سأجهز نفسي للمرة القادمة.
مكثت أنظر إلى ذلك النوع من النقاط التي تتزحلق تجاه الشمال، ربما تجاه الميناء الصغير لأتينيانو، ثم تركت نفسي لأنزلق في المياه، وأخذت

أسبح على ظهري: الشمس تضرب وجهي، ونسيت الكريم الواقي من الشمس. ولكن من ذا المهتم بالكريم؟

في المنزل نظرت إلى التقويم الذي يضع فيه دون باراكيني مواعيد منح البركة للمنازل أو تفريغ غرفة المقدسات. علقته بجوار الأريكة، حيث تنتظرني بعض القمصان، ولكنني هذه المرة تجاهلتها وخلعت التقويم من المسمار.

منذ شهر يناير وأنا أحدق إلى التواريخ لأراقب موعد انتهاء صلاحية اللبن أو أحسب إلى متى ستكفي النقود، ولكن لم أتوقف قَطُّ لأنظر إلى الصور: شجرة لكل فصل من فصول السنة. لم أعرف أي نوع من الأشجار كانت، من المؤكد أن إحداها سقطت أوراقها وتبدو الآن عارية، وأخرى مُجمدة، وأخرى تتساقط منها الأمطار، والآن تغطيها البراعم، ثم الزهور، ثم ثمار تشبه التوت، أو تملأها الأوراق.

ثم هناك في الأسفل توجد عبارات تتعلق بدورة الحياة، عبارات من الإنجيل، أو أقوال قديس أو أشياء من هذا القبيل. تحت صورة الشجرة المُحاطة بالغربان:

> لكل شيء مقبضان، مقبض يمكن أن يُحمل به الشيء، والآخر لا يمكن أن يُحمل به. إذا ارتكب أخوك إساءة ما تجاهك فلا تأخذ الأمر من منطلق: قد أساء لي (إذ لا يمكنك حمله بهذه الطريقة)، بل خذه بالمقبض المقابل: «إنه أخي، وقد نشأ معي»، بذلك سوف تُمسك الأمر كما ينبغي له أن يُمسَك. (إبكتيتوس، ٤٣).

جلستُ ممسكة بالتقويم في يدي لأدرسه أفضل. بدا لي غريبًا، كان ذلك الخاص بالأبرشية بلا شك. أخذت أنظر تحت الصور الأخرى، في بداية الصيام الأربعيني عثرت على عبارة أخرى:

> إذا تعلمت أن تُكيف جسدك على الاكتفاء بأقل القليل، فلا تُفاخر بذلك.
> وإذا اقتصر شرابُك على الماء فلا تقل في كل مناسبة: «إن شرابي الماء».

وإذا شئت أن تُدرب نفسك، فلتفعل ذلك لنفسك لا للآخرين، ولتحتمل الآلام لا تحاول أن تحتضن التماثيل(*). ولكن إذا اشتد بك العطش فاستفَّ قبضة من الماء البارد واتفله ولا تقل لأحد. (إبكتيتوس، ٤٧).

كانت الأحاديث الشبيهة تصدر عن الأنبياء المُقيمين في الصحراء أو القديسين التائبين. درست التعليم المسيحي لدى الراهبات، وفي المدرسة تحملت حصة التربية الدينية التي لم يكن لها أي دخل بحصة الفلسفة. بالنسبة إلى حصة الدين، فهي الساعة الخاصة بالأشياء المعروفة، بالنسبة إلى الفلسفة فهي الساعة الخاصة بالأشياء غير المفهومة. أعدت تعليق التقويم على الجدار.

أخذت القمصان ووضعتها في الغسالة من دون حتى أن أزيل البقع من الياقات. ولكن عندما أوشكت على تشغيلها، رأيت نفسي في الزاوية مع لوح المكواة، وعبوة الماء برائحة اللافندر، والناموس المستعد لأكل رجلَي، والمصباح النيون المضاء، والتلفاز الذي يستقبل الإرسال بصعوبة، والصور المجزأة، بينما أكوي وأتساءل عن الفارق بين إبكتيتوس وأشعياء، وشُل ذراعي على الزر.

أخذ أتشيتو ينبح.

وفي هذه اللحظة رأيتهما، عسكريين، واضحين داخل إطار نافذة الردهة.

ذهبت لأفتح الباب وأنا متوترة جدًّا.

سألاني:

ـ حضرتك السيدة بارونشيني؟

ـ أجل، حتى الآن.

ـ بمعنى؟

ـ لا شيء.

(*) يُقال إن ديوجين كان يحتضن التماثيل البرونزية المغطاة بالجليد في الشتاء بغرض التدرب على تحمل المشاق (من كتاب إبكتيتوس: «المختصر»). (المترجمة).

تأكدا من أوراقي واختتما بأنه نظرًا إلى أنني زوجة بارونشيني، لم يكن لديَّ الكثير لأفعله.

ـ زوج حضرتك، بارونشيني ألدو، احتُجز بسبب التورط في جريمة مرافق.

ـ وما معنى هذا؟

ـ فساد يا سيدتي. هو أحد الأفراد المتورطين.

ـ ولكن كيف؟

ـ هو موجود في المركز عندنا، لا بد أن نقوم بالتحقيق.

مكثتُ في صمت. استمرا:

ـ يبدو لنا أن المنزل باسم مالانيما إرنيستينا، مؤجرة لبارونشيني.

ـ أجل، حماتي.

ـ لدينا إذنٌ.

في الواقع كان أحدهما ممسكًا بورقة في يده.

ابتعدت عن العتبة، وفقط عند تلك اللحظة أدركت أنه لم يدخل أحد قَطُّ إلى ذلك المنزل فيما عدا السباك. ولكن أن يكون أول ضيوفنا هما عسكريان، هو شيء لم أتخيله بالتأكيد.

دخلا، أخذا الحاسوب، الذي لم أشك حتى في وجوده، حيث عثرا عليه في حقيبة كرة القدم القديمة لزوجي، ورحلا. سألاني فقط إذا كنت قد رأيت «المذكور» في الساعات الأخيرة، ولكنه سؤال لا يتطلب إجابة محددة، نظرًا إلى أنهما لديهما معلومات أكثر مني.

ـ هل تريدان أيضًا القمصان؟

ـ ماذا؟

بمجرد أن رحلا، أخذ الكلب يهز ذيله. ظهرت الحماة من موقف السيارات ولحقتُ بها، فقط لأفهم إذا كانت هي، على الأقل، تعرف المزيد.

لم أحصل منها على الكثير، إلا أنني، على الرغم من الصدمة السيئة، شعرت بأنني منتبهة. كأنني تأكدت من شكوكي وجزء مني (ليس الأفضل)، في مكان ما، كان يحتفي بهذا.

ولكن الدموع ملأت مقلتَي حماتي:

ـ أشعر باليأس، لا يمكن الاتصال به أو معرفة كيف حاله.

مررت يديها بين شعرها، وأخذت تنظر حولها فزعة، وكأنها على كوكب المريخ. على كل حال صبغت شعرها بمفردها. وفيما عدا ذلك، كانت مبالغة في ارتداء عقود، أسوأ من تمثال سيدة مونتينيرو، وارتدت قميصًا واسعًا بلون القش جعلها تبدو كالحزمة. بدت كأنها شاخت عشر سنوات.

سألتني:

ـ لكنك لم تكوني تعرفين شيئًا؟

ـ لا، أعرف فقط أنه يترك لي خمسة أو ستة قمصان دفعة واحدة، وأنه في هذه الأيام كان يدور في المنزل بمقياس الحرارة.

أخرجت ما في جوفها:

ـ إنه خطأكِ فقد تركته ليتمادى في إيذاء نفسه! الزوجة الجيدة لا بد أن تفتش، لا بد أن تفهم كل شيء. لم يكن يجب أن تتركيهم يرفدونك! كان عليك أن تبحثي عن عمل لتساعديه بدلًا من أن تمكثي هكذا. ما فائدتك؟

ثم بدأت تنتحب. شعرت ببعض الشفقة عليها، فهي تعقر فقط لأنها تخاف، مثل الحيوانات البرية.

ـ إذا أردتِ يمكنني أن أعدَّ لك شرابًا ساخنًا.

دخلتُ إلى المنزل وتمنيت أن تتوقف عن وضع أوزار ابنها على الآخرين. كان يرغب في أن يُترك «بمفرده»، ويرغب في ذلك من الأزل.

الآن أفسر لنفسي التغيير الذي حدث في الشهور الأخيرة ومسألة صالة القمار، ولكن لا شيء يمكن فعله، لا يسوؤني ما حدث له، فقد كان حبنا، في الحقيقة، كوخًا من خُلل الأسنان.

وبينما أنشر زي البحر اتصل محامٍ. قال لي:

ـ إن هاتف زوجك المحمول مغلقٌ، ولكنه أعطاني بعض الأرقام، ومن بينها رقم حضرتك.

سألته:

ـ فيمَ هو متورط؟

ـ شركة البناء التي يعمل فيها، قدمت رشوة لبعض الموظفين العموميين للسماح ببناء فيلّات في منطقة مكتبة البلدية.

دار رأسي.

ـ على كل حال، لا تقلقي سيادتك، إنه أمر إداري معتاد.

ـ أمر إداري معتاد؟

ـ بالطبع، إنها أشياء تحدث.

ـ تحدث لمن؟

ـ لمن يعمل في مجال العقارات، على كل حال السيد بارونشيني دوره هامشي، وسنثبت ذلك.

شعرت بقبضة في صدري وحاولت على الفور التفكير في شيء آخر: مثلما يحدث عندما يجد أحدهم نفسه محبوسًا في المصعد ويبدأ التفكير في الهواء النقي. أخذت أفكر في البروفيسور وكتبه، في منزله المنير، والنقود التي يحملها معه حتى لا تكون عليه ديون، وأن يظل في وضع سليم.

فردتُ المنشفة ثم ذهبت لأبحث عن حماتي في الطابق العلوي.

الفصل التاسع
بفضل الزورق المطاطي

توقفت الجارة «الكي جي بي» بعربة التسوق في زاوية شارع الإيبراي. تقف عمدًا لتشاهد إليزا منهمكة في ركن سيارة زوجها الضخمة في مكان يتسع لسيارة صغيرة.

لا بد أنها أجرت كثيرًا من المناورات، نظرًا إلى أنني لديَّ متسع من الوقت لأكمل دورة الجزيرة وأبتاع الخبز، ولكن في النهاية استطاعت ركنها، بل بدا أن السيارة قد حُشرت في هذا المكان بصعوبة.

سارعتُ بالصعود، يستعد زوج إليزا لتحميل الحقائب.

قالت:

ـ بعد بضعة أيام سنرحل نحن أيضًا.

أصابتني غصة في حلقي، كنت أشعر بأنه ختام شيء ما.

ـ إذن، بعد قليل سنبقى أنا وأبوكِ بمفردنا.

ـ ستبقيان بمفردكما، ولكن ليس تمامًا. فهو له أصدقاء، تلاميذ قدامى، وتوجد أيضًا خالتي والطبيب. أوصيك خاصة بالطبيب، وضعت لكِ رقم هاتفه تحت الساعة.

جلس البروفيسور في الصالة ومعه المذياع الصغير، بجوار النافذة، واضعًا يده على الدرابزين الخارجي ليلقي بالفتات. أتبع الآثار التي تركها على الأرض بطريقة أسوأ من عقلة الإصبع.

قال لي:
ـ القوات تستعد للانسحاب، وأنا أجهز نفسي بالفعل لاستعادة عاداتي القديمة. بمناسبة هذا، بعد ذلك حضرتك ستعدين لي القهوة، أليس كذلك؟
ـ بلى.
أخذت إليزا تعزف فجأة، ولكن استمر الأمر برمته قرابة عشر دقائق.
قالت، ولكن بضيق:
ـ انفصل جزء من الفيولا.
سألتها:
ـ هل هذا عطل كبير؟
رفعت كتفيها:
ـ عندما أرحل سأصلحها بالقرب من سكني.
البروفيسور، الذي أغلق المذياع ليسمع هذا الصوت الحزين، وضع يديه أمامه بحذر غير معتاد، وأسرع إلى المكتب. ظهر من جديد ومعه نقود مربوطة في مطاط.
عدت إلى المطبخ لأحاول السيطرة على الفوضى بداخله، ولأتركهما بمفردهما. سمعتهما يتناقشان بعض الشيء ثم في النهاية أتى يبحث عني:
ـ لا يمكن عمل شيء، يبدو أنهم يصلحون الآلات الموسيقية فقط على بُعد أربعمائة كيلومتر من ليفورنو.
ـ ربما يا بروفيسور، أنا في ليفورنو، لم أسمعهم قَطُّ يتحدثون عن أولئك الصناع.
ـ إنهم صناع الآلات الوترية يا ماريا فيتوريا. الآن ستضطر إليزا إلى أن ترحل يومين مبكرًا لتصلحها. سبب أدعى لتعدي لي قهوة جيدة.
ـ بابا، كفى شرب كل تلك القهوة.
ظهرت إليزا خلفنا، في هدوء.
ـ ألا ترغبين في العزف؟

ـ لا، مزاجي لا يسمح.
ـ وحفيدتاي؟
ـ تساعدان في تحميل الأمتعة إلى السيارة.
ـ حسنًا، لتساعداكِ أنت أيضًا عندما تحتاجين. أعتقد أنهما ستقرآن لي شيئًا قبل الرحيل؟
ـ أشك في ذلك.
استمررت في غسيل الصحون والفناجين، ثابتة وأنا، بطرف عيني، أرى إليزا وهي تأخذ من حقيبتها النقود التي أعطاها لها والدها لتضعها في حقيبتي الخاصة بالمشتريات. كانت أكثر من اللازم، في رأيي، للمشتريات.
ـ بابا، هل تريد أن تأتي إلى البحر؟
ـ لن أستطيع.
ـ تقريبًا، عندما أرحل، لن يكون هناك أي شخص آخر ليأخذك لتسبح. إذن، فقد كان سبَّاحًا حقًّا.
ـ تضعينني في مأزق.
ـ ولكن لماذا؟
مكث في صمت لبضع دقائق، متأملًا فوق «الأفنتينو»(*)، كما سمى المقعد المجاور لعتبة المطبخ.
قال بينه وبين نفسه من دون أن يُنهي العبارة:
ـ يمكنه أن يكون العوم الأخير في هذا الموسم أو أيضًا في...
لم يبدُ أن إليزا قد انتبهت، وشعرت أنا بارتطام في قلبي. على الرغم من إبكتيتوس.

(*) اسم تل في روما. في تاريخ روما القديمة، قبل الميلاد، حدث عصيان، ولجأ البعض، اعتراضًا، إلى قمة هذا التل، وظل الاسم نفسه علامة على الانسحاب الطوعي في انتظار أوقات أفضل. (المترجمة).

قلت، من أجلي أنا قبل كل شيء:

ـ ربما يكون البحر هائجًا غدًا يا بروفيسور.

قالت إليزا:

ـ وربما تُمطر.

واختتم هو بصوت منخفض، مبتسمًا، وكأنه يعرف شيئًا آخر لا يعرفه الآخرون:

ـ وربما تكون سباحة لا تُنسى. سأذهب إذن، ولكنني سآخذ سترتي، لا أحد يدري أبدًا.

احتجت إلى أن أشرب كوبًا من المياه، لم أستطع استعادة نفسي.

قبل أن يخرج أراد أن يهاتف كوستانتينو، سمعتهما يتفقان على جولة في العصر في فيلّا فابريكوتي.

تحدث بسرعة، فقد كانت إليزا متعجلة ولم تعرف إذا كان عليها أن تلحق ببنتيها أم تنتظر أباها.

عندما مكثت بمفردي حاولت أن أنظم بعض الشيء، في المكتب لا تزال مجلات «التايم» حيث وضعتها أنا، ولكن تغطيها الأتربة. والشيء نفسه حدث لقصاصات الصحف والخطابات.

أما في غرفة إليزا، فالفوضى في حدود المتوقع. بجانب الفيولا التي وُضعت هكذا عارية ومجردة على الفراش، هناك ظرف من مكتب طبي عليه اسمها، يبدو لأشعة ما. وتبعثرت هنا وهناك أوراق تذاكر طبية، منتهية الصلاحية، لا يمكن قراءتها. ولكن يبدو على إليزا أنها بصحة جيدة، ربما أخذت من خالتها جنون الفحص أو ربما هذه طريقتها في العناية بنفسها، نظرًا إلى أن لا أحد آخر يفعل هذا.

رن هاتفي المحمول. قال المحامي:

ـ نحن في انتظار الجلسة.

ـ إذن؟

ـ في أثناء ذلك سيكون بحاجة إلى بعض الأشياء التي يمكن لسيادتك أن تسلميها لي.
ـ لماذا أنا بالتحديد؟ أنا في العمل.
ـ يقول إنه يفضل ذلك.
فكرت لوهلة.
ـ سأعطي سيادتك رقم والدته، بالتأكيد لديها هي متسع من الوقت.
وشعرت بشيء من التحرر.
وبينما أنا منشغلة بتنظيف المكتب، عثرت في الأرض، تحت المكتبة، على ظرف أحمر مغطى بخيوط من الكتان. من يدري منذ متى لم ينظف أحد هنا في الأسفل. كان ظرف تهنئة بعيد الميلاد، عليه الكثير من الترتر وطابع أمريكي، قديم جدًّا. تاريخ الطابع قديم، منذ عشر سنوات.
كان مفتوحًا، فلم أقاوم الرغبة في النظر إلى ما في داخله، ذلك الشبح الأمريكي الذي يطوف في المكتب يثير فضولي منذ أول يوم وصلت فيه إلى هنا.
كانت البطاقة في الداخل شيئًا مزدحمًا بالأيائل والنجوم، وبصعوبة يمكن قراءة:

Our Love, Jenny and Ted.

حبات الخرز الملون موضوعة أيضًا على الورقة وكأنها موضوعة منذ مدة قريبة، والأيائل والنجوم بارزة. تعرف جيني وتيد بالتأكيد أن البروفيسور يلمس الأشياء بعناية قبل أن يحدد قيمتها. لهذا أرسلا إليه بطاقة تبدو من البلاستيك. يفهم البروفيسور أشياء كثيرة حول تركيب المادة، وأيضًا الاهتمام الذي يصحب شيئًا مصنوعًا خصوصًا من أجله.
وبينما أغلقُ الباب، بدا لي أنني أغلق خزانة مليئة بالذكريات، ولكنها على الأقل خالية من الأتربة.
في ذلك اليوم رحلت متأخرة أكثر من المعتاد، وفي كالافوريا اتجهت

نحو المكان الصخري المعتاد. الآن أصبح الأمر بالنسبة إليَّ كالعادة الصغيرة.

سبحت، ثم استلقيت في الشمس. بعد نصف ساعة، كما تمنيت، ظهر زورق مطاطي يقترب بمجدافين، وكان أنجيلو على متن الزورق.

صرخ من هناك:

ـ مرحبًا! هل تريدين هذه المرة أن تقومي بجولة هنا حول المكان؟

ـ لمَ لا؟ وأين ذهب قارب الأمس؟

ـ اليوم لا يوجد قارب، الريح قليلة.

تركت الحقيبة والمنشفة هناك، على الجانب الجاف للصخرة. وكان البحر هادئًا إلى أقصى درجة.

قبل أن ألقي بنفسي في المياه تأكدت أنني وضعت الزي بشكل مضبوط، كان البكيني قديمًا، شاحبًا، لشخصية غير مكترثة على الإطلاق.

اقترب أنجيلو أكثر، وأخذ يُحرك بعض السترات ليفسح لي مساحة في المؤخرة بحيث يجعلني أصعد.

ـ هيا، عومي قليلًا حتى هنا.

وصلت والرذاذ حولي، بلا أي أناقة في السباحة، وأخذت أدور حول الزورق من دون أن أفهم من أين الصعود.

ـ اسمعي، حتى لو تحولتِ إلى سمكة قرش لن تغيري الكثير، في المقدمة يوجد المحرك، لا بد أن تصعدي من الجانب.

ـ الكلام سهل...

ـ سأساعدك، امسكي بالقمة. ليست حاملة طائرات!

شعرت برغبة في الضحك، والمعروف أنه بالضحك تخور القوى. حاولت أن أدفع نفسي، ولكن فقط بمجرد النظر إلى وجه أنجيلو الواقف هناك، مستعدًّا لأن يمسك بي، استمررت في التزحلق كسمكة ماكريل.

ـ ولكن، ولا حتى فتاة من بيزا يمكنها أن تكون خرقاء بهذه الطريقة!

وعند تلك العبارة اندفعت بعنف لأجد نفسي في منتصف الزورق المطاطي.

قال وهو يهز رأسه:

ـ كان الأمر يحتاج إلى تعويذة.

سقطت كجوال في المؤخرة ولم أستطع أن أستعيد أي ذرة من التماسك، حيث لم أستطع التوقف عن الضحك.

قال متهكمًا:

ـ إذا كان الأمر يؤثر فيك بهذه الطريقة، في المرة القادمة ربما من الأفضل أن أحضر السرير الهوائي.

وفي الوقت نفسه كان يحاول أن يبعد من الجوار أي صنانير أو أدوات حادة، لأنني لم أستطع أن أقوِّم نفسي.

في النهاية جلستُ على حافة الزورق المطاطي الذي لم يكن في نهاية الأمر صغيرًا إلى هذا الحد. ملأت الدموع عينَي، وعندها كدت أعتقد أنه سيلقي بي من جديد في البحر وكأنني صابورة.

إلا أنه كان ينظر إليَّ بقلق.

ـ ولكن، هل معدتكِ فارغة أيضًا؟

من الواضح أنه كان يشك في قدرتي على التمييز.

ـ تقريبًا...

أعطاني بعض الشاي، كان لديه في الترمس، لأشربه.

ـ بللي رأسكِ فالشمس حارقة.

ـ لم أصعد من قبل على زورق مطاطي.

ـ استنتجت هذا بمفردي. على كل حال سنذهب هنا إلى مكان قريب.

ـ ما برنامجك؟

ـ الدورة الطويلة فعلتها بالفعل وعثرت على ما كان يجب عليَّ العثور عليه.

ـ أي؟

ـ أخذت عينات صغيرة من الأعشاب البحرية والمياه لأحللها.

رأيت علبًا صغيرة مغلقة بإحكام بجوار بذلة الغطس.

ـ أعمل بيولوجيًّا بحريًّا، لديَّ منحة دكتوراه، ولكنهم لا يدفعون لي الكثير. على كل حال، ما دمتُ آتي إلى هنا، فهذا يناسبني، فالمكان جميل بالفعل.

ثم أضاف وهو ينظر إليَّ بطريقة معوجة:

ـ أحب أن أخبرك بأنني لأب من بيزا، وبأنني أغلب الوقت أمكث فيها.

ـ مثل فالِّي؟

ـ ماذا؟

ـ لا شيء، ولكنني اعتقدتك من ليفورنو.

ـ لقد كبرت هنا. فبيزا على بُعد عشرين كيلومترًا، كما تعرفين.

حرص على أن يدير المحرك بصوت منخفض، فلم يتسبب في أي ضجة حتى نستطيع التحدث.

ـ أحببت أن أمكث هنا في ليفورنو، قبل أن أرحل، فعلت كل شيء، ولكن لا يوجد عمل كثير هنا.

أعتقد أنه تذكر المرة الأولى التي رآني فيها، عندما كانت تانيا تصيح بشؤوني الخاصة على بُعد أربعة أمتار.

ـ بالنسبة إليَّ لا، لم تكن الأمور تسير بشكل جيد. ولكن الآن، أخيرًا عثرت على عمل يعجبني جدًّا، ولكنني لا أعرف حتى متى سيستمر.

لم يسألني هو عن شيء، اكتفى بأن يزيد السرعة وأن نبتعد عن منطقة الصخور.

ـ إليك، انظري إلى المياه الزرقاء. الحرارة التي تعلو تُغير الأعشاب البحرية وأيضًا أنواع الأسماك، يوجد شيء يميل إلى الخضار أكثر من المعتاد، بل بدأت الدرافيل تقترب أكثر مما ينبغي لها، لذلك البعض منها يموت.

قلت بشجاعة غريبة:

ـ سمعتهم يتحدثون عن ذلك، ولكنني لا أعرف أي شيء عن البيولوجيا، والأسماك أميزها فقط على طاولة السوق. في الحقيقة لست خبيرة بشيء.

علق أنجيلو:

ـ لكل منا تخصصه.

الكلمات نفسها التي استخدمها البروفيسور مرة. عندما قالها هو صدمتني أكثر، وأخذت أراقبه بشكل أفضل، أخيرًا في الإضاءة المناسبة.

لا بد أنه أصغر مني، أجل. طول متوسط، وعيناه بنيتان حيويتان، شعره أسود، معكوش بعض الشيء، ولكنه قصير، لحية صغيرة وابتسامة جميلة ذات أسنان بيضاء. لم يكن شخصًا يميل إلى التظاهر، شخصية مُحببة. ربما شخص يمكنني أن أثق به، بل بدأت بالفعل أثق به.

ـ إن تخصصاتي، الحالية، هي أنني أعمل مقدمة رعاية.

وهأنذا قد قلتها.

قال:

ـ حسنًا، لا بد أن نرى لمن تُقدمين الرعاية، فهناك ما نتعلمه دائمًا.

كان لديه كل الحق في هذا.

ـ أستاذ مُسن. شخص كان يُدرس الفلسفة والتاريخ.

ـ ولكن أيمكن أن نقول: «شخص لا يرى»؟

ـ أجل. هل تعرفه؟

ـ يسكن بالقرب من فيلّا فابريكوتي؟

ـ إن هذا هو مسكنه الثاني، عمليًّا.

ـ إنه البروفيسور فارنيزي! كان أستاذي في التوجيهية. بدا لي في ذلك اليوم، عندما رأى أحدنا الآخر، لأول مرة، إن صديقتك تلك التي كانت ترتدي البكيني، ما اسمها؟ صديقتك تلك، ذكرت اسمه.

ـ ليست صديقتي. ولكن أجل، أعمل لدى البروفيسور.

ـ ولكن لا يمكن نسيان شخص مثله على الإطلاق.

قلت بصوت منخفض أكثر:

ـ يا لها من مصادفة.

ـ لم أتردد إليه منذ مدة، مررت على منزله منذ بضعة أشهر، ولكنه لم يكن بخير على الإطلاق.مكتبة .. سُر مَن قرأ

ـ ليس في أحسن الحالات حاليًّا أيضًا، ولكنه يتعامل.

ـ هل يجعلك تقرئين له حكمًا ومبادئ؟

ـ تمامًا!

ـ تستحوذ عليه الفلسفة الأخلاقية.

ـ أجل، يستخدمها كنوع من الوصفات. هل يحضرك عندما يحفظ شخص يريد أن يعد تورتة، طريقة العمل عن ظهر قلب؟ يفعل هو الشيء نفسه، مرة بعد المرة يراجع على الوصفة، كأن المآسي سوف تحدث إذا لم يلتزم بها.

أخذ أنجيلو يضحك.

أو يفعل الشيء المضاد: يحدث شيء ما، ويذهب ليبحث عن السبب الذي لأجله حدث الشيء. والجميل أنه يعثر عليه.

أبطأ قليلًا ليقلل الضوضاء، وهو يميل نحو الجنوب:

ـ ربما أعود هذا الشتاء لأزوره. تسعدني رؤيته مرة أخرى، أنت لا تعرفين كم أنا مدين له. كان ماهرًا إلى حد أنني في البداية أردت أن أدرس الفلسفة. في الفصل أردنا جميعًا أن نصبح فلاسفة، ولكنه اقترح عليَّ أن أفعل شيئًا علميًّا. في وقت ما كان سبينوزا يستحوذ عليه. هل جعلك تقرئينه؟

ـ لا، ليس بعد. ولكنه يعتني بالعصافير الصغيرة من كل الأنواع.

كنت أعتقد أن هذا له دخل ما، بطريقة ما.

ـ ماذا عن «خواطر» باسكال، هل جعلك تقرئينه؟

ـ لا.

ـ إذن، سترين أنه إذا خطر له، سيهديك إياه أيضًا.

ـ أنا أجده غامضًا قليلًا، على الرغم من كل شيء.

ـ إذا رأيتِ الأشياء من الداخل وليس من الخارج، ستفهمين.

ـ بمعنى؟

ـ عندما نكوِّن عن الأشياء فكرة سطحية بعض الشيء، نستنتج أحيانًا اعتباراتٍ غير دقيقة.

ابتسم وهز رأسه وكأنه يسترجع بعض الأفكار الصعبة جدًّا ليتقاسمها مع شخص مثلي. دافعت عن نفسي:

ـ «لا يوجد شخص عظيم بالنسبة إلى وصيفه».

نظر إليَّ طويلًا من دون أن يجيب.

وبينما نعود نحو الشاطئ، ببطء، حط طائر النورس الذي كان يتبعنا على صفحة المياه وأخذ يهز جناحيه ليستعدلهما.

قال أنجيلو:

ـ الآن سأتوقف. وأتمنى أن أراكِ قريبًا، سيكون لدينا الكثير ليقوله أحدنا للآخر في المرة القادمة.

بالنسبة إليَّ بدا أن لدينا بالفعل الكثير من الأشياء لنقولها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل العاشر

اختيار حياة

بينما وضعتُ المفتاح في الباب سمعت صوت تنظيف.

ـ ها هو، كنت متأكدة!

كانت إليزا تقف على مقعد وتمسك بغطاء برطمان في يدها، وكان البرطمان ومحتواه كعجينة غير واضحة عند قدميها. وهكذا، من أول نظرة، بدت كتمثال الحرية.

كانت هذه زبدة الفول السوداني، شيء وسط بين السمن النباتي وعجين الخشب. كان البروفيسور يخفي كل شيء في خزانات المطبخ، متمنيًا ألا يكتشفها أحد، ولكن في النهاية يضع أحدهم يديه عليها، بشرط ألا يكون طوله «مثل عقلة الإصبع». هذه المرة ألقى اللوم على حفيدتيه.

وبرأ نفسه:

ـ أرادتا تذوقها.

نفتا التهمة:

ـ كنت أنت من أرادها!

ـ إنها دهون مكثفة، ومن يدري ماذا يضعون فيها أيضًا!

قلت لِكي أهدئ إليزا:

ـ هيا، سأهتم أنا بذلك، اذهبوا من هنا.

ولكن لم يُفِد هذا.

قضت جزءًا كبيرًا من الصباح في نقاش مع أبيها، بينما حاولتُ أنا أن أنظف الأرض، وفي النهاية انفجرَت:

ـ حمدًا للسماء أنني في الغد سأعود إلى لوجانو، ستتسبب في جنوني.

ذهبتُ إلى المكتب، الغرفة الوحيدة التي يمكنني العمل فيها. كانت الفوضى هي المعتادة، ولكن بدا لي المكان أكثر تجردًا من الذكريات، وكأن رياحًا مرت عليه في الليل. مكث البروفيسور طويلًا في الصالون، متدثرًا تمامًا، ومهمومًا، وربما شاعرًا بالإهانة بعض الشيء من الطريقة التي عاملته بها ابنته. ثم وجدتُه مرة أخرى على عتبة المكتب بينما كنت أحاول تنظيف الفتات تحت المكتب.

قال بصوت منخفض:

ـ «Non ridere, non lugere neque detestari; sed intelligere».

وبدا أنه يتحدث مع نفسه.

ـ ماذا قلتَ يا بروفيسور؟

ـ لا تضحك، ولا تبكِ، ولا تحتقر، ولكن افهم فقط. فيما يخص الانفعالات الإنسانية.

ـ هل تريد أن أقرأ لحضرتك شيئًا ما؟

ـ خلف المكتب، في الوسط، يوجد كتاب ضخم عنوانه «علم الأخلاق- الإيتيقا»، لسبينوزا، وبجواره كتاب آخر له. انظري بعض الشيء، من فضلك، إذا كانت توجد في أحد الكتابين علامة كتاب على الصفحة الخاصة عن اللعنة التي ألقوها عليه.

يا إلهي. وضعت المكنسة الصغيرة والجاروف، والتفتُّ، كان بالضبط خلف رأسي بمجرد التفاتي. ومن ذلك الكتاب الأجدد برزت تذكرة قطار.

ـ ربما عثرت عليه، يوجد أيضًا صليب: «بحكم الملائكة وحكم القديسين، نحن نحرم...» هذا الشيء؟

ـ بالضبط.

ـ «نحن نحرم ونطرد ونلعن وندين باروخ دو سبينوزا، برضا من الرب، مبارك اسمه»...

ـ اتركي بعض الأسطر.

ـ «فليكن ملعونًا في الصباح، وملعونًا في الليل، ملعونًا عندما يستلقي وعندما يستيقظ، ملعونًا في خروجه ودخوله. الرب لن يعفو عنه، بل على العكس، فإن غضب الرب وغيرته سيقعان على هذا الرجل...».

ـ وبعد ذلك بقليل، كيف الختام؟

ـ «غير مسموح لأحد بالتواصل معه، حتى عن طريق الكتابة، ولا يقدم له أي معروف...» يا أمي! «ولا يجلس معه أسفل السقف نفسه، ولا يقترب منه أكثر من أربع أذرع».

ـ كفى، كفى. الآن أتذكر.

ـ ولكن ماذا فعل؟

ـ قال ما يفكر فيه. ولكن لا تكفي الحكمة.

خرجت إليزا وهي تصفق الباب.

شعرتُ بشيء من الضيق.

ذهب البروفيسور متأملًا نحو الشرفة. أفضل هكذا، لم يكن الوقت للسؤال عن الفارق بين الفلاسفة والقديسين.

عادت إليزا بعد ساعة وهي تنفخ.

في ذلك اليوم أبطأت من إيقاعي حتى لا أقف في طريق أحد، وتأخرت، وهكذا قررت ألا أذهب إلى كالافوريا، وأن أستمتع بالنظر إلى البحر من تراس ماسكاني.

الشمس تضرب بقوة، واكتست الألوان بتلك المسحة الذهبية التي تحولت إلى نارية عند المساء، عندما تظل الحرارة في المياه وتترك الأرض. ألوان تجلب السعادة، ربما لأننا نعرف أن الأيام ما زالت طويلة. وضعتُ المنشفة على أحد الكراسي الحجرية أمام المياه وجلست، وأخرجت ثمرة

الخوخ الناعمة الناضجة، والعنب، وبعض التين وعجينة البيتزا بحبيبات الملح الصخري، ثم أخذت آكل كل تلك الأشياء معًا. بدا لي أنني لديَّ على ركبتَي مائدة من الملذات تثير غيرة أي رسام.

خلط النكهات البسيطة يستمر طويلًا. ذلك المذاق الحلو جدًّا للفاكهة مع ذلك المالح لعجينة البيتزا يؤدي إلى رغبة في العمل، في التغيير. لا شيء يقارن بذلك الخاص بالخضراوات في المياه، ذلك النقع في غليان الواجبات. تشبه الواجبات والملل الكوسة المسلوقة، ذلك المذاق المر الذي في الواقع لا يعجب أحدًا ولا حتى البروفيسور.

في الوقت نفسه، في الأفق، تمر سفن تجارية عملاقة، ولكن من الميناء تبرز الناقلة المتجهة لكورسيكا ذات المدخنة المفتوحة، وحولها حشد من المراكب الصغيرة التي تبحر خائفة. وفي اتجاه إقليم ليجوريا، تلمع الشمس بلون فيروزي مثل ثوب إليزا. نسيت أن أقول لها أن تغسله بالماء البارد حتى لا ينكمش. فكرتُ: ربما إذا هاتفتني لتودعني سأقول لها هذا. تنهدت، لا تهتم إليزا بتلك الأشياء، سترتديه أيضًا حتى وإن بدا خارجًا من فم كلب.

عندما اقتربتُ من الدرابزين لأنظر إلى البحر القاتم على الصخور اللامعة، رأيت شخصًا ممسكًا بلباس للبحر تحت إبطه، كان أسمر ومجعدًا وكأنه الخرنوب، وكان يمسك في ذراعه دلوًا صغيرًا وسكينًا، وبينما آخر، تقريبًا مثله، يناديه:

ـ أيوجد ذهب؟

ـ لا، أبحث عن قنافذ البحر.

ـ حظًّا سعيدًا.

ـ سأعثر عليها، سأعثر عليها، فأنا أعرفها بالاسم.

ونحو الجنوب بعض الشيء يظهر الساحل، السنونو والأشرعة. ربما كان أنجيلو هناك بدوره يبحث عن أعشاب بحرية أخرى أو سلطعون. من يدري إذا كنت سأراه مرة أخرى. فبرحيل إليزا سأمكث مع البروفيسور كل اليوم.

كان الهواء مشبعًا برائحة «البوسيدون»، العشب البحري الوحيد الذي أعرفه.

في طريق العودة إلى المنزل مررت على كنيسة سانتا ماريا المفتوحة طوال الوقت. وبينما أشعل شمعة للعذراء، سألت إذا كان الفلاسفة، بدورهم، من النوع الذي يشعل الشمع، ثم رشمت الصليب وفي تلك اللحظة بالتحديد رن جرس الهاتف. سارعت بالخروج: ماوريتزيو، صديق زوجي الذي كان يدير المسبح العمومي في مقاطعة بيزا. قبل أن أُعيَّن في وظيفتي الدائمة لدى عيادة الطبيب، عملت لمدة وجيزة هناك، في الخزانة، ولكن اتضح أن العمل خارج المدينة شيء مرهق للغاية، ولم يستمر أكثر من عام.

ـ إذن، كيف حالك؟

يتحدث ماوريتزيو بصوت مرتفع للغاية إلى حد أنني وجدت صعوبة في تمييز الكلمات. بل كانت تخرج من الهاتف بصداها.

ـ بخير.

من يدري إذا كان يعرف أن صديقه في السجن.

من الصمت فكرت أنه ربما شعر بالدهشة.

ـ قال لي ألدو إنك لا تعملين.

ـ متى تحدثت معه آخر مرة؟

ـ ربما منذ شهرين، حكى لي أنه في فوضى عارمة، ثم لا شيء بعد ذلك. على كل حال لديَّ عرض عمل من أجلك، إذا أردتِ.

قلت مترددة:

ـ حسب.

ـ مع الأوقات العصيبة التي نمر بها، تقولين لي: «حسب»؟

ـ معذرة، أنا مدهوشة. لم أعتقد حتى أنني ما زلت في دفتر أرقامك. ولكن أنا التي نسيت وجوده.

ـ يبحثون عن شخص في مركز الترفيه الذي افتُتح في مدينة كاستيليونشيلُّو.

يمكنك أن تعملي في الاستقبال في دوريات العصر والمساء. العقد لمدة ستة أشهر، والأجر مقبول. أريد أن أرشح اسمك، هل توافقين؟ شيء آخر، إذا عملتِ جيدًا سيجددون لكِ العقد سنويًّا.

التزمتُ الصمت.

ـ هل يمكن أن أهاتفك خلال يومين؟

صُدم.

ـ أجل، ولكن تعجلي، هناك من سيقفز مترين من أجل أي عمل. وخاصة أنه عمل مريح، فلن يكون عليك تنظيف نبات القراص في الليل.

كان على حق. ولكن كنت أفكر في شيء آخر، ولم أعرف حتى ما هو.

ـ اسمع، اتخاذ قرار كهذا ليس أمرًا بهذه السهولة.

ـ معذرة، ولكنني لا أفهمك على الإطلاق، العمل هو العمل، والهدف منه هو نهاية الشهر. أم أنك عثرت على شيء أفضل ولا ترغبين في أن تقولي لي، أو ربما تكونين أفضل بكثير مما تبدين.

ـ سأتصل بك أنا.

أغلق الخط من دون أن يحييني.

لم يكن ماوريتزيو يعلم أنه، لحسن الحظ، قد وصل متأخرًا.

في المنزل كتبت على الفور رسالة لزوجي، إذا كان لا يزال لديه الهاتف ليقرأها:

اتصل بماوريتزيو، لديه عمل من أجلك.

كان أتشيتو ينام ملتفًّا على نفسه فوق الأريكة تقريبًا كقطة. وضعت له لجامه وأخذته إلى مدينة مونتيروتوندو، حيث افتتحوا مؤخرًا منطقة «مخصصة للكلاب». لم يكن بها حتى سور، ولكن أولئك الممسكين باللجام في أيديهم مثلي فرحون للغاية. يكفي القليل ليسعد سكان ليفورنو، على الأقل من يمتلكون كلابًا.

جلست لأنظر إلى أتشيتو وهو يدور بسعادة في العشب، بلا قلق، وحسدته. في منزلي تقترب العاصفة، لو أن ما حدث وقع قبلها ببضعة أسابيع ستكون مأساة. ولكن الآن لا، أشعر بالتعب فحسب، وكأنني في نقاهة.

تنهدت وأنا أنظر إلى سطح الماء الذي يتلألأ بين شجرتي «لاركس» على حافة التل، ثم ناديت الكلب باسمه، لأنه، على كل حال، لا يستجيب للصفير.

لم يرغب في العودة إليَّ، عثر على شيء أكثر أهمية، وتجاهلني تمامًا. كما فعلت أنا مع عرض ماوريتزيو، بطريقة ما.

ولكن، بمجرد أن أوشكت على الرحيل، تبعني. لم يكن يناسبه أن يفقدني.

رحلت إليزا مبكرًا فلم أقابلها. في المقابل عثرت على الفوضى الخاصة بها وبابنتيها، حتى عبوة شراب السعال مفتوحة على الكومودينو في الغرفة.

شعرت بالاستياء بعض الشيء لأنها لم تودعني، ولكن في المطبخ، ووسط الأكواب التي عليَّ غسيلها فوق المائدة، رأيت عبوة صغيرة، ملفوفة بطريقة سيئة. كانت هناك ورقة صغيرة مكتوب عليها ببساطة:

من أجل ماريا فيتوريا، إليزا.

عبوة طلاء أظافر، واحدة من تلك الجميلة الموجودة في السوبرماركت.

تأثرت.

وضعتها في حقيبتي بعناية وذهبت لأبحث عن الساكن الناجي في المنزل. يقف في التراس، مستندًا إلى الدرابزين، وقبعته على رأسه. وبالحكم على الكنزة الصوفية التي يرتديها فهو يقف هناك منذ مدة طويلة.

قال لي، بعد أن استشار الساعة الناطقة:

ـ منذ ساعة تقريبًا.

ـ إذن، رحلت إليزا في الصباح الباكر.

ـ هربت تقريبًا، في الغالب.

ـ فعلًا؟

ـ يمكن أن نقول إنه بعد حد معين توجد أشياء لا يمكنها التسامح معها، أعتقد أنها شعرت بأنها منسحقة تحت المسؤوليات. أخشى أن أكون واحدًا من تلك، حتى وإن كنت أعتقد أنني لست السبب الأساسي.

صمت ثم أضاف:

ـ تسببوا في اضطراب شديد، إحدى الحفيدتين تسعل بشدة.

مكث بعض الوقت على الشرفة ووجهه ناحية الطريق السريع، ثم ناداني لأؤكد له دقة موقع مفترق الطرق.

قال:

ـ لم أكن مخطئًا إذن، لقد ودعتهن من الاتجاه الصحيح.

حاولت أن أتخيله هنا فوق، بقبعته على رأسه يودع سيارة صغيرة وممتلئة كالبيضة، وهو يحرك يده بتردد.

ـ إذن، يا ماريا فيتوريا، الآن تبدأ مرحلة العبور الكبيرة التي ستصل بنا إلى عيد الميلاد ثم إلى عيد القيامة، ثم من يدري. هل ستصحبينني؟

ـ بالتأكيد.

ـ والآن لتعدي لي القهوة التي وعدتني بها بالأمس ولم تعديها.

ـ ولكنني أعددت البطاطس المحمرة قبل أن أخرج، ولم أطع ابنة حضرتك.

وذهبت على الفور إلى المطبخ، حيث عثرت على نبتة الريحان محطمة بوضوح بسبب سائل غريب يغطي الأرض. حاولت أن أفحصه بطريقة أفضل، وبدا لي عصير برتقال.

ظهر البروفيسور وقال، محاولًا أن يكون محايدًا:

ـ هذا الصباح غضبت إليزا غضبًا شديدًا لأن حفيدتي، تلك التي تسعل، لم ترغب في أن تشرب أي شيء على الإطلاق مما أعدته لها. هل تعرفين أن هاتين الفتاتين في الصباح لا ترغبان في الشرب أو في الأكل؟

ـ أتخيل.

وعادت إليَّ معاناة الريحانة.

ـ لقد انتهيت من تناول كعكة «دونات»، كانت سيئة جدًّا لأن بها يانسون، وأنا لا أحبه على الإطلاق.

ـ لماذا أكلتها إذن؟

ـ أحضرتها لي إليزا. الآن سيصلح لي فنجان القهوة طعم فمي، نظرًا إلى أنني بلا رقابة على الأقل حتى منتصف النهار.

ـ ماذا سيحدث في منتصف النهار؟

سألتُ وأنا أحاول أن أحيي النبتة.

ـ ستأتي فالِّي فجأة، لا بد أن ننظم أنفسنا بحيث لا تضبطنا متلبسين بالجريمة.

لم أستطع أن أفهم مزاجه، ولكن كان يبدو لي أن تركيبة الهواء قد تغيرت.

ـ سترين الآن يا ماريا فيتوريا، سأستعيد الآن ملكية منزلي، إذن، لا تأتي كل الشرور لتغرقنا. إلا أنه ما زال هناك بعض القصاصات من...

ونظف أنفه.

ـ من؟

ـ من العبارات المتنازعة.

ـ يبدو أن الأمر يتعلق بنقاش صعب للغاية بالنسبة إليَّ.

ـ ليس حقيقيًّا، ليس صعبًا إلى هذه الدرجة. ربما حضرتك أيضًا لديك شيء مضطرب يجعل حياتك أكثر قسوة، ولكن في الوقت نفسه يقودك إلى البحث عن حل ما.

وأعلم أنه سدد تمامًا نحو الهدف.

في ذلك الوقت جلس على حافة المقعد، متدثرًا، برأس منحنٍ. كان يبدو في انتظار شيء ما. ربما سؤالي.

ـ هل لدى سيادتك عبارات متنازعة؟

ـ أجل، لديَّ الكثير منها. وليس فقط عبارات، ولكن وقائع لا يمكن

إصلاحها. بسبب عينَي لم أستطع أن أتصرف في الوقت المناسب في لحظات من حياتي كان عليَّ فيها أن أتصرف بحرص أكثر.

توقف وكأنه يبحث عن كلمات.

ـ اعتقدتُ أنني يمكنني قراءة كتبي حتى آخر خيط من الضوء يتخلل الحدقتين، ولكن على العكس أحيانًا لا بد أن نبصر ما هو أبعد من القراءة. أتعرفين هذا؟ لم أعتقد أن الضوء يمكن أن يخدمني في شيء آخر.

وددتُ أن أساعده، ولكن تنقصني بعض المعطيات.

تشجعتُ.

ـ النظر إلى ماذا؟

مكث في صمت لمدة، بدت لي لا نهائية، ثم أجاب:

ـ النظر إلى وجه ما، أن أبصر ما يمكن أن تقوله نظرة، أن أبصر إليزا التي كانت تكبر وحيدة وقلقة. عندما فهمت أنني تجاهلت تلك الأشياء، تأخر الوقت بالفعل. كنت قد فقدت البصر تمامًا. وهكذا أجبرت نفسي على أن أنظر بطريقة مختلفة، لأصلح الوضع ولكن فات الأوان...

ـ «فات الأوان» ليست عبارة جيدة، لا تقلها يا بروفيسور.

ـ «فات الأوان» هو التعبير الأنسب عن حياتي. أتعرفين؟ كانت لدى زوجتي آمالٌ كبيرة في شفائي، ولكن لم يحدث هذا.

كانت أشياء تخصه، تعود إلى أعوام سابقة، أشياء ضخمة، نوعًا ما، وكنت أنا أستمع إليه متحيرة.

أخذ هو كتابه الصغير لإبكتيتوس، وأخذ يقلب الأوراق، ثم وضعه أمامي في خجل.

ـ أحتاج إلى أن تنعشي ذاكرتي عن التاسع.

أغلقت الصنبور ونشفت يدي:

ـ «المرض إعاقة للبدن، ولكن ليس لاختيار الحياة، إلا إذا اختارت الحياة

ذلك. العرج إعاقة للأرجل وليس اختيارًا للحياة. وقل الشيء نفسه عن كل شيء يحدث، فلسوف تجده إعاقة لشيء آخر، ولكن ليس لك أنت».

مد يده ليستعيد الكنز مرة أخرى:

ـ مسألة عدالة، اختيار حياة.

حك جبهته واختتم:

ـ كان سيكفي أيضًا إبكتيتوس لكيلا يتألم أحد أن يقول إن من كان مطمئنًّا لا يوتر نفسه ولا الآخرين. ولكن الاطمئنان إنجاز جميل.

وفي ذلك الوقت بدأت أخيرًا إعداد القهوة، رن جرس الهاتف، وكان البروفيسور مدهوشًا بسعادة. قطع فجأة تأمله، وانتقلنا إلى جو آخر. يحدث هذا مع البروفيسور.

ـ ماريا فيتوريا، أُعلمك أنني اليوم مشغول، ولذلك يمكن أن ترحلي في الساعة المعتادة.

ـ ولكن لم يكن هذا ما اتفقنا عليه.

ـ على كل حال عندما تصل فالّي يمكنكما أن تراجعا الاتفاقيات تبعًا للشروط، وسترين أننا جميعًا سنستفيد من هذا.

من الواضح أنه لم يكن يريدني في المكان.

أسرعت بإعطائه القهوة. وبينما أنهي التنظيم، انسحب هو ليستمع إلى المسجل. حاولت أن أمد أذني لأسمع لمن هذا الصوت، وبدا لي أنه تغريد صديقته أورورا.

عندما رن الجرس وجدت نفسي أمام الجارة «الكي جي بي»، وهي تمسك بيدها ثوب إليزا الفيروزي.

ـ سقط على الخبيزة، رأيت ابنة الأستاذ ترتديه من قبل، هل رحلت بالفعل؟

كانت تعرف هذا بالتأكيد أفضل مني.

ـ وأنت ماذا ستفعلين، ستمكثين؟

ـ أجل، لماذا يجب ألا أمكث؟
ـ لأن، لأن... من يأتي إليه لا ينجح أبدًا في أن يرضيه. عندما يكون شخص ما متميزًا... ثم بالحياة التي كان يحياها، هل تفهمينني؟
ـ لا.

لم يكن حقيقيًّا، ولكنني تمنيت أن تقول شيئًا أكثر إفادة.

ـ هو الذي لم يعد يرى، وزوجته التي فقدها فجأة، ثم أولئك الأمريكان الذين يظهرون من حين إلى آخر، ومجموعة الأصدقاء، والطلبة...
ـ الأمريكان؟
ـ كانوا يأتون، ثم لم أعد أراهم قَطُّ.
ـ ولكن هل يتحدث الإنجليزية؟
ـ بالطبع يعرفها، فأخته لم تكن تتحدث الإيطالية، ثم هناك أيضًا ذلك الابن الذي يرسَل إلى أي مكان يوجد فيه الجيش الأمريكي. والحرب التي تندلع أحيانًا وتهدأ أحيانًا أخرى، ربما تكون هناك حرب ما الآن. كانت لطيفة جدًّا أخته، وتحضر له الهدايا. وأيضًا الابنة الصغرى، ذات الشعر الأحمر والنمش، تأتي هي أيضًا. تقرأ له تلك الصحف، صحف بلدها. ولكنني أعلم أن الأخت أيضًا ماتت في النهاية، ولم أرَ أحدًا بالحقائب بعدها. أحيانًا كان المصعد يتوقف بسبب ثقلها.

مكثتُ ثابتة وكأنني سحلية خضراء بثوب إليزا في يدي، من دون أن أجد طريقة لأستعيد بها أنفاسي، وهكذا تصرفت هي:

ـ كم من الأشياء مرت عليه، هذا الرجل المسكين. إذن أنت لا تعرفين شيئًا، حسنًا، سأذهب الآن.

واختفت في بئر السلَّم، وكان لديَّ الانطباع، هذه المرة، بأنها ندمت لأنها تحدثت أكثر مما ينبغي لها.

عندما أغلقتُ الباب خلفها خرج البروفيسور من المكتب في فضول.

قلت:

ـ كانت الجارة، عثرت على ثوب إليزا بين الزهور.
علَّق:
ـ فعلًا. شخصية طفيلية، تعتقد أنها بمراقبتها لي تؤدي عمل السامري الصالح، لأنها إذا راقبت نفسها ستجد الفراغ الشديد المحيط بها.
وعاد إلى مكتبه.
يا إلهي يعرف كيف يعقر عندما يريد!
ـ سأغسله وأكويه...
ـ أعتقد أن إليزا لم تكن لتكويه قَطُّ.
أتفق معه على هذا.
ـ إنها كرمشات أخرى التي يجب على ابنتي فردها يا ماريا فيتوريا العزيزة. هل يمكن أن تأخذي كتيب شوبنهاور، سأجعلك تقرئين شيئًا ما خطر على ذهني الآن.
بدا لي وكأنه انتعش. وضعت البخاخة وقماش التنظيف جانبًا.
ـ «فن معاملة النساء»، هل تتذكرين؟ ذلك الكتاب الصغير هناك، الآن تعرفينه.
ذهبت لأفتش عنه في المكتب.
ـ ابحثي عن قسم الزواج، أريد أن أهدي سيادتك لؤلؤة حقيقية بالفعل.
ـ «إن الزواج فخ تنسجه الطبيعة لنا». هذا يا بروفيسور؟
ضحك.
ـ بعد ذلك، بعد ذلك، اقرئي ماذا يقول عن الزواج عن حب.
ـ «تزوج فقط «عن حب» ولن تندم مبكرًا جدًّا، بل إن الزواج بصفة عامة، يعني أن تضع يدك في جوال وعيناك معصوبتان على أمل أن تخرج سمكة أنقليس من وسط الثعابين».
هذه المرة ضحكت أنا وباستمتاع:
ـ هذا الفيلسوف يرى العالم ورديًّا، أليس كذلك؟

ـ للدقة هو يقول إن هذا هو الأسوأ في العوالم الممكنة.

ـ وحضرتك متفق معه؟

ـ أنا أتفق أكثر مع من يقول إنه أفضل العوالم الممكنة.

ـ وهل كان الاثنان يذهبان إلى العشاء معًا، مثل الساسة؟

ـ مستحيل. فبينهما قرنان من الزمن.

أرسلني مرة أخرى لأبحث عن كتاب في زاوية من زوايا المكتب، رسائل لايبنتس ذلك الذي كان يرى العالم أفضل. ضيع لي نصف ساعة تقريبًا لأنه نسي أن الكتاب بالألمانية.

قال:

ـ حسنًا، لا يهم. سأكتفي بما ظل في ثنايا الذاكرة. لايبنتس متفائل إلى حد أنه قال إن الشر المطلق لا وجود له، وإلا فإن الرب ليس كُليَّ المعرفة ليستوعبه بذهنه، أو لن يكون كُليَّ القدرة ليزيله.

أعجبني هذا بالفعل.

ـ بمناسبة الشر المطلق، بعد قليل...

ولم يُنهِ العبارة، كانت فالِّي ترن الجرس.

الفصل الحادي عشر

فريدا بلا قط

تركتُ فالِّي منهمكة مع دفتر ممتلئ بالحسابات. كان البروفيسور مستسلمًا يتجرع مزيدًا من العظات، وكنت أنا مدعوة لآكل من المعجنات التي أحضرَتها بفخر من بيزا لتحتفل بنهاية «الماراثون الصيفي». بدت الشخص الوحيد المستريح من واقع أن إليزا رحلت بحمولتها، بل إنها ارتدت لهذه المناسبة زوجًا من الحلقان اللامعة. لا بد أن واجب الرقابة الصيفية كان ثقيلًا عليها.

أكلتُ الفطيرة وانطلقتُ على الفور نحو البحر.

لمحتُ على الفور زعانف أنجيلو والعبوات التي يضع فيها الأعشاب البحرية. فكرت في أن أقول له إنني سأعود بصعوبة نظرًا إلى أنني يجب أن أعمل. إذا كان الأمر يهمه في شيء.

ولكنه كان يهمني.

كنت قد وضعت للتوِّ المنشفة في المكان نفسه، عندما برز هو خلفي، من الأرض، مرتديًا بذلة بحرية كاملة وبالنظارة. للحظة لم أتعرف عليه.

قال:

ـ آه، ها أنتِ هنا! لم أرَكِ بعدها، واعتقدت أنك أصبت بصدمة من جولة الزورق المطاطي. لستِ ذئبًا بحريًّا، هه؟

ـ بل إنني كذلك أكثر مما تتخيل.

ـ فعلًا؟ لولا أنني نسيت زعانفي لما استطعت تحيتك.

أخذ العبوة، في أثناء ذلك، ووضعها على حقيبة رقبة.

ـ هل ستذهب الآن؟

ـ أجل، سأعود إلى بيزا. لديَّ كل العناصر الخاصة بعملي حول الحياة البحرية.

ـ وهل هناك شأن أيضًا للسباحين بالعناصر التي جمعتها؟

قال وهو يغمز بعينه:

ـ أولئك الفزعون من قناديل البحر، بالتأكيد. اسمعي، بيزا قريبة، سأحب أن أرى البروفيسور مرة أخرى. لم ينتقل من شارع الإيبراي، أليس كذلك؟

ـ كما هو، في رقم ٣٩.

أضاف:

ـ لا بد أن رقم الهاتف كما هو. أنا متأكد أنه بالمكوث معه ستجيدين أيضًا الأسلوب الحر، وهكذا الموسم القادم يمكننا أن نسبح معًا.

كان لديَّ شعور بالضياع، مثلما أشعر عندما أكون على وشك أن أفقد شيئًا حصلت عليه بصعوبة.

واقترب ليضع يده على كتفي وقال:

ـ سنلتقي قريبًا، فلتغطسي مع أسماك أم الجواء، رأيت العديد منها.

ـ شهية المذاق جدًّا في الفرن.

ـ بل هي أجمل عندما تسبح.

أعطيته الزعانف حتى لا يبتل، وبدا لي أيضًا أنه ألقى لي قبلة ليشكرني.

وفي عرض البحر يسبح غراب ماء على صفحة الماء الذي أصبح سبتمبريًّا الآن. عنقه الطويل في مقابل انعكاسه بدا كمن يستمتع بأفضل العوالم الممكنة.

في أثناء ذلك لا بد أن التهابات المثانة قد عادت إليَّ، وهكذا ذلك العصر، وبعد البحر، توقفت في الهايبرماركت على طريق الأوريليا.

ركنت السيارة بالقرب من المدخل وارتديت كنزة صوفية قديمة، لأنه في تلك الأماكن يمكن أن يكون البرد قارسًا وكأنهم لا بد أن يُجمدوا حتى الزبائن. بحثت عن دورة المياه على الفور. مرآة، وبلاطات رمادية ومصباح نيون، أي مجموعة من الأشياء الكئيبة التي لن تنصف ولا حتى وجه جريس كيللي. ولكنني حدقتُ بانتباه ما، فرأيت وجهًا أسمر بعض الشيء. ولكن الشيء الذي كان بارزًا أكثر هو عينان زرقاوان، أكثر زرقة من الشهور السابقة، بل أكثر زرقة بكثير مما كانتا عليه في الربيع. توجد بعض التجاعيد، بطبيعة الحال، خصوصًا التجعيدتين الواقعتين فوق الأنف، اللتين ظهرتا نتيجة كرمشتي له. حاولت أن أفرد جبهتي بأصابعي، كان هذا أسوأ لأنها بدت كالبلاستيك. على الأقل تلك التجاعيد الصغيرة تضفي لمحة شخصية.

لا بأس بي كواحدة في الأربعين. العلامة الوحيدة على الإهمال تبدو في شعري، تلك الخصلات الهائشة، والطويلة أكثر من اللازم لتجف بسرعة بالملح بداخلها. تذكرني بفريدا، صديقة تشارلي براون(*)، ينقصني فقط القط على ذراعي.

بمجرد أن نزلت من «الباندا» رأيت أتشيتو وذيله منخفض، كان يصدر أنينًا غريبًا بعض الشيء.

ـ ما بك؟

تبعتُه حتى أسفل السلم الذي يقود إلى الطابق العلوي حيث تعيش صاحبته. وجدت الباب مفتوحًا وجارتين في المنزل مع الطبيب، وحماتي على المقعد وقدماها فوق المسند، بيضاء وكأنها عجينة. وفي الجوار أوراق لم أرَها قَطُّ في حياتي.

قالت إحدى الاثنتين، وفي أثناء ذلك أشارت بذقنها المدبب نحو الأرض:

ـ تعالي، تعالي. لم نعرف إذا كنا سنأخذها للمستشفى أم ستفيق وحدها.

(*) شخصية كارتونية في سلسلة الرسوم المتحركة «بينتس». (المترجمة).

قال الطبيب لحماتي:
ـ الضغط منخفض جدًّا، لكن لا تقلقي، لن تموتي، ولكن ليعطِك أحدهم شيئًا لتشربيه، اشتري القطرات التي كتبتها لك بسرعة، ولا تفعلي شيئًا لبعض الوقت. والأهم لا بد أن تقولي لابنك هذا أن يهذب نفسه.
أمسكت بإحدى الوريقات. كانت «كمبيالة» وقَّعها زوجي، من دون تحديد المبلغ.
قالت الأخرى التي تعطيني ظهرها:
ـ حسنًا، الآن سنذهب نظرًا إلى أن الدعم قد وصل.
وعندما التفتت رأيتها تحمل على ذراعها كلبًا صغيرًا، جرو «دوبرمان».
لهذا السبب إذن كان أتشيتو يشعر بالضيق.
هززتُ الكمبيالة تحت أنف حماتي:
ـ وهذه؟
ـ عثرتُ عليها في منزلي، وفقدت الوعي. لا أعلم إذا كانت واجبة الدفع أم ماذا. أريد أن ألقي بها كلها.
ـ ولكن هل يعرف المحامي هذا؟
كان ردها أنينًا، ويدها على جبهتها.
ابتعت زجاجة القطرات وقرأت ما شخبطه الطبيب، ولم أفهم الرقم بعد واحد، ووضعت عشرًا منها على المياه.
ـ انظري إذا كانت نقود المعاش التي وضعتُها في السكرية هناك، أم ما زالت في الحقيبة؟
لم تكن هناك نقود في الحقيبة، ولم يكن سوى القليل في السكرية.
ـ ولكن متى سحبتِها؟
ـ هذا الصباح.
ـ وذلك الذي ينقص أخذتِه حضرتك؟
ـ لا، صدقًا.

لم أرغب في أن تفقد الوعي مرة أخرى.
ـ ربما تكون في مكان آخر ولا تتذكرين.
ـ آه، فينيشو زوجي المسكين كان يقول لي دائمًا أن أغلق المدخل جيدًا.
ـ ولكن هل لدى أحدهم المفاتيح؟
ـ ابني لديه نسخة من المفاتيح. هل أعطاها لك؟
ـ لا، لم يعطِها لي.
أخذت تهوي بالكمبيالات.
ـ وماذا يجب أن أفعل؟ لا بد أيضًا أن أثق بالناس.
نظرت إليَّ نظرة، وكانت كافية بالنسبة إليَّ.
خرجتُ على السلم، واتصلت بابنها الذي أجابني بعد رنة واحدة.
قال لي:
ـ أخيرًا، ليس لديَّ نقود للهاتف، وأنتِ لا تهتمين. لقد أخرجوني، ولكن ماذا قلتِ لماوريتزيو؟
ـ لا شيء. تعالَ إلى أمك.
ـ حاولتُ هذا الصباح، ولكنني لم أجدها.
ـ هي لا، ولكن كانت نقودها موجودة.
صمت ثم أضاف:
ـ لقد قلت لماوريتزيو أن يعيد تعيينكِ.
ـ ولكن ألا تستطيع أنت أن تأخذ ذلك العمل؟
ـ ولكنه غير مناسب لشخص مثلي.
ـ وأنت ماذا يناسبك؟
صمت.
سألته أيضًا:
ـ ماذا عن الكمبيالات؟
ـ إذا عمل أحدهم يمكنه تسديدها.

ـ أنت، على سبيل المثال.

ـ أراكِ أنتِ أفضل في نوعيات العمل هذه. ثم أنتِ تسكنين في منزلي مجانًا.

ـ وماذا عن التخلص من العفن وكي القمصان؟

ـ لا أجيد الكي.

ـ ولا شيء آخر.

ـ منذ متى وأنتِ تتحدثين هكذا؟

ـ منذ أن سقطت القشور من فوق عينَي.

أغلقتُ الخط. ودخلت إلى حماتي. سألتها.

ـ هل تحتاجين إلى أن أطهو شيئًا لحضرتك؟

توقفت عن التهوية، وبدت بالفعل مستعدة لاستكمال طريقتها العدوانية.

ـ بحق السماء، سأفكر أنا في ذلك. خذي هذا الكلب خارجًا، يكفي هذا.

أغلقتُ باب المدخل، وأخذت أتشيتو الذي أخذ يهز ذيله.

ـ إنك أرنب جميل ومنافق كبير.

لم يتضايق وأخذ يقفز.

الفصل الثاني عشر

لن نقدم القهوة لسبينوزا

اليوم التالي مررت على السوق المركزية في الصباح الباكر.

كانت سوق ليفورنو في الهواء الطلق، وكبيرة للغاية، وكلها من الزجاج والحديد والرخام والصخب. تشبه الردهة الضخمة، من تلك التي تعود إلى زمن ما، وكانت مصنعًا للفرح. يوجد صالون هائل ممتلئ بالفتارين، وبالأخص بالأفران وبائعي الألبان والبقالات، وصالتان فيهما يُباع السمك من جهة والخضراوات من أخرى. ومن النوافذ الضخمة تعبر نسمة البحر التي تتخلل خنادق زمن الميدتشي وسط فوضى الطرقات، وترطب الضوء الأبيض للصباح وتُعطر المداخل برائحة الملح. ومن المداخل الثلاثة يدخل ويخرج الناس حاملين حقائب، وفي منطقة السمك تلمع حجارة الأرضية بسبب السير المستمر لأهل ليفورنو عليها، بالإضافة إلى المياه التي تتسرب من الصناديق. تختلط الروائح والضوضاء وكأننا في كاتدرائية.

في منطقة الخضراوات التي تبدو صفوفًا من الهياكل المزهرة، عثرت على الكوسة المنبوذة، ولكن هذه المرة بأوراق جميلة، تجعلها تبدو وكأنها زنابق خضراء. أما عن الثرثرة فكان يُسمع صوت الجارات وهن يفاوضن على الأسعار، وعثرت أنا أيضًا في النهاية على مكاني بينهن في التفاوض على السعر لأوفر خمسين سنتًا للبروفيسور. كانت الوردة تقريبًا أكبر من الكوسة، واضحة، كم يجب أن تكون واحدة من تلك الطازجة والحلوة. أخذت كمية

كبيرة لأن الأمر استحق بالفعل ومنحوني تخفيضًا. وبدأت أتخيل بالفعل نفسي وقد اندمجت في كل نوعيات الوصفات، وعندما وصلت إلى شارع الإيبراي، أفرغت حقائبي الثقيلة في المدخل معلنة عن نياتي.

أخذ البروفيسور يدير بين يديه ذلك الذي بدا له منتج «هندسة وراثية».

ـ وما هذا يا ترى؟

ـ كوسة جميلة جدًّا، طيبة المذاق وطازجة. وصلت للتوِّ من الحقل.

ـ بشاعة.

أخذ يفتش في الوردة الكبيرة الصفراء، ثم ينزع إصبعه عندما يشعر بالزغب القارص أكثر لسطحها.

ـ أليس هذا موسم الطماطم والفاصوليا؟ ربما يبيعون تلك أيضًا في السوق.

ـ المرة القادمة سأبتاع الفاصوليا.

وبدأت أشعر بالذنب بعض الشيء.

ـ إذن، احترامًا لاختيارك سأحاول أن آكلها، ولكن هل هناك طرق مختلفة عن السلق؟ هل يمكن قليها؟

كانت هذه ورطة كبيرة، كانت لديَّ الأوامر القاطعة بألا أقلي أي شيء، عندئذٍ تصرفت:

ـ يمكن قلي صحف حضرتك أيضًا يا بروفيسور، ولكن المشكلة أنها ستفقد مذاقها الأصلي.

علَّق بثبات:

ـ وهو أفضل جانب في القلي. على كل حال، قبل أن أستفيض في فن الطهي الغريب عني تمامًا، أفضل أن تعدي لي القهوة.

لم يكن لديَّ شك في هذا. رأيت في الثلاجة ما تبقى من المعجنات، وأيضًا جزءًا من الغداء. لا بد أنهما هما الاثنان لم تكن لديهما رغبة في الاحتفال.

وبالتجول في المنزل، عثرت على كيس ممتلئ بالأدوية معلق على شماعة الملابس، لم يكن موجودًا من قبل، ربما كانت أشياء نسيتها فالِّي، أو أشياء لا بد من التخلص منها. كانت كلها علبًا خفيفة، بدت فارغة، هكذا أخذت أفتش داخلها: كلها أدوية منتهية الصلاحية منذ عامين على الأقل، مضادات للاكتئاب، كما تقول النشرات. لم أعلم إذا كان عليَّ أن أخبر البروفيسور، ولكن شيئًا ما قال لي إنني من الأفضل ألا أفعل ذلك. بالتأكيد لم تكن أشياء تخصه، وإلا على الأقل كانت فالِّي ستقول لي. ولا يمكن أن تكون لإليزا التي بالتأكيد ليست مكتئبة، لا بد أنها لشخص لم يعد يبحث عنها، ربما لأنه رحل بالفعل... أو... تركها هناك.

رن جرس الهاتف تقريبًا في الساعة نفسها المعتادة، كانت أورورا ببرنامج الجولة نفسه.

في الانتظار ذهب البروفيسور ليعتكف في المكتب، حيث أخذ يتحسس أكوام الصحف بطريقة أقل اقتناعًا.

سألتُه لكي أساعده:

ـ عمَّ تبحث؟

ـ كل شيء.

ـ كل شيء ماذا؟

ـ كل شيء. الآن لم أعد أعثر على أي شيء.

أزعجتني العبارة، حتى وإن كانت في الواقع لا تعني شيئًا محددًا. نظرت إليه جيدًا، أخذ من خزانة مغلقة دفترًا بدا فارغًا. سقطت الدفاتر الأخرى الموضوعة بطريقة عشوائية. كانت منتفخة بما كُتب فيها بالقلم. تشبه تلك المحشورة في مكتبة الممر، أطنان منها.

جلس أمام المكتب محاولًا أن يضع تحت الدفتر مسند أوراق كبيرًا من الجلد القديم، وعليه علامات في كل مكان. وبقلم جاف ماركة «باركر» أخذ يكتب على صفحة بدت له فارغة، وهو يلمس حوافها، ثم سطح

الورقة ليشعر إذا كان عليها بعض الحفر، وبمجرد التأكد من أن الصفحة ملساء، انكبَّ بحسم على الورقة. إذا كانت الكلمة التي يكتبها أطول من حافة الورقة، يكملها على جلد مسند الورق. من الواضح أنه يُدرك هذا، ويتعمد ألا يهتم. وكأنه لا يحسب على الإطلاق إمكانية إعادة ما كتبه، فإنه من الضروري الكتابة فقط.

سأل فجأة، بصوت منخفض، كأنه كان متأكدًا من وجودي:

ـ ماريا فيتوريا، هل تعرفين أي شيء عن مجلاتي «التايم»؟

لم أجب على الفور.

ـ لقد رأيت مجلات باللغة الإنجليزية، هل تتحدث، حضرتك، عن تلك؟

ـ أجل، فقد اختفت مع صُحفي.

ـ لم ألمس شيئًا يا بروفيسور.

ـ هل تساعدينني من فضلك على العثور على بعض منها؟

حاولت، ولكن بلا جدوى، أُخذت كلها ممن بعد ذلك نسي مضادات الاكتئاب على شماعة الملابس.

ـ ربما ألقت بها فالِّي لأنها تعتقد أنها أشياء لن يقرأها أحد أبدًا. ولكن ماذا تعرف فالِّي عما أحتاج إليه؟

كان يبدو عصبيًّا وكأنهم يريدون نزع الأكسجين عنه.

ـ ماذا سيبقى لي؟

تأثرت له، ولكن لم أعثر على الكلمات المناسبة لأواسيه، وهكذا حاولت أن أدافع عن أخت زوجته:

ـ إن فالِّي شخصية عملية، يقول شوبنهاور هذا أيضًا.

نجحت في أن أجعله يبتسم:

ـ لكن لا تستمتع بالشعر. تقتحم حياتي القوية بما فيها من عادات وتقلبها لي. وهي معروفة في المنزل بذلك العيب.

ومرر سبابته على الشفة العليا، متوترًا. وتابع:

ـ كل شخص له مفهومه الخاص عن الخير، حضرتك على سبيل المثال، في هذه الساعة، كان يمكنك إعداد القهوة التي سبق وطلبتها.

كان حازمًا، بالتأكيد لم يكن يرغب في أن أراه وهو يكتب. وانكب مرة أخرى على الصفحات.

أحضرتُ له القهوة، وتمتم لأنه كان يريد أن يأخذها إلى المطبخ لأنه يريد أن يساعد في «إعداد تلك الخضراوات الملعونة»، ونظرًا إلى أنني كنت هناك طلب مني، إذا استطعت، أن أقرأ ما كتبه في الدفتر. أعطاه لي بحرص، ولكن بمجرد أن فتحته بدا وكأنه أعاد التفكير في الأمر، قال:

ـ لم أكتب أي شيء له معنى، إنها أفكار غير متصلة. ولكن لابد حتمًا أن أكتب.

ثم فتح يده لأعيده إليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

استطعت أن أقرأ فقط:

جاليلاي

بينما أضاف هو:

ـ الكتابة تدريب لا غنى عنه لتوضيح الأفكار.

ـ لدى حضرتك حق، في الواقع إذا لم أكتب ما ينقص في المنزل، أنسى ما يجب شراؤه. ولكن إذا نسيت بعد ذلك الورقة التي كتبت عليها، أتذكر جيدًا ماذا ينقص المنزل.

هذا الاستنتاج سلَّاه.

ـ لم أقصد ذلك بالتحديد، ولكن حضرتك تقولين شيئًا مهمًّا. يعني إدراك بعدم المعرفة، لهذا نكتب.

ـ هذا أتذكره يا بروفيسور! قاله سقراط.

ـ رائع، حضرتك لا تتوقفين عن إدهاشي، وتستحقين هدية.

ـ فعلًا؟

ـ سأهديك كتابًا أتذكر أن لديَّ منه نسخًا كثيرة، ومن بين تلك واحدة صغيرة سهلة الحمل. كتاب لباسكال عنوانه «خواطر».

ذهب بخطوة واثقة إلى زاوية من المكتب:

ـ لا بد أن هذا هو.

كان كتيبًا عجيبًا بغلاف من الورق الذي تقريبًا بدأ يتفتت.

ـ انظري إذا ما زال على الغلاف الداخلي مكتوبًا سعر ١٣ ليرة.

كان مكتوبًا. كتاب أثري بالفعل.

ـ يبدو أنه عاش كثيرًا، هل قرأته مرات عديدة؟

ـ منذ سنوات بعيدة، بمجرد أن تخرجت في كلية الآداب، كانت لديَّ نقود قليلة، ولكنني رغبت في تعلم الفلسفة، وهكذا كنت أبتاع من الأسواق القديمة الكتب المستعملة. عثرت على هذا الكتاب في ميدان فاكِّيني في بيزا. بفضله قررت الالتحاق بدراسة الفلسفة لأدرس تلك المادة الرائعة.

ـ إذن، فهو كتاب مهم، لا تهدِه لي، احتفظ به للذكرى.

ـ لا، الآن أعرف جيدًا المكتوب فيه، وأتمنى أن يعجب حضرتك. الذكريات بئر بلا قاع، وهذا ليس سوى نقطة فيها. هل لديك مكان تضعينه فيه؟

ـ سأضعه على الكومودينو.

ـ أقصد مكانًا في وقتك، بين اهتماماتك.

ـ أجل يا بروفيسور، سأحتفظ به معي وأقرأه في أثناء عظات دون باراكيني.

فكر في الأمر قليلًا ثم اختتم:

ـ رائع، به أفكار يمكنها أن تحل بوجه عام محل أي عظة، ربما، إذا عثرتُ على نسخة أخرى زائدة، لكنت أعطيتها مباشرة لدون باراكيني هذا. باسكال عادة لا بأس به لدى الكهنة، بشرط أن يجدوا الوقت للقراءة بين صلوات كل ساعة وأخرى.

أمسكت بالكتاب وتصفحته.

ـ تعجبك تلك قليلة السطور، أليس كذلك؟

ـ ربما لأنها أسهل بالنسبة إليَّ.

ـ ليس بالضرورة. هل تقرئين لي واحدة؟

ـ «لا يحصل المرء على كرامته من المكان، بل من التحكم في أفكاره. لن يضيف إليَّ أي شيء امتلاك بعض الأراضي. فالفضاء الكوني يحتويني ويبتلعني كنقطة، ولكن يمكنني أن أحتويه بفكري».

قرأتها ببراعة، وكأنني كتبتها بنفسي.

ـ جميل، اخترتِ واحدة تعجبني.

بدت لي اللحظة المناسبة لأطرح عليه سؤالًا لطالما تراقص في ذهني.

ـ ولكن ما الفارق يا بروفيسور بين الفيلسوف والقديس؟

ضحك، وجلس خلف المكتب، كما كان يفعل بالتأكيد في فصله:

ـ القديس يصل إلى قمة شجرة الخيال على سلم من الحبال، والفيلسوف يتأمل من أين يمكنه أن يصعدها بقواه، وعندما يرى الموقف السيئ يستخدم بعض العوارض المتزعزعة.

صمتُّ.

ـ أو يمكننا أن نقول إن القديس يستخدم النبتة المتسلقة ليصل من نقطة إلى أخرى في الغابة، غير مهتم بالفخاخ، بينما يسير الفيلسوف كالحلزون ويشرد في الطريق. ولكنهما يصلان إلى المكان نفسه.

كان الموضوع صعبًا للغاية.

ـ بروفيسور، أفكر الآن في أن أذهب لأطهو الكوسة بزيت الزيتون والزعتر.

ـ ها نحن قد وجدنا هدفًا مشتركًا.

تبعني «ليشرف على العملية» وسألني:

ـ إذا لم يصحبني أحد عند العصر لأتمشى، هل تصحبينني حضرتك؟

ـ بالتأكيد.

ـ سأريك كل الروائع في فيلَّا فابريكوتي إذا لم يكونوا قد غيروا مكان شيء في السنوات العشر الأخيرة، من دون علمي.

دقت أورورا الباب.

يبدو أن العفن في منزل حماتي قد قل، بفضل الأيام الجميلة، أو بسبب أنني اشتريت مضادًّا للعفن من الخردواتي.

إلا أنه في اللحظة التي كنت أدرس فيها بعناية منظر الجدار، أدركت وجود بطاقة على مسند الأريكة:

سأعود على العشاء.

نظرت إلى التقويم ورأيت أن الصفحة قد تغيرت، وأصبحت أوراق الشجرة في الصورة حمراء.

شهر سبتمبر على وشك الانتهاء. وبدأت ساعات النهار تقل، ولكن أخرجني البروفيسور من المنزل قبل ساعة العشاء بكثير، حتى هو لا بد أن يعتاد التغيرات.

فكرة أنني كنت جديرة بكتاب «خواطر» جلبت لي السعادة. قال أنجيلو إنه يقدم هذه الهدية لمن يعجبه، وحتى إذا كنت أخشى أن فهم باسكال هذا سيكون أصعب بكثير من اختيار الخضراوات والأسماك، فإنني أردت المحاولة.

جلست على الأريكة وقرأت بعض المعلومات عنه. كان منهمكًا في إثبات أن عظمة الإنسان تكمن في بحثه عن الله. في الواقع كان مكتوبًا:

أنا أدين على قدم المساواة سواء من يتخذون جانب مديح الإنسان أم من يذمونه، ومن يتخذون جانب تسليته، ولا أستطيع أن أوافق أولئك الذين يبحثون متألمين.

غامض كغموض البروفيسور. بالتأكيد يستخدم لغة قديمة قِدم الكتيب، ولكن لم أستطع الاستسلام.

الخطوة الأخيرة للعقل هي معرفة من لديه لا نهائية من الأشياء التي تتجاوزه [...] إذا أخضع كل شيء للعقل، فإن ديننا لن يكون به شيء غامض أو فائق للطبيعة. إذا اصطدمنا مع أسس العقل، فإن ديننا سيكون عبثيًا وسخيفًا...

أعجبني هذا، بمجرد قراءته، وبدا لي دعوة إلى الثرثرة أقل والتفكير أكثر، ولكنني قرأت الفقرة مرة أخرى لأتأكد.

في النهاية أعدتُ تغليف الكتاب تغليفًا فنيًّا، وقررت أن هذا يكفي لليوم ويزيد. حركني شعوري العملي، ولذلك لتكريم هذا التأمل أديت عملًا يدويًّا جميلًا من اللاصق على الغلاف الأثري. وفي أثناء عمل ذلك فتحت الصفحة الثانية ووجدت مكتوبًا بالرصاص في إحدى الزوايا:

انتهيت من القراءة في ١١/ ١٠/ ١٩٧٦، أوافق على كل شيء، ل.ف.

كان الخط واثقًا، مائلًا بعض الشيء.

ـ إذن؟

فزعتُ.

ـ ماذا تفعلين؟ تقرئين؟ ألم تدركي حتى أنني دخلت؟

أغلق زوجي الباب بعنف واجتهد ليخرج نصف ضحكة، ثم ألقى على الأرض حقيبة ظهر حالتها سيئة. خلفه ظهَر أتشيتو وهو يهز ذيله.

ـ إنه موعد العشاء.

مكثتُ ونظري مثبت على الكتاب.

ـ انظر ما يوجد في الثلاجة.

ـ ولكنني أبلغتك.

ـ وماذا إذن؟

ـ إذن، ماذا؟ ألم تعدي أي شيء؟

ـ أنا لست الخادمة.

عبر بوجهه عن الدهشة، تقريبًا المتألمة.

ـ هل أنتِ غبية؟

ـ إذا أردت خادمة لم يكن عليك الزواج بي، كان يكفي أن توظفني.

لم يصدق أذنيه. ذهبت لآخذ الحقيبة إلى الغرفة الصغيرة، حاليًّا سأضعها تحت الفراش. ثم عدت إلى غرفة المعيشة نحو أتشيتو ومعي اللجام:

ـ هيا، سآخذك لتتبول!

ـ ماذا؟

أغلقتُ الباب.

يطعم البروفيسور بعض طيور القرقف التي حلت محل الحمامات أو ربما أضيفت إليها، لم أعرف كيف أفسر هذه الظاهرة.

اضطررت إلى تركه في مشروعه الفريد بينما أفرغ حقائب السوق، وعندما لحق بي سألني عن أخبار الخضراوات. كنت في قمة الاستعداد:

ـ هذا الصباح ابتعت الطماطم.

ـ لحسن الحظ.

في المطبخ توجد كارثة. أعد بمفرده القهوة بخلطة سريعة الذوبان، ثم عثر على بسكويت، يكاد يطير من كمية العث بداخله.

ـ ولكن يا بروفيسور أين كانت تلك الأشياء؟

ـ في كيس أحتفظ به في مكتبي. أهدوني إياه منذ مدة بعض الطلاب أتوا ليسألوني أن أشرح لهم أشياء حول «محاورات أفلاطون»، على ما أتذكر. نظرًا إلى أنني لم أرغب في أن يدفعوا لي، قبلت بعض البسكويت.

شرحتُ بدقة:

ـ إنه قديم جدًّا إلى درجة أن العث بداخله.

ـ أجل، لقد شعرت بذلك من الصوت الذي كنت أسمعه في الكيس. لا بد أنها هناك منذ بضعة أعوام.

ـ أكثر من ذلك، لا بد أن عمرها أكبر من الفأر الأول. لا تقل لي إنك أكلت منها.

ـ امـمم، جربت، ولكنني لم أكن مقتنعًا بما أفعل.

ـ يجب ألا نقص هذا على أحد.

ـ وخاصة فالِّي، يمكنها أن تحجر عليَّ.

ـ ولكن حضرتك لا بد أن تقول لي أين تخبئ الأشياء التي يمكن أن تكون سامة.

ـ أقصى ما يمكنني عمله هو أن أطلعك على كنوزي التي لا يمكنني تقييمها.

ـ تمامًا، وإلا ستجبرني أن أدس أنفي.

واختفى.

ظهر من جديد ومعه علبة من نوع غير معروف من الحلوى وزجاجة ويسكي لم تُفتح.

فسَّر:

ـ أهدتها إليَّ أختي قبل أن تموت بعام. تُرى هل تظهر أختي في صورة المكتب أم مُحيت أيضًا من هناك؟

إذن، هي المرأة الشاحبة الواقفة بجواره على الكورنيش القديم للبحر الأزرق اللامع، التي طالما اعتقدت أنها زوجته.

ـ ما زالت تُرى.

واستنتجت أنه في المنزل لا توجد ولا حتى صورة واحدة لزوجته.

ـ تلك البضاعة واردة من أمريكا، من هناك حيث انتقلتْ. أحتفظ بها منذ خمسة عشر عامًا، ولكن أدرك أنها اللحظة المناسبة لأراجع قراراتي.

إذن، تلك الخطابات المربوطة بالمطاط منها أيضًا. كانت الأخت تأتي لتزوره من أمريكا كما قالت الجارة «الكي جي بي»، أو ربما تكتب له عشرات من الخطابات التي أخفاها أحدهم، ربما فالِّي. تحضر له هدايا

لطيفة من ذلك النوع، ويحفظها هو كالذهب. ربما جيني وتيد، من أرسلا إليه بطاقة المعايدة، هما ابنا أخته. لا يمكن أن يكون اسم الأخت جيني، فهي إيطالية.

كان يقف والبقالة في يده.

ـ أعطني إياها.

قدمها لي بلطف. وسألني بحزن:

ـ ماذا ستفعلين بها؟

ـ سأعثر على كيس جميل، وسأغلق عليها جيدًا وأضعها أعلى المكتبة، حيث لا يمكن لأحد أن يراها أو يلمسها.

استنار وجهه:

ـ أجل، شديدة البراعة، على كل حال ابنتي لا تفتش عن شيء لأنها تخشى الذكريات، وفالِّي لن تصعد على مقعد خشية من أن تخاطر بسبب الرقة الشديدة لهيكلها العظمي.

إليزا تخشى الذكريات؟ فكرت في كيس الأدوية النفسانية المعلق على شماعة الملابس.

ـ أعرف أنها علامة ضعف من جهتي التمسك بتلك الآثار في المنزل، مقاومة بلا جدوى للقدر. ولكنني الآن مسن، وأوهم نفسي بأن أتعامل مع الزمن بدفعات صغيرة التي فيها ما زلت أتمكن من الاستمتاع بالمذاق. ولكن، كما ترين، حتى المذاق لم يبقَ...

لم يكمل العبارة. وضع يده على جبهته وأضاف:

ـ من يدري إذا كان قبل الحادث فكرت زوجتي، من جديد، في بعض الكلمات التي وجهتها إليها حول عدم جدوى الاحتفاظ بما لا ينتمي إلينا.

انتظرت في سكون. كنا نقترب من موضوع خطير، والآن بدأت أعتقد أن تلك الأدوية النفسانية كانت لزوجته.

ـ من فضلك، الثالث لإبكتيتوس.

فتش في جيوبه ليعثر على كتيبه. توقفت عن تقطيع الطماطم وبحثت عن الصفحة.

ـ «لكل شيء يجذبك أو يفيدك أو يعجبك، تذكر أن تضيف لنفسك ما هو، بدءًا من أصغر الأشياء. إذا أعجبك إناء، قل لنفسك: «يعجبني إناء». وهكذا إذا كُسر، لن تنزعج. إذا...».

ـ كفى، سأفكر أنا فيما تبقى.

فتح يده ليستعيده واختفى.

ولكنني ألقيتُ نظرة على ما تبقى: «إذا احتضنت ابنك أو زوجتك، قل لنفسك: «أحضن كائنًا حيًّا». فإذا مات، لن تحزن».

تنهدت، ثم أخذت أدرس طبيعة البقع على الطاولة، واستنتجت أن البروفيسور أيضًا قد أسند إلى السطح مقلاة ساخنة.

ـ بروفيسور.

ظهر وقبعته على رأسه.

ـ ماذا أحرقت مساء أمس؟

ـ أعددت لنفسي أرزًا أبيض.

ـ ولكن خطر الإمساك بالمياه المغلية؟

ـ هل عثرت على آثار؟

ـ تقريبًا.

ـ منذ عدة أعوام، عندما تؤلمني معدتي، تملأني زوجتي بالأرز الأبيض بشكل وقائي، كما كانت تفعل أمي. فهو طبق يشبه الصحبة، صحبة الظلال. حتى إليزا ترحل وتأتي مثل طيف.

لم أجد الشجاعة للسؤال عن المزيد.

ـ إذن، سأجد طريقة ما لأترك لسيادتك بعض الأرز الأبيض الجيد، وسأحضر لك ميكروويف، عمومًا لا أستخدمه.

ـ هل يعمل؟

ـ يعمل يا بروفيسور، ويمكن التعامل معه أفضل من الفرن، ثم إنه لا يحتاج إلى أوانٍ.

ـ عظيم. والآن أخبرك أنني سأخرج إلى الشرفة، يخبرني باب الحمام أنه يوجد ضغط مرتفع، حتى مع وجود بعض الهواء.

ارتدى سترة من الصوف واختفى في الردهة. من يدري لماذا يخبرني، ربما ليتأكد أنه لا توجد أي عوائق.

في الساعة المعتادة اتصل كوستانتينو وذهبت لأرد أنا لأن البروفيسور ما زال في الشرفة. كانت له طريقة في التحدث ببطء شديد، مهيب وقديم، حتى أنني كدت أغلق الهاتف معتقدة أنها مزحة. في النهاية خرجت منه بعبارة تكاد تكون مفهومة.

قال بالتحديد:

ـ اعتقدت أنني أخطأت الرقم، نظرًا إلى أن الصوت الشاب لفتاة تَسبب لي في بعض الشك.

ـ سأمرر له الهاتف الآن.

كان حديثًا طويلًا بالفعل، وانتهى بوصول الثلاثة، أورورا، وكوستانتينو وشخص آخر يُدعى «السجين»، في الساعة المحددة للجولة الصباحية.

وعندما قدم لي البروفيسور أصدقاءه، أسهب في تعريف الأخير:

ـ إنه سجين الزوجة التي تبعًا لبعض الخطط الغامضة، تقرر أحيانًا أن تمنحه حرية مرصودة.

ـ ولكن هل هذا حقيقي أو حضرتك اخترعته؟

ـ إنها حقيقة مقدسة، مثل تلك الخاصة بلوحَي الشريعة.

ـ التي لا تصدقها حضرتك.

ـ من قال هذا؟ ولكن فيما يتعلق بصديقي العزيز «السجين»، أنا متأكد، تأكدي من واقع أن الأرض تدور حول الشمس.

ـ ولكن لماذا تتصرف زوجته بهذه الطريقة؟
ـ لأنها تعتبرني يمينيًّا خطيرًا.
لم أفهم.
ـ أجل، على كل حال، أنا لا أشاركها أفكارها. ولست مجاريًا لخطوات الزمن. حضرتك تعرفين هذا، أليس كذلك، بأنني ما زلت أحب أن أميز بين الحقيقي والمزيف، العدل والظلم، وهي أشياء لم تعد تُستخدم اليوم، تختلط دائمًا، إذا لاحظتِ. على كل حال، صديقي بالتأكيد له اسم، ولكنه اسم لا فائدة منه، لأن اسمه الفعلي هو «السجين».
سرايا مجانين.
دخلت أورورا وكوستانتينو والسجين في موكب، وأغلقوا على أنفسهم في الصالون مع البروفيسور. فيما عدا أورورا التي كانوا يرسلونها من حين إلى آخر لتتناول بعض الصحف من المكتب، بدوا أنهم كانوا يتناقشون في «مسائل أخلاقية». أو هكذا أعلنوا بجدية.
أخذت ألمع الأحذية المليئة بالأتربة وحاولت أن أسمع بعضًا من مناقشاتهم وانتهزت فرصة أن أورورا تركت الباب مفتوحًا.
يتحدثون بصوت منخفض، يتمتمون. من حين إلى آخر أسمع كوستانتينو يصوغ عبارة من عباراته، فخمة وغير مفهومة.
كان يبدو أن «السجين» يشعر بالفزع أمام بعض الصفات التي يستخدمها البروفيسور، من نوع «مرفوض»، «إجرامي»، «مُدمر»، وتغرد أورورا بمحاولات توافُق تخفق في كل مرة.
كان يوجد نوع من التشاؤم في الجو، أسئلة تتعلق بالتاريخ والحياة والموت، بالدكتاتوريات والحروب.
ـ إذن، يا لوتشانو، أنت قاضٍ لا يسامح!
ـ إنه هكذا، خاصة، مع نفسه.
ـ مع نفسي هو أمر حتمي.

صمت أربعتهم لبضع ثوانٍ، وكأنهم في انتظار أن يخمد الدخان الذي تصاعد بتلك الإجابة.

نادوني كلهم معًا:

ـ ماريا فيتوريا!

ذهبت مسرعة، قلقة.

ـ نحتاج إلى الحوارات «حول الغضب» لسينيكا، ستجدينها بالقرب من «علم الأخلاق» لسبينوزا، حضرتك تعرفين المكان.

بحق السماء، كان يجب أن أتخيل هذا.

عثرتُ عليه.

ـ هناك إذن، على الصفحة التي تهمنا، اقرئي البداية، من فضلك.

نظفت يديَّ جيدًا في المريلة:

ـ «إذا أردنا أن نكون قضاة عادلين في كل الظروف، فلا بد أن نبدأ بإقناع أنفسنا بأنه لا أحد بلا ذنب».

ـ إليكم، إليكم، استرحتم؟

ـ إذن، يكفي هذا.

أعدتُ الكتاب إلى مكانه، واستعدت الخرقة.

ـ بقول هذا يمكننا أن نتقدم مع سبينوزا. ماريا فيتوريا، من فضلك، الآن خذي «علم الأخلاق»، وإلا لن ننجح في أن نتقدم.

وضعت الكتاب الضخم بين يديه.

ـ لا، لا، اقرئي حضرتك لنا القضية رقم ١٥ من الجزء الأول.

استغرقني الأمر بعض الوقت:

ـ «كل ما يوجد إنما يوجد في الله، ولا يمكن لأي شيء أن يوجد أو يُتصور من دون الله».

وأعدتُ قراءته لأن العبارة بدت كعبارات التنافر اللساني.

ـ إذن، هذا هو الشرط الأساسي.

كان السجين يبدو مرتبكًا.

رفعت أورورا عينيها نحو السماء.

ـ الله أو الطبيعة، كما هو مفهوم.

ـ السياسة في نهاية الأمر تنبع من الانفعالات الإنسانية.

فرد البروفيسور ذراعيه.

حاولتُ أن أرحل خفية.

ـ ماريا فيتوريا!

يا إلهي.

ـ هل يمكن أن تقرئي لنا من فضلك القضية ٢٣ في الجزء الثالث؟

لم أعثر عليها على الفور، وفي الوقت نفسه عادوا إلى الجدال. أخذت أتساءل لماذا لا يقرأون تلك الأشياء بمفردهم، كما يفعلون مع الصحف.

غردت أورورا بطبيعتها النسائية العملية:

ـ المرة القادمة سأحضر نظارتي وهكذا يمكنني قراءة الحروف الصغيرة.

قيدني البروفيسور:

ـ لا، لا بد أن تعلموا أن ماريا فيتوريا متخصصة في هذا الأمر، والقراءة جزء من العقد الذي وقعناه.

بدأت أقرأ وشعرت برغبة في الضحك:

ـ «من تخيل ما يكره متأثرًا بالحزن، كان مسرورًا، وعلى العكس، فإنه يكون حزينًا إذا تخيله متأثرًا بالفرح، ويكون كل من هذين الانفعالين أعظم أو أقل كلما كان الانفعال المقابل أعظم أو أقل في الشيء المكروه». ولكن الآن يجب أن أنتهي من طهي الطماطم.

أومأ البروفيسور برضا، والسجين أيضًا.

ـ يا لها من عبارة جميلة. وكيف ستطهين الطماطم؟

سألت أورورا:

ـ في الفرن.

وتجنبت القول إن هناك أيضًا ما تبقى من الكوسة بداخلها. وذهبت لأضع الكتاب الضخم في مكانه.

ـ والطماطم أيضًا يا لوتشانو، توجد في الرب، حسب سبينوزا.

كان السجين مأخوذًا بالمفهوم.

ـ تمامًا، ولكن أيضًا القهوة.

ـ ماريا فيتوريا.

توقعتُ هذا، هذه المرة.

قال لي البروفيسور:

ـ نظرًا إلى ما قيل، نحتاج إليها بالفعل.

ـ مكث بعض الشيء فوق المعدة، سبينوزا هذا، أليس كذلك؟

ـ آه، بلى، إنه صديقي العظيم.

ـ أليس هو من وقعت عليه اللعنة، هو ومن يقدم له أي خدمة؟

ـ بلى.

ـ إذن، لن نقدم القهوة لسبينوزا!

ضحك، وضحك أيضًا كوستانتينو.

أغلقت أورورا فمها، ثم صرخت:

ـ معرفة التفكير خطيرة جدًّا!

علق البروفيسور بينه وبين نفسه:

ـ وخاصة للآخرين.

الفصل الثالث عشر

كرنب وأزواج

ـ آلو، مارفي؟

أكره الرد على التلفون وأنا في السيارة. لم تكن لديَّ سماعات، ولا التكنولوجيا الحديثة حتى لا أرفع يدَي عن المِقود. سيجب عليَّ أن أركن السيارة في أسوأ الأماكن إذا استمر الرنين إلى ما لا نهاية.

ـ أنا ماوريتزيو، ألم تجدي أنني أستحق منك إجابة؟

ـ ولكن ألم يتصل بك ألدو؟

ـ بلى، ولكنني كنت أنتظرك أنتِ.

طبعًا طبعًا.

ـ كم دفع لك لتتصل بي في السابعة والنصف صباحًا؟

لم يعثر على الكلمات، صديقه بالتأكيد.

ـ تريدان أن تعرفا ماذا أفعل، أليس كذلك؟

ـ بلى، بلى.

ـ لتخترع شيئًا أفضل يا ماوريتزيو، والأهم احترس بعض الشيء إذا كانوا في المركز الترفيهي لكاستيليونشيلُّو يحتاجون إلى عمل الحسابات بنقود الآخرين.

أغلقت الخط، كان الوقت متأخرًا ولديَّ الكثير لأفعله. أنا.

الحياة في شارع الإيبراي، منذ الصباح، أكثر إثارة من حياتي، كان بها خصائص القهوة، وبدأت أستمتع بمذاقها.

الانطباع الأول هو السكون التام، ولكن بمجرد السقوط بداخلها يرى الواحد منا حدوث بعض من كل شيء. تذكرني بالتحديد بموكا القهوة الموضوعة على النار، بعض الخليط وبعض المياه، والغاز على أدنى درجاته. ولكن بعد دقائق قليلة يُسمع الغليان، وتملأ الرائحة البيت، ثم المذاق الحاسم، لون أسود جميل بلا تنازلات، وفكرة تخرج من الفنجان. بعدها، يصبح للنهار بُعد آخر.

للأسف يمر الوقت بسرعة كبيرة وأحيانًا أجد نفسي أمام باب البروفيسور مع الشعور بأنني لم أعمل على الإطلاق.

وبينما أعود إلى المنزل في ذلك اليوم، فكرت في أن إليزا لم تتصل منذ مدة، أو على الأقل عندما أُوجَد أنا، وشعرت بالأسى. ربما حياتها تسير بسرعة شديدة للغاية، ولا وقت لديها لتتوقف لحظة لتتبادل كلمتين مع من ينتظرها على الأريكة منذ أعوام. ثم ربما الأريكة هي التي تتحرك وليس القطار.

وشعرت بغصة في حلقي.

لحسن الحظ نالت الفطيرة التي أعددتها الإعجاب، ولم يدرك البروفيسور حتى أنني وضعت خضراوات فقط، من يدري لماذا قال إنه يشعر بالداخل باللحم المقدد على طريقة قرية كولوناتا «في زمن ما». إذن، تلك الأشياء تنجح معي بشكل جيد جدًّا، وكنت أستهدفها لأُبعِد عنه شعوره بالحنين.

مررت على حي أردينزا، كان البحر هادئًا كما يحدث دائمًا قبل الخريف. يبدو وكأنه يستريح، يتمدد نحو الأفق. يسمح بالسباحة الأخيرة في الحرارة الفاترة، والشمس تُسخن الصخور بالكاد، فقط لتجعلها أكثر ترحيبًا عند الخروج من المياه.

مكثتُ ربع ساعة مستندة إلى الحاجز لأستمتع بذلك السلام قبل أن أعود إلى المنزل، وبينما أنا على وشك العودة اتصلَت، بالتحديد، إليزا.

قالت بلا أي مقدمات:

ـ ماريا فيتوريا، أحتاج إلى خدمة منك.

بادرتها:

ـ أبوك بخير.

ـ لحسن الحظ، بينما أنا أصبت بالتواء في الكاحل وربطوه لي لمدة أسبوعين. زوجي حطم السيارة، ومن ثَم لا أستطيع أن آتي إلى ليفورنو في بدايات نوفمبر. أعرف أن أبي كان يعتمد على ذلك.

ـ ألم تكن لديكما سيارتان؟

ـ بلى، ولكن تلك السليمة لا تغير السرعة أوتوماتيكيًّا، وبكاحلي...

ـ لم يقل لي أبوك إنك ستأتين. هل أصيب أحدهم؟

انتظرتُ وقتًا طويلًا قبل أن تجيب:

ـ عمومًا لديَّ التزامات أيضًا في تلك الأيام الثلاثة في نوفمبر، للأسف، كان لا بد أن أذهب إلى أبي، ولا أعتقد أننا يجب أن نخبر خالتي بذلك. هل يمكنك هذا؟ ثم سنرى كيف سأشرح لها أنا عبر الهاتف فيما بعد.

ـ بالتأكيد أستطيع. إذن، لن أقول له شيئًا.

تنهدت إليزا، مدركة في الواقع أن عليها واجبًا سخيفًا. لا بد أنه صعب جدًّا تقديم خبر محبط كهذا للبروفيسور، حتى وإن كان يتظاهر بأنه رواقي.

ـ ماريا فيتوريا، ربما يمكنك في أحد تلك الأيام أن تأخذيه ليرى بيزا؟

ـ بيزا؟

الغريب أنها استخدمت بالتحديد هذا الفعل، يرى.

ـ أجل، طلب مني هذا الأمر منذ مدة، ثم إنها مدينة جاليلاي، وهو مولع به.

ـ لماذا؟

تذكرته وهو يقلب في صفحات كتاب «رسالة فلكية» قبل أن يضعه خلف الصورة. تقريبًا يكرر تلك الحركة مع جاليلاي كل يوم.

ـ لأنه كان عالمًا حرًّا، ولكن بالأخص أصبح كفيفًا مثله، بعد أن استهلك عينيه وهو ينظر إلى النجوم بمنظاره. يبدو أن من اعتنت به هي ابنته الراهبة، مكثت بجواره حتى الموت.

سمعت ضجيجًا، كانت تنظف أنفها.

ـ اعتقدتُ أن إبكتيتوس يعجبه أو باسكال.

ـ يعجبانه، ولكنهما لم يكونا من بيزا. إبكتيتوس مرت عليه كل المصائب مثله، وباسكال لم يكن يستخدم عينيه، بل بصيرته الداخلية. إن قصة التفكير تلك هي هوايته. هل يُعلِّمك بالتلقين؟

انقطع الخط ولم تُعِد الاتصال، ولم أستطع أنا أيضًا بالحساب البائس الذي أملكه.

ابتسمت، من فكرة أنني أتعلم بالتلقين.

دخلت إلى السيارة ثم اتجهت بـ«الباندا» نحو حي أردينزا تيرًّا، وفي خلال ربع ساعة وصلت إلى المنزل، شعرت بالبرد في دخولي. ربما عاد العفن ليعمل من جديد، على الرغم من جهودي، ولكن ما العمل؟ ذهبت على الفور بحثًا عن كتاب «خواطر»، من دون حتى أن أنزع السترة والحذاء، رغبت في أن أتأكد أن أحدًا لم يلمسه.

لم تكن هناك نفس حية، ولا حتى أتشيتو. لا يوجد صحنه ولا لجامه. غريبة. خرجت لأرى إذا كان منزله موجودًا، إلا أنني لم أرَه. نوافذ الطابق العلوي مغلقة، والسيارة ذات الدفع الرباعي لم تكن موجودة في الممر، ولم تنتظرني أي أشياء لأغسلها. هكذا التجأت إلى كتاب باسكال وعثرت على عبارة مكتوبة بالرصاص، وكانت رائعة فنيًّا:

ما يمكن أن تكون فضيلة الرجل لا تُقاس بمجهوداته، ولكن بعاداته.

وبجوار تلك الجوهرة المطبوعة:

ما يمكن أن تكونه فضيلة الرجل لا يمكن قياسه بمجهوداته، ولكن بتصرفاته المعتادة.

جذب انتباهي صخب محرك في الجوار. يبدو أنه لشاحنة واشتممت رائحة الجازولين التي تدخل الأنف، حتى مع النوافذ المغلقة. سيارة ضخمة لم أرَها من قبل.

اقتربتُ من النافذة ووجدت زوجي خلف المقود، وأمه بجواره تبكي. بمجرد أن أغلق المحرك انطلقتْ إلى الخارج على الفور.

ـ أنت وَحْش، وحش!

ـ هيا، كان مزعجًا، كم من البشر يجب عليَّ أن أعولهم في رأيك؟

ـ وتلك هناك، واحدة تعول نفسها؟

ـ لكن ماذا أعرف أنا عن تلك هناك!

ـ أليست زوجتك أم ماذا؟ لماذا لم تطردها هي بعيدًا؟

كانا يصرخان كالمجانين، في ذلك الوقت خرجتُ، ولكنهما لم يرياني. بل أطلت أيضًا الجارة من البيت المقابل لتشتكي:

ـ الآن، حين لم يعد الكلب ينبح تبدئين أنتِ؟

وهكذا تأكدتُ من أسوأ شكوكي. أتشيتو.

صرختُ فيه:

ـ هل جننت؟ أين هو الآن؟

ـ في النادي الشراعي، هكذا يسبح.

لم يكن ينظر إليَّ، كان يعرف أنه تخطى الحد.

ـ كان بارولو قديسًا!

أنَّت حماتي.

عدتُ إلى الداخل حتى لا أضع يدي عليه.

فتحتُ الثلاجة وأخذت قطعة من الجبن ووضعت بعض البطاطس القديمة لأسلقها، في هذا المنزل البطاطس هي الشيء الوحيد الذي لا يفسد.

شعرتُ بشيء من التنميل. ولكن بالأخص، شعرتُ بأنني أفتقد أتشيتو.

كان البروفيسور يكرر كل يوم أن الخريف في نهايته و«أصبحت له العادة السيئة لأن يكون مجرد ناقل للرطوبة وممتلئًا بالمحاولات الفاشلة لاستعادة بعض ذكريات الصيف». وهكذا حاول أن يشعل المدفأة، ولكنه كان يخشى الاستهلاك الزائد للغاز، عندئذٍ جعلني أفرغ كل ما في الخزانات بحثًا عن التيشيرتات والكنزات التي يتحسس ملمسها، قبل أن يرتديها الواحد فوق الآخر «هكذا يمكن التدفئة بسد الثغرات».

قال:

ـ لا بد أن هذا قاتم، وهذا أحمر.

كان تخمينه صحيحًا دائمًا.

استغرقتني محاولة ترتيب الملابس وقتًا طويلًا تبعًا لمعاييره، التي تتغير يومًا بعد يوم، وأيضًا ذلك العصر طار حتى سمعنا صوت الجرس الداخلي.

سأل البروفيسور:

ـ ولكن كم الساعة؟

ـ السادسة تقريبًا.

الاستماع إلى الحكايات الفنية للبروفيسور حول المغامرات التي قامت بها كل من قمصانه سلتني جدًّا ولم تكن لديَّ رغبة في الرحيل.

ـ الساعة السادسة والنصف؟ تأخر الوقت يا ماريا فيتوريا.

وانطلق بثقة نحو الجرس الداخلي. لم يعثر عليه على الفور، ربما كان ذهنيًّا غارقًا في مرعى الدولميني، حيث أكلت بقرة محفظته وهو يتمدد وسط الزهور.

ـ ماريا فيتوريا، أحد طلبتي السابقين الذي يعمل في مجال الفيزياء الفلكية، هل لدينا ما نقدمه إليه؟

فتح الباب من دون أن ينتظر ردي. تركت الكنزات فوق الفراش وذهبت لأضيء المصابيح القليلة الموجودة.

بعد ذلك بقليل وصل شخص ذو نظرة نشيطة مثل نظرة أنجيلو، ومعه حقيبة، ربما ممتلئة بأوراق العمل وليس بالأعشاب البحرية، ولم يشعر بأي اندهاش من أن يجد نفسه أمام البروفيسور المتدثر بشرنقة من الكنزات، والغائص في الظلام التام.

ـ حسنًا يا مانيكالي، استرِح على مقعدي، نظرًا إلى أننا لا بد أن نتحدث عن «رسالة فلكية». بل، انظر، لا بد أن تكون لديَّ نسخة هنا حيث توجد صورة ما.

عثر مانيكالي على الكتاب على الفور. كان يتحرك كأنه في بيته، بل لاحظت أنه يتحرك بطريقة منتظمة، كما نرى في أفلام الرسوم المتحركة الخاصة بالكواكب التي تدور حول الشمس.

ـ أقدم لك ماريا فيتوريا. إذا احتجنا إلى شيء سنطلبه منها.

أشعرني بأنني سيدة المنزل.

ـ مانيكالي كان تلميذي المنتبه جدًّا الذي جمع تحدي الأسئلة الفلسفية العظيمة، والآن يبحث عن الإجابات التي تهمني إلى أقصى حد. وخاصة الآن.

سألت نفسي: ولماذا الآن بصفة خاصة، ولكن ربما بينما أطوي الكنزات الأخيرة سأكتشف بمفردي. تركا الباب مفتوحًا، لم تكن لديهما أسرار.

قال مانيكالي هذا:

ـ اليوم بارد بعض الشيء يا بروفيسور؟

ـ ارتدِ معطفك، أو ربما أعطيك كنزة صوفية من كنزاتي.

ـ يمكن أن تشتم رائحة النفتالين من عتبة السلم.

في الواقع كانت رائحة الخزانة وكأنها علبة نعناع فاسدة.

ـ يا له من صوت عميق. لم يكن صوتك هكذا.

ـ أنا مصاب ببرد.

ـ حفيدتاي أيضًا لا تتغطيان أبدًا كما ينبغي لهما.

شعرتُ بالشفقة عند سماع تلك الملحوظة. كان ينتظرهما بشوق.

ـ كان الجو باردًا في مركز الكواكب، مثل الحال هنا تقريبًا.

لم يخجل مانيكالي في أن يقول له هكذا مباشرة.

ـ ماريا فيتوريا، تلزمنا قهوة من فضلك.

ـ بالنسبة إليَّ أُفضل البابونج.

ذهبت إلى المطبخ، ولكن قبل ذلك أشعلت المدفأة، كان مانيكالي على حق بالفعل.

ـ إذن، اشرح لي بماذا يتعلق حقل هيجز هذا. يبدو لي أنه يتعلق بأصل المادة.

ـ أجل، ربما يمكن أن يساعد هذا الاكتشاف سيادتك على حل معضلاتك حول نشأة الكون.

ـ نتمنى هذا.

ـ ولكن الطريق متصاعد، وسيكون البحث طويلًا.

ـ تقصد أنه أطول من حياتي؟ ولكن لم يبقَ سوى القليل.

عدت لأحاول التعامل مع النفتالين، يكاد ينتزع الهواء.

ـ ماذا عن صديقك الفيزيائي في جنيف؟

مد يده على رأسه وكأنه يعرق. ولكن هل هذا ممكن في ذلك البرد؟

ـ أجل، يعملون في جنيف بدأب شديد واقتربوا جدًّا من إجابة مبدئية.

عاد مانيكالي لينظف أنفه، وبمجرد أن خرج من خلف المنديل أكَّد:

ـ أتعرف؟ توجد نقاشات حول فرضية أولية.

ـ بالنسبة إليَّ تكفيني فرضية أولية علمية، أُفضل ألا أكتفي برهان باسكال في هذه الحالة، على الرغم من أنه شديد الوضوح.

اعتقدت أنني خبيرة بباسكال بالفعل، ولكن هذا الرهان لم أعثر عليه بعد.

ـ ما رأيك يا مانيكالي، هل ترغب في أن تقرأ لي شيئًا؟

تحدث وهو يمد الكلمات وكأنه يبذل جهدًا، وذهبت لأرفع الثرموستات بعض الشيء. ربما في المساء أصابت البروفيسور وعكة ما لم أعرف عنها، ربما حل عليه التعب الآن، أو ثقلت عليه أمراضه.

ـ هل أقرأ من كتاب «رسالة فلكية»؟

ـ عبارة تناسبنا نحن الاثنين، تلك الموجودة في التعليق على اليوميات الفلكية.

بعد صمت طويل، سمعت الصوت المزكوم، ولكن الواثق، لمانيكالي:

> كان عملًا كريمًا وممدوحًا العثور بواسطة سهره، والدراسات والعرق، مرة أخرى على شيء مدهش وجديد بين العوالم اللانهائية الغامضة في الهاوية العميقة للفلسفة، وهو الأمر الذي يهدد الحياة الكسولة والساكنة، المجتهدة فقط في محاولة التعتيم على الاختراعات التي اقتضت جهدًا للقريب، لتبرير الجبن الشخصي وعدم دقة اكتشافاتهم، من خلال الإعلان عن أن ما تم العثور عليه لا يمكن أن يُضاف إليه أي شيء جديد.

ـ إليك، هل رأيت، جاليلاي لا يتعب وأمين. ولكنه أيضًا تهكميٌّ بعض الشيء، كما يناسب بعض العباقرة لدينا. كان لديه مائة سبب بالفعل.

مكثت على عتبة المكتب ممسكة بالبابونج والقهوة، وأنا أسأل نفسي ما إذا كان البروفيسور يحتاج إلى شيء آخر بالإضافة إلى القهوة. كان منهِكًا بالنسبة إليه مجاراة إيقاع الأشياء الجديدة والتركيز بهذه الطريقة. يسند رأسه ويغلق عينيه، وكان شاحبًا. سألت نفسي: ما الذي يجعله يفعل شيئًا كهذا؟ ولكنه عليه أن «يجد حلًّا».

ـ أجل، هذه دعوة إلى البحث بشغف.

ـ بالفعل، فهذا جزء من مفهوم الوراثة.

يا إلهي، هذا إعداد لأمسية مشحونة جدًّا، وأخشى أنه في النهاية لن يصمد. ولكن ربما تلك هي الأشياء التي تبقيه حيًّا.

أتى ليغلق الباب، قال:
ـ الهواء يزداد برودة.
سألته، قبل أن يغلقه بالكامل:
ـ هل تحتاجان إلى أي شيء آخر؟
لكنه لم يُجب. كان مستغرقًا أكثر مما يجب.
ومن الباب يتسلل النور خفيفًا ومُغبشًا، وتُصفِّر الرياح بهدوء بين الأبواب والنوافذ، وهناك فوق تعبر النجوم النوافذ وهي تزداد لمعانًا. فقط بعد ساعتين خرجا وهما مدهوشان من «هروب الوقت».
ـ إذن، أشد على يدك وأنا بالفعل سعيد أنك عدت لزيارتي.
ـ كنا نحتاج إلى تلك الدردشة الجميلة. ربما أحضر معي أيضًا فيريري، هل تتذكره؟
ـ بالتأكيد أتذكره، أتذكركم جميعًا.
ـ يعيش الآن في بيزا.
ـ جميل، قريبًا سأذهب في جولة جميلة مع ابنتي هناك، هكذا نتفقد مصباح جاليلاي الشهير.
انقبض قلبي.
ـ ولكن حضرتك ما زلت تكتب ملحوظاتك؟
ـ غير مقروءة.
ـ يا للأسف.
ـ أسمع جيدًا.
اختتم البروفيسور:
ـ لم يكتب سقراط أي شيء، ولكن أفلاطون ذهب إلى المدرسة لدى سقراط وتولى هذه المهمة، إذن بمعنى ما يمكن أن أعده شرفًا لي إذا كتبت أنت، كما كنت تفعل في المدرسة.
ثم ابتسم بجهد، لمستُ يده بينما مررتُ لمانيكالي كوفيته، كانت يده مثلجة.

أضاف جادًّا:

ـ لذلك ترك سقراط ميراثًا.

عندما رحل الضيف، أدرك البروفيسور أن الوقت تأخر جدًّا على موعدي المعتاد.

قال الصوت الإلكتروني للساعة الناطقة:

ـ الساعة الثامنة وأربعون دقيقة.

ـ إذن، يا ماريا فيتوريا، في هذه الساعة يكفي فقط بعض اللبن.

ـ إذا أردت يمكنني إعداد شيء جيد. ماذا تحب؟

ـ بعض الأرز، أو ربما عصيدة، ثم سأدفع لكِ الوقت الإضافي.

استعاد بعض الطاقة عندما شعر بأن عشاءه سيُعتنى به.

ـ فعلتِ خيرًا أن أشعلتِ المدفأة.

ـ لم يحتجِ الأمر إلى أي جهد.

ابتسم، كان يبدو راضيًا عن شيء ما. أكل كل العصيدة، لأنه أراد أن «يكرم الأمسية».

خفضتُ درجة الحرارة قبل أن أخرج ولم أطفئها، خشيت أن يكون مانيكالي قد نقل إليه دور البرد. بالنسبة إليَّ، كنت لأمكث معه بكل سرور، ففي المنزل لن أعثر حتى على أتشيتو في انتظاري.

إلا أنني لم أعثر على كتاب باسكال في مكانه، وهو الشيء الذي لم يعجبني على الإطلاق. ذهبت لأبحث في الغرفة. كانت أشيائي مبعثرة، وكأن هناك من يبحث عن شيء ما بغضب. فقط شخص واحد يمكنه أن يكون قد فعل شيئًا كهذا، لحسن الحظ كنت متوقعة، والجزء الأكبر من الراتب أتركه في المطبخ لدى البروفيسور، في الآلة المصدأة لعمل مكرونة «التالياتيلِّه».

رأيت داخل السلطانية إيصالًا من مونتي داي بيني، مكتوبًا عليه:

سلسلة ذهبية بدلاية من الياقوت وزنها ٢٠,٠٠

تلك التي أهداها إليَّ أعمامي في عامي الثامن عشر. لم أكن أرتديها خوفًا من أن أفقد الحجر الثمين. أحببت تلك السلسلة، والآن «حرمني» منها، مع كل شيء آخر. سمعت صوت شيء يسقط أرضًا ويتفتت في الطابق العلوي: ربما الحصالة التي تحتفظ فيها حماتي بشلن ذهبي.

الوقت يضيق، قلت لنفسي بينما أعد بيضة، وأيضًا الوقت من ذهب، أكثر من السلسلة. كانت البيضة المقلية الأشهى التي طهوتها على الإطلاق. بعين صفراء ومستديرة وكأنها شلن صغير.

لا تأخذ الرياح البحر الهائج معها إلى الخلف دائمًا، ولكن هذه المرة حدث هذا، انتقلنا من الرياح الشمالية إلى الرياح الجنوبية الغربية وارتفعت درجة الحرارة. عرفت من الشاطئ أن المنظر رائع في عرض البحر فقط، لأنهم في السوق لم يتحدثوا عن شيء آخر.

- هيا، حدثني قليلًا كيف كان البحر هذا الصباح؟

- لا بد أن تري بنفسك.

- جميل، كانت هناك موجة متكسرة كبيرة جدًّا بين جزيرتي ساردنيا وكورسيكا يمكن العبور منها.

- انظر بعض الشيء إلى سمكتي «الماكريل» هناك، لقد وصلت وحدها مع الموجة، يكفي أن نفتح النافذة.

أجل، لم يكن الجو باردًا، والملح في كل مكان، أيضًا في صناديق تفاح «الترنتيون» اللامع وكأنه العصا السحرية.

تكاد الطاولات الرخامية الضخمة لصالة السمك تكون فارغة، تسيل المياه بفرح في نهيرات على البلاطات وعلى الأرضية المستهلكة، تشحن الرياح الجميع بالطاقة كما تفعل منذ الأزل. وخاصة في ليفورنو.

لم أفهم قَطُّ كيف تستطيع الرياح الجنوبية الغربية أن تعبر هكذا فجأة من

الأفق مباشرة نحو النخاع، مُغيرة تمامًا الأفكار والأمزجة. تتخلل المناخر أبخرة رغاوي البحر، وتمتلئ العيون بالرياح من دون أن تحرق على الإطلاق، وتعمل دفعات اليود على تطاير المزاج السيئ وكأنها ريشة نورس.

هذه المرة غامرت بشراء الكرنب، ولكن بكثير من الشكوك حول رد الفعل الذي يمكن أن أتسبب فيه.

قال بائع الخضراوات، وهو يمد نفسه على الطاولة ويضع المرفوض على صندوق الشمار:

ـ هيا، خذي تلك المستديرة، بهذه يمكنك أن تلعبي كرة القدم.

أخذت أيضًا بعض الجزر للحساء وبعض البرتقال، لعلي أعد للبروفيسور بعض العصير.

ابتعت عددًا من الأشياء، وضعت الحقائب في «الباندا»، وحان دوري لأنظر أنا أيضًا إلى أسفل لأفهم ما كل تلك الفوضى القادمة من القناة. لم أكن الوحيدة، لن يصاب أحد بالدهشة إذا اختُرع شيء آخر غبي مثل رؤوس موديلياني(*). كان هناك حراس، وغطاسون، وشخص يصرخ:

ـ هناك بعض الشيء، اذهب إلى هناك، انتظر كدنا نصل.

وبدا لي أنني لمحت، ضمن مجموعة صغيرة تبحر على زورق بمحرك، شخصًا يشبه أنجيلو في كل شيء، ولكن في نسخة متدثرة. ربما كنت مخطئة، فأنا أراه أيضًا حيث لا يوجد، إلا أنني قفزت، فقد كان مكتوبًا على الزورق من الجانب: «مؤسسة توسكانا الإقليمية للحماية البيئية»، إذن كان هو.

دققت النظر. إن كان هو، فهو لا ينظر تجاهي.

(*) في قناة ليفورنو، اكتُشفت عام ١٩٨٦ رؤوس منحوتة، نُسبت إلى الفنان المعروف موديلياني، الذي مات في باريس عام ١٩٢٠، ولكن الحقيقة أنها لم تكن سوى مزحة أداها نحات يُدعى «أنجيلو فروليا» ومعه مجموعة من الأصدقاء، ونُسبت الرؤوس بالفعل إلى موديلياني وصدَّق على ذلك عديد من النقاد الفنيين المعروفين والخبراء، حتى أعلن النحاتون الفعليون الحقيقة، واعترفوا بالخدعة. (المترجمة).

سألت واحدة بدا لي أنها تقف هناك منذ مدة:

ـ ماذا حدث؟

ـ حسنًا، يقولون إنها سمكة قرش.

ـ سمكة قرش؟

أضافت:

ـ في رأيي هذا ليس حقيقيًّا، يريدون فقط أن يظهروا أنهم يفعلون شيئًا لأنه لا شيء يحدث على الإطلاق.

ـ من؟

ـ كيف من؟ البلدية، إلا إذا أرادوا أن يرسلوا سمكة قرش إلى مكتب الدخول الذي يقع هناك في الخلف.

دققتُ النظر إلى المجموعة التي تحركت نحو المنصة العائمة. إذا كان ذلك الذي يسير في الوسط هو أنجيلو، إذن لا بد أن يكون أكثر حذرًا من المعاونين.

تابعت تلك:

ـ أحضروا أيضًا الخبراء من بيزا، هناك، انظري أولئك الذين يطفون من هناك على قدم واحدة؟ أجل، أولئك.

استمررت في التحديق إليه، شيء ما يقول لي إنه لا بد أن يكون هو، كنت منجذبة بشدة إلى ذلك الرجل الصغير المتدثر والمأخوذ بنوع من الرافعات. حاولت أن أتخيله وهو يسبح أسفل صخور الكلافوريا، من دون كل تلك المعدات.

وبينما أهم بالرحيل، قالت تلك:

ـ هل تريدين أن تتذوقي خبز «سكياتشاتا»؟ هناك مكان جديد يعده جيدًا.

وأخرجت من كيسها قطعة خبز جميلة وكبيرة وأعطتها لي، كان شهيًّا بالفعل.

ـ هل تعطيني برتقالة؟

واخترتُ لها واحدة بورقتها.

ركبتُ السيارة وذهبت سريعًا إلى البروفيسور قبل أن تهجم عليَّ الرياح الجنوبية الغربية لميدان كافالوتي.

ما زلت أفكر مرة أخرى: أفعلتُ خيرًا أم لا بأنني لم ألفت نظر أنجيلو إلى وجودي؟ عندما فتحتُ الباب وجدت نفسي أمام الجارة التي على غير العادة، كانت منفوشة الشعر وترتدي الخف. امرأة جميلة في نحو الخمسين، كثيرة الشعر المجعد القاتم، متزينة وجذابة غالبًا، ولكنها شديدة الشحوب في تلك اللحظة وتبدو قلقة بوضوح، بلا قرط ولا أحمر شفاه.

قالت لي:

ـ آه، لحسن الحظ أن وصلتِ حضرتك، لا بد أن نفعل شيئًا ما، أرجوك.

كان البروفيسور يقف، وهو يمسك بجبهته في مظهر من مظاهر التأمل العميق. كان يبدو لي كتمثال مشهور رأيته في مكان ما، وقلت له هذا.

ـ ربما تمثال «المفكر» لرودان. هذا ما كانت تقوله لي أحيانًا زوجتي أيضًا.

غريب أنه ذكر زوجته، ربما الموقف المتوتر يُذكره بها.

سألت:

ـ ولكن هل كل شيء على ما يرام؟

صاحت الجارة ويداها في شعرها:

ـ لا، لا!

وأضافت:

ـ لا شيء على ما يرام، هرب قِطي!

حاول البروفيسور أن يقدمها بعناية، ولكنه لم يستطع، فهمت فقط أنها السيدة فافيلَّا، تحب القطط ويائسة.

ـ أبحث عن أرتورو، وهو يقول إنه لا يمكن أن يكون قد أتى إلى شرفته.

حدد البروفيسور:

ـ لم أقل إن هذا مستحيل، قلت فقط إنني أستبعد ذلك لأنني كنت سأسمع مواءه، إلا أنني أسمع تغريد العصافير، وهو الدليل الملموس على عدم وجود قِط.

واستمر النقاش.

ذهبت إلى الصالون لأفتش، وهكذا على الأقل ترتاح السيدة. ولكن ليصل القط إلى هنا لا بد أن يكون قد طار، في رأيي.

بادرني البروفيسور:

ـ إلا أننا لدينا مشكلة، المصراع الأسطواني معطل.

استطعت أن أفتح الشرائح بعض الشيء، وهكذا أتمكن من النظر إلى الخارج.

ـ يحب أرتورو أن يقفز عاليًا، ربما عبر من شرفتي إلى السطح، ثم من السطح إلى شرفتكم. في المدة الأخيرة يهرب بينما أتحدث في الهاتف. يشعر بالإهمال.

كانت عينا السيدة فافيلّا تلمعان. بينما أفكر في أن الحيوان الصغير إذا سقط من الطابق السادس فسيكون الأمر معروفًا، فتلك «الكي جي بي» تنقل الأخبار بسرعة.

كانت الرياح تعوي. حاولت أن أهدئ الجارة وصحبتها إلى الباب.

عندما مكثنا بمفردنا أخذتُ الكرنب إلى البروفيسور ليبدي فيه رأيه.

قال وهو يُديره بحرص. وهي الصيغة التي يستخدمها دائمًا للخضراوات التي لا يستسيغها. لم يقل أي شيء عن البطاطس:

ـ هذا أيضًا لا بد أن يكون نتاج هندسة وراثية.

ثم أضاف:

ـ رائحته بشعة.

أخذت الكرنب من يد البروفيسور الذي أداره وكأنه قنبلة مشتعلة الفتيل، ووضعته في آنية طهي.

ـ متى سيبدأ في الغليان؟
ـ لم أشعل النار حتى، إذا أردت سأخبرك وقتها.
ـ سيكون هذا أفضل.
ولكنه لحظتها لم يشرح لي السبب.
ابتعد، وهو يقول إنه سيذهب لـ«يصغي» لوجود القط.
صِحت أسأله:
ـ مثلما يفعل الطبيب مع الرئتين؟
ـ تمامًا.
سمعتُ الحركة في الصالون وذهبت لأرى: كان راكعًا على ركبتيه بالقرب من المصراع المُسدل.
ـ مسألة بسيطة، وستتضح، مثل كل شيء.
ـ وكيف تتأكد، سيادتك، من هذا؟
ـ قولي لي حضرتك ماذا تفعل الكائنات الحية عندما تستشعر شيئًا غريبًا أو غير معتاد؟
ـ حسنًا، تدور حول نفسها، وتشعر بالفضول.
ـ بالضبط.
نهض من جديد، وذهب ليبحث عن مذياعه الصغير في المكتب.
عدت إلى المطبخ، وأنا أفكر في ذلك الذي قاله للتوِّ. بالفعل، هو على حق. فالقطط لديها الحاسة السادسة، إذن كان واثقًا بأن أرتورو إن عاجلًا أم آجلًا سيأتي ليستكشف.
أخبرته:
ـ بعد قليل سيبدأ الكرنب في الغليان.
ـ يا للأسف. الكرنب كارثة مُحتملة.
واختفى.
عاد بكتاب، وخفضتُ الغاز إلى أدنى حد.

ـ هناك أشياء تخضع لبعض المتغيرات طبقًا للظروف.
وتصفح الأوراق.
ـ لا بد أن أستحضر جيدًا هذه الخاصية. تخيلي أن إليزا عندما تضع الكرنب لتسلقه، تغلق الباب لأن رائحته سيئة، ثم لا تقول لي، ومرة كادت تشعل حريقًا في المنزل لأنها نسيت أنها تركته على البوتاجاز. مثلما يحدث مع الزوج.
ـ مع الزوج؟
ـ حسنًا، الكرنب يمكن أن ننساه ليغلي وتُفسد رائحته المنزل، والزوج يمكنه أن يُفسد البيت برائحته من دون أن يغلي.
واتخذ وضع التمثال والكتاب على ركبتيه ثم أضاف:
ـ أحتاج إلى أن أقرأ في الأشياء الصغيرة حقائق كونية. ولكن يلزمني تعاونك.
وضع أمامي الكتاب، بوضوح. قرأت العنوان: «ميتافيزيقا».
ـ ابحثي في الكتاب التاسع.
كانت عملية صعبة، ولكن نجحت فيها:
ـ «إن الفعل هو وجود الشيء، ولكن ليس بالمعنى الذي نقول إنه مُحتمل».
أيتها السماء المقدسة!
ـ ثم...
ـ «ولكننا نقول الحركة هي الطريقة الأخرى لوجود الشيء».
ـ هل تقرئين لي هنا، من فضلك؟
ـ «لا داعي للبحث عن تعريفات لكل شيء، ولكن لا بد من الاكتفاء بفهم تلقائي لأشياء معينة من خلال القياس. والفعل يكمن في الإمكانية، على سبيل المثال فعل البناء فيمن هو قادر على البناء، والاستيقاظ في النائم، والرؤية لمن عيناه مغمضتان ولكنه يتمتع بالنظر، وما يُستخلص من المادة يعود إلى المادة نفسها»...

ـ تمامًا. إذن، فالكارثة هي فعل ممكن لزوج شديد السوء. اتركي بضعة أسطر.

اعتقدته يمزح، ولكنه كان جادًّا بشدة.

ـ «لا نقول إن كل الأشياء تتحرك بالطريقة نفسها، ولكن فقط من خلال القياس».

استنتج البروفيسور:

ـ ها هو. ثمرة الكرنب هي الأنسب للقياس.

قال متذمرًا:

ـ إذن، قبل أن ينطلق «في حركة» الغليان، تذكري أن تخبريني، وربما أن تغلقي باب المطبخ وتفتحي النافذة، ولكن مع بعض الملح واستخدام الساعة. أعطيني أرسطو.

ابتعد، وأغلقت القدر. لو عرفت كل هذا لابتعت السبانخ.

عثرت عليه في المكتب يجفف جبهته بمنديل.

ـ أحضرت إلى حضرتك القهوة.

استنار وجهه:

ـ رائع!

ـ الأدوية التي وضعتها على الطاولة هل تناولتها؟

ـ بالتأكيد، لست مغبيًا. باسكال يقول لي: «العقل يقودنا بشكل أكثر تجبرًا من سيد، لأننا بعصيان ذلك نتعس، وبعصيان الآخر نكون أغبياء».

عندئذٍ وضع الفنجان على شفتيه بحرص حتى لا يلسع نفسه، وقال في هدوء:

ـ ماريا فيتوريا، كما تخيلت، أسمع مواء من هناك في الصالون.

الفصل الرابع عشر

جنون السماء

من منزل البروفيسور رأينا جيدًا جنون السماء، أكثر من منزلي. نزلت الرياح الجنوبية الغربية فجأة، ومن الجنوب الشرقي تصاعدت سحابة ضخمة سوداء. وفي ساعة الغروب يمكن بوضوح تمييز الحافة الرمادية المحاطة بلون أزرق شاحب ذهبي بعض الشيء. كل تلك الدقة في الألوان التي تعلمتها من البروفيسور، حيث يعبِّر عن افتراضاته ووصفه بأن يفتح الزجاج ويمد يده فيما وراء الدرابزين، وكأنه يلمس مكونات الضوء مع رطوبة الهواء.

في البداية كنت أُدهش، أما الآن فلم أعد أفعل ذلك. من جهة أخرى، حتى العصافير التي تصل هي دائمًا جديدة، فباب الحمام يقدم توقعات الطقس أكثر تفصيلًا في كل مرة، والطعام المخبأ يبرز كعش الغراب. اكتشفت أيضًا في المكتب خزينًا فعليًّا لنسخ باسكال.

في العصر، وبينما أغسل على يديَّ كنزة صوفية مبقعة، ربما بالقهوة، رن الهاتف القديم طويلًا، ولكن البروفيسور لم يذهب ليرد.

رفعت السماعة بقفازي المطاط المبلل.

ـ لوتشانو، نعم؟

هكذا سأل صوت ضعيف لامرأة، بالإنجليزية، بينما أجفف السماعة بالمريلة.

لحسن الحظ رأيت البروفيسور، ظهر فقط بعد استعداده المتقن بالمعطف والكوفية والقبعة.

ـ أسمع أحدهم يتحدث بالإنجليزية، على ما يبدو.

أمسك السماعة بسرعة بيديه وكأنها سمكة حية تكاد تتزحلق بعيدًا، وانطلق في سلسلة من الكلمات الإنجليزية المتقطعة، غير المفهومة، تتداخل معها من حين إلى آخر بعض الكلمات الإيطالية، «حقًّا!»، ومن يدري كيف تُترجَم من الجهة الأخرى للخط؟ بدا لي منفعلًا بشدة، وشديد التركيز، وكأنه لا يريد أن يفقد ولا نفسًا واحدًا من تلك المكالمة غير المعتادة. وعند لحظة ما جلس على «الأفنتينو» وتوقف تقريبًا عن التنفس. وبالفعل، شعرت أنا أيضًا بذلك، ذلك الصوت الآتي من عمق المحيط يتطلب صمتًا تامًّا.

أغلقتُ صنبور المياه ومكثتُ بلا حركة. لم تَطل المكالمة، استمرت أقل من عشر دقائق، تحدث فيها البروفيسور قليلًا جدًّا، وفي النهاية، وبعد سلسلة من كلمات الوداع، بعضها بالإنجليزية، «أحضان، أجل، شكرًا، مم، قبلات، أجل، قبلات»، مكث والسماعة في يده. حاليًّا يمسكها وكأنها فوطة ورقية متسخة: شيء لا فائدة منه الآن لا بد أن يتخلص منه إلى الأبد.

ربما استقبل خبرًا سيئًا، لأنه بدا متعبًا، وكأن عشرات السنوات سقطت فوقه في بضع دقائق. كنت متأكدة من أنني أعرف القليل جدًّا عنه لأتخيل المخاطر الأخرى التي تحيط به، بالإضافة إلى الظلام والمرض.

نهض ببطء، بحث بيده اليسرى عن مكان الهاتف ليضع السماعة بيده اليمنى، ثم عاد على «الأفنتينو» وأخرج من جيبه الساعة الناطقة.

قال ببطء:

ـ لا بد أن أعدَّ هذه الساعة مصدر شؤم.

ـ كيف حالك يا بروفيسور؟

حاولتُ أن أُدخل نفسي في أفكاره، ولكن بدا صوتي غير محبب حتى إلى أذنَي.

ـ بخير، كل شيء يحدث بنظام. هل يمكن فيما بعد هذا المساء، إذا لم يكن متأخرًا، أن تصحبيني إلى كنيسة؟

ـ أي كنيسة؟

ـ أجل، يجب أن أضع شمعة ثم بعد ذلك ربما تعرفين حضرتك صلاة مناسبة.

مناسبة لماذا، لم يشرح لي، ولكن الطلب كان غريبًا فعلًا. إذا قرر شخص لم يذهب قَطُّ إلى الكنيسة أن يذهب ليضع شمعة، معناه أن لديه دافعًا جللًا.

ظل مأخوذًا، ربما يعاني المجهود الذي بذله ليندفع إلى مكان آخر، حيث يتحدثون لغة أخرى، وحيث لا توجد الرياح الجنوبية الغربية، ولا توجد صحفه ولا كتبه، وحيث لا توجد خواطر باسكال، ومصباح جاليلاي، وإبكتيتوس وأولئك الآخرون.

ـ بروفيسور.

قال:

ـ نعم، هل تقرئين لي شيئًا ما؟

كان الهواء ثقيلًا.

ـ بكل سرور. ماذا؟

ـ لديَّ نسخة أخرى من «خواطر» باسكال على الرف الثاني إلى اليسار، كتيب أزرق لنسخة أحدث، بداخلها، وفي الصفحات المائة الأولى يوجد الرهان، ربما حضرتك تعرفينه.

ـ لا، ليس بعد.

عثرت فورًا على الكتيب، وأدركت أن أحدهم قد تركه في وضع أفقي فوق الكتب الأخرى، ربما كعلامة، وبه صفحة مثنية الطرف.

ـ هناك عبارة تبدأ بكلمة «نعتقد:...».

ـ في الحقيقة كانت في الصفحة الثانية من خاطرة طويلة جدًّا، وأيضًا مخطط تحتها بالقلم الرصاص.

ـ «فلنحسب وزن الخسارة والربح، إذا راهنتم على وجود الله».
قرأت:
ـ «فلنقيِّم الحالتين: إذا ربحتم فستربحون كل شيء، وإذا خسرتم، فلن تخسروا شيئًا. راهنوا إذن على وجوده، بلا تردد».
صمتُّ ونظرتُ إليه.
ـ أجل، أعلم، لا يهم ما يلي...
ثم أخرج من جيبه كتيب إبكتيتوس وطلب مني أن أقرأ له العلاج ٣١. قال هذا بالضبط: «العلاج».
ـ «أما بخصوص التقوى تجاه الآلهة، فلتعلم أن هذا هو رأس الأمر: أن تتصورهم على النحو الصحيح، بوصفهم موجودين ويُديرون الأشياء على أقوم نحو وأعدله، وأن تعقد عزمك على هذا، أن تطيعهم وتمتثل لإرادتهم في كل شيء يحدث، وتتبعهم طائعًا في كل ما يجري بوصفه من تصريف الحكمة العليا؛ فبذلك لن تلوم الآلهة أبدًا ولن تتهمها بالتقصير».
أراد أن أعيد إليه الكتيب على الفور، وقام بحركته المعتادة ليتأكد من وجود كل الصفحات، قبل أن يضعه في جيبه.
بالنسبة إليَّ بدا أن النور ازداد بعض الشيء، وكأنه خرج قليلًا من الورقة. على كل حال، أجد من العبث أن أعقد بهذه الطريقة شيئًا بسيطًا مثل الإيمان أو عدمه.
ـ هل تريد الذهاب إلى الكنيسة لأن هناك شيئًا يجب عمله، أم تشعر حضرتك بذلك؟
ـ إن القلب له أسبابه التي لا يعرفها العقل على الإطلاق.
ـ إذن، فهو شيء تشعر به.
ـ عندما كان تيد يرحل إلى أي جبهة معركة، كانت أختي تشعل دائمًا شمعة من أجله، هكذا، أعتقد أن هذا سيسعدها.
يتحدث معي وكأنني أعرف من تيد. في ذلك الوقت رن الجرس الداخلي

وأخبرني صوت أورورا الحاد بأنها ستنتظر تحت بجوار شجيرات الأرجوان.

أضاف البروفيسور وهو يأخذ مظلته:

ـ ماريا فيتوريا، إذن هل ستصحبينني لاحقًا لأشعل شمعة؟ حتى وإن كان بعض الفلاسفة لديهم ما يقولونه بهذا الشأن.

عدت لأغسل الكنزة الصوفية، وأنا منكبة على البقع.

ربما كان تيد هو ابن أخته، ذلك الذي يذهب إلى الحرب، تبعًا لمعلومات «الكي جي بي». لا بد أن أمرًا خطيرًا حدث له.

حاولت أن أنظم الصالون بشكل أفضل وجربت أن أحل مشكلة المصراع الأسطواني. لأُدخل القط استطعت أن أرفع جزءًا صغيرًا منه، ولكنه اشتبك بعد ذلك. صعدت على السلم محاولة فك صندوق المحرك، عندما سمعت من جديد صوت الجرس: كان الطبيب.

قلت:

ـ البروفيسور غير موجود.

ـ لقد أتيت لأحضر كتابًا أعاره لي.

كان بالخفين. تساءلت ما إذا كان هو الطبيب حقًّا، أم شخصًا مُعوزًا.

عندما نظر إلى وجهي أضاف:

ـ أسكن على بُعد طابقين في الأسفل، أعرفك في حالة...

ـ أعتقد أن الأدوية على وشك الانتهاء.

ـ إذن، سأترك الوصفة الطبية في صندوق الخطابات، ولكن حتى إذا لم يأخذ بعضها فهذا لا يهم.

كان مستعجلًا، مثل كل الأطباء، ولكن أنقذته دماثته.

ـ ولكن كيف؟

ـ حسنًا، هو لا يُظهر حماسًا شديدًا، يقول إنها تساعد فقط من يؤمن بها. على كل الأحوال يأخذ بعضها.

ـ أنا أعطيها له كلها.

ـ في الحقيقة هو محظوظ، ليس فقط لأنه تلقى عامًا إضافيًّا تكريمًا من الشركة، ولكن أيضًا لأن لديه مصادره الخاصة.

علمه البروفيسور هو أيضًا بالتلقين.

ـ إذن، بلغيه تحيتي، هذا المساء في الأبرشية حفلة الكورال وسأذهب للتدريب، فأنا باريتون.

عرفت منه في أي كنيسة، وبدت لي فكرة لطيفة لأطرحها على البروفيسور، ثم سألته:

ـ انتهت الزيارات؟

ـ بهذه أجل، قولي له إنني سرعان ما سأعود، ولا بد أن يشرح لي شيئًا عثرت عليه في الكتاب.

نزل السلالم مسرعًا، قبل أن أتمكن من أن ألتقط أنفاسي.

في الصالون يخربش أرتورو الأريكة بمخالبه، لا بد أنه مر من المصراع. بمجرد أن رآني هرب إلى الشرفة: نمر صغير أسود، مرن جدًّا ووحشي، على صدره بقعة بيضاء، وعيناه مستديرتان وصفراوان كالعملة المعدنية. كان من الواضح أنه يقفز.

دخل من جديد فقط بمجرد أن بدأت تمطر، وأمسكت به قبل أن يهاجم الستارة بلحظة.

ـ أعتقد أن رائحة القهوة تعجبه. قط جميل. لماذا اسمه أرتورو؟

ـ إنه اسم زوجي، زوجي السابق. الآن نتفق تمامًا، بل نحتسي الشاي معًا، ولكن في وقتٍ ما كان يخدش.

توقف المصعد عند الطابق ونزل منه البروفيسور وسيدة حمراء طويلة جدًّا وتُمسك في يدها بعبوة بسكويت شاي.

أعجب البروفيسور بشكل إجمالي بالجوقة، وعلق:

ـ الموسيقى ليست مناسبة تمامًا، أعتقد أن هناك ما هو أفضل.

من يدري، ربما يتوقع شيئًا أكثر كلاسيكية، ولكن هناك انطلقوا بالجيتارات والآلات الإيقاعية. كان الأرغن بالتحديد مغلقًا، على الرغم من أن جدران الكنيسة تغمرها الأقصاب.

قال برأس منخفض:

ـ أجدها غير محتملة، على كل حال حضرتك أخبرتني بأنه لا بد أن يكون طبيبي أيضًا موجودًا.

ـ في الواقع أراه. يقول إنه باريتون، من يدري لماذا يفعل ذلك.

ـ إنها طريقة كغيرها يمكنه بها العثور على تناغم مع المرضى. فمن الأفضل، الغناء على أمراض معينة، نظرًا إلى أنه لا يمكن فعل شيء آخر.

ثم اتخذ وضع التمثال، وأراد أن يشعل شمعة «في المكان الأكثر مركزية، وهكذا لا تفلت من الأب الأبدي»، عندئذٍ تلا صلاته:

ـ «إن خيالنا يُضخم بشدة اللحظة الحاضرة، لأننا نفكر فيها كثيرًا، ويُصغر كثيرًا الأبدية، فلا نفكر فيها، فنفعل لذلك من الأبدية لا شيء، ومن اللاشيء أبدية».

من المؤكد أن الأمر يتعلق بواحدة من الخواطر. في ذلك الوقت أشعلت الشمعة الثانية، وكانت تلك له، حتى وإن لم يكن يعرف. أدرك ذلك، وأراد أن يلمسها قبل أن أغرسها في المكان المخصص، ليفهم إذا كانت مصنوعة «مثل تلك التي كانت في زمن ما».

ثم طلب مني أن أتلو «السلام عليكِ يا مريم» التي تذكرها بصعوبة، وانتظر باهتمام شديد أن أنتهي من «تلاوتها»، مثنيًا على «الإلقاء».

لم يرسم علامة الصليب، ولكنه لوح بيده في تحية تجاه الهيكل، ثم جلسنا على أريكة في الصف الأخير لننتظر نهاية التدريب. في كل مرة يتوقفون عن الغناء، نسمع المُكرسة تصيح في غرفة المقدسات.

ـ لا بد أن يعينوها بين أصوات السوبرانو؛ ستحقق نجاحًا عظيمًا.

بدت لي اللحظة المناسبة لطرح سؤالي:

ـ لمن الشمعة يا بروفيسور؟

انتظر بضع ثوانٍ قبل أن يجيب، ثم قال بجفاء:

ـ لتيد، ابن أختي. سقطت به الطائرة.

راقبته، بدا شخصًا لا يمكن أن يضطرب، إذا كان لا بد أن أتخيل إبكتيتوس، لتخيلته هكذا.

انتظر أن ينتهي من تقييماته، وبالفعل، ردًّا على صمتي، وضع بين يديَّ «المختصر»:

ـ الخامس. اقرئيه حضرتك، أنا لا أتذكره.

ـ «ليست الأشياء ما يُكرب الناس، ولكن أحكامُهم عن الأشياء. الموتُ مثلًا ليس مُريعًا، وإلا لكان سقراط أيضًا رآه كذلك. وإنما المريع هو الحكمُ بأن الموت مريع؛ لذا...».

فتح يده ليسترجع الكتيب.

شعرت بأنني خرقاء، أي كلمة ستكون أزيد من اللازم. يعرف البروفيسور أيضًا ذلك، ولِينزع عني الحرج اختتم:

ـ إن ما فعله تيد هو أيضًا اختيار حياة. المأساة هي عندما لا نختار أو عندما لا تكون لدينا طرق إلى الخروج.

ثم ترك كفًّا تسقط على الأخرى وكأنه يغلق كتابًا خفيًّا كان مفتوحًا بين يديه.

مكثنا هكذا قرابة عشرين دقيقة، حتى قال إنه يشعر بالبرد، وإنه لا يريد أن يعطلني أكثر من ذلك لأن الجو سيسوء، وربما تعرضت للأمطار. وهو ما يُعد في قواعده، كارثة حقيقية.

ذهبت إلى المنزل وأنا أشعر بالكآبة، متعبة ومستاءة من أن المكالمة الأمريكية كانت سببًا للحزن.

بمجرد أن دخلتُ السيارة سقطت نقاط ثقيلة من الأمطار على الزجاج، بصوت قوي، وبدأت تكبر وكأنها البقع.

من يدري كيف يشعر أتشيتو. كان يخاف من العواصف.

كان زوجي مُمددًا على الأريكة يلتهم الفشار، وكأنه في السينما.

سألني:

ـ هل تعطيني بيرة؟

ـ أمقيد أنت مثلًا حتى لا تستطيع النهوض؟

ـ هيا، أنتِ هناك بالفعل.

ـ لا توجد بيرة، نسيت أن أشتريها.

ذهبت لأبدل ملابسي، وأخذت بعض الملابس لأضعها في الحقيبة تحت الفراش ثم عدت إلى المطبخ. أعد تلك الحقيبة بعض الشيء كل يوم، بلا عجلة، وتقريبًا من دون أن أعرف السبب.

أنهى الفشار ولم يرفع نظره عني. قال:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ اسمعي، لا بد أن نتحدث.

ـ حقًّا.

ـ لا تكوني صعبة، ليس الوقت المناسب.

ـ لنسمع.

ـ أتصرف خلاف طبيعتي حاليًّا، أنتِ تفهمين المجهود الذي أبذله بأن أوافق على بعض الأعمال غير المناسبة لي. إلا أنني أؤديها على أي حال.

ـ تخيل.

ـ وافقت على العمل الذي اقترحه عليكِ ماوريتزيو. كنت غبية بالفعل في رفضك له.

ـ غبية؟

ـ سأبدأ يوم الخميس، وغدًا أحتاج إلى قميص مكوي لأذهب وأوقع العقد.

ـ تخيل.

ـ ألا تعرفين أن تقولي شيئًا آخر؟
بالنسبة إليَّ يبدو أنني أخيرًا أعرف العديد من الأشياء لأقولها.
ـ إذن، عندما تُحل المشكلات، هل يمكن لكل شيء أن يعود كما كان؟
ـ هل ممكن أن تكرر هذا من فضلك؟
ـ قلت كل شيء سيعود كما كان.
كان يبدو خائفًا، وصنع خيرًا. إلا أنه عاد إليه على الفور ذلك التعبير المتكبر:
ـ إذن، فلتهدئي قليلًا.
ـ كل شيء كما كان... كما كان متى؟
وبدأت أضحك، في البداية بصوت منخفض، ثم ارتفع الصوت.
نظر إليَّ مدهوشًا:
ـ هل أنتِ سكرانة؟ هل تتعاطين المخدرات؟
لم أتمكن من التوقف، وبدأت معدتي تؤلمني.
نهض وألقى فوقي كتيب باسكال.
صرخت فيه، وذهبت لألتقطه:
ـ لا تتجرأ.
اقترب مني، متجهمًا:
ـ ما هذا الشيء؟
ـ لا تتجرأ على لمسه أبدًا.
نزعه من يدي، وأخذت الصفحات تتطاير لأنني لصقتها بطريقة سيئة.
ـ ولكن، هل ثمنه جيد؟
ـ ولكن... ابتعد!
ـ أين عثرتِ عليه، هذا الشيء الأثري، من أولئك الذين يصنعون الصناديق الورقية؟
ـ إنها أجمل هدية تلقيتها، ولكنك تيس!

ـ هل لديكِ عشيق؟
لم أخفض عينَي.
ـ ليس بعد.
ـ ومن الذي أهداكِ شيئًا مقرفًا بهذه الطريقة؟
ـ أستاذ مُسن.
جحظت عيناه:
ـ ولكن إلى أي نوع من الناس ترددين الآن، المتخلفين؟
ـ أنت تعرف أن المتخلفين هم من ترددت إليهم من قبل.
شعر بالإهانة:
ـ ولكن من تظنين نفسك، عالمة؟
وبدأ يمزق الصفحات التي سقطت، ضوضاء تمزق شيئًا ما بداخلي. أسرعت أضع ما تبقى منها في الغلاف، ولكن في لهفتي تعرقلت في رجل الطاولة وسقطت على رسغي.
ـ في لحظات تقتل نفسها من أجل حفنة أوراق، تلك الغبية.
وألقى بنفسه مرة أخرى على الأريكة.
نهضت وأنا أمسك بيدي.
أخذت ما تبقى من باسكال ووضعته تحت ذراعي.
ـ قلت لكِ أن تهدئي قليلًا وإلا سيزداد الأمر سوءًا بالنسبة إليكِ.
ولكن حتى هو لم يصدق ذلك.
مررت أمام مطفأة السجائر المرمر التي ابتعتها من مدينة فولتيرَّا عندما كنا مخطوبَين. من السعر تخيلت أنها شيء ثمين يمكن أن يزين حياة زوجية قيمة. إلا أنني في هذه اللحظة، أراها في مكان آخر، ربما لتمنع حركة باب مكتب البروفيسور. أخذتها وذهبت لأنتهي بسرعة من إعداد الحقيبة، وأنا أضع أشياء قليلة بداخلها. عندئذٍ ذهبت إلى الحمام. كان رسغي متورمًا، لا بد أن شيئًا ما كُسر. وضعته تحت المياه الباردة.

ـ أستاذ مسن. الوقت مناسب لتتعلمي أن تتسولي في شارع أوريليا، على الأقل ستحصلين على شيء.

أخذ يضحك، يائسًا.

طرقت أمه الباب.

ـ هل انتهيتما من الصياح؟ لا أستطيع الاستماع للمسلسل.

قال زوجي:

ـ لديها هي مسلسل.

نظرت إليَّ حماتي بدهشة.

قلت لها:

ـ يؤسفني هذا، ولكنني سأرحل.

ـ ترحل.

ـ أوه، «الباندا» ستظل هنا، هه؟ وفي هذه الساعة إلى أين ستذهبين؟

لم أُجب.

خرجتُ وأنا أمسك بالحقيبة بيدي السليمة، وبمجرد أن وصلت إلى ناصية الشارع طلبت تاكسيًا. لم يكونا يعرفاني بالفعل.

قلت لسائق التاكسي الذي كان في مزاج رائع:

ـ ٣٩ شارع الإيبراي.

ـ سقطتِ من فوق الدراجة البخارية، هه؟

ـ سقطتُ فحسب.

أدرك أنه ليس الوقت المناسب.

في إشارة شارع الحرية، وأسفل مصباح، عثرت على صفحة ٢١٤ من كتاب «خواطر» في جيبي، وهكذا وضعتها تجاه الضوء:

لا تُقاس فضيلة الرجل بمجهوداته، ولكن بتصرفاته المعتادة.

سأل البروفيسور:

ـ هل نحن في الصباح بالفعل؟
كان متدثرًا كله فوق الأريكة والمدفأة مطفأة، كان التلفاز يعرض فيلمًا وثائقيًّا. وحوله كان الظلام التام.
ـ لا يا بروفيسور...
ـ يتحدثون عن السلاحف البحرية، ويقولون إن الصور جميلة جدًّا، وهكذا أخذت أستمع، ولكن أتعرفين...
قرب أذنه من الساعة الناطقة وبدأ يهدأ:
ـ لا بد أنني غفوت قليلًا، لحسن الحظ، إذا كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة لكانت علامة سيئة، ولكن ما دمت حضرتك هنا الآن يمكن أن تكون علامة جيدة بالنسبة إليك.
بدا لي مستحيلًا أنه رأى بالفعل كل شيء.
ـ فقط لبضعة أيام، الوقت اللازم لأدبر أموري.
على الرغم من أنني حاولت أن أكون طبيعية، ارتعش صوتي بعض الشيء.
ـ لن تأتي إليزا، وغرفتها فارغة.
ونطق كلمة «فارغة» أبطأ، وكأنه يريد تضخيم فكرة الفجوة المهجورة. أو ربما هذا ما بدا لي ولم أكن بالتأكيد في أحسن حالاتي. ولكن شعرت بالطمأنينة أن إليزا قد أخبرته.
أغلق التلفاز ووضع أذنه على المذياع الصغير، بينما رتبتُ أشيائي القليلة في الغرفة «الفارغة» والباردة أيضًا. ربما لم تتجاوز الساعة الحادية عشرة بعد، وسمعت الثرثرة الفرحة للسيدة فافيلًا.
قال البروفيسور:
ـ سأنسحب أنا في غرفتي، سأمر سريعًا على الحمام لأستطلع رأي الباب في سوء الأحوال الجوية، ثم أختفي.
يرتدي العديد من الطبقات بما فيها الكنزة الجبلية تلك الخشنة.
ـ ولكن هل تكفي الأغطية يا بروفيسور؟

كنت قد وضعت له خمسة.

ـ لديَّ بيجاما جميلة أحضرتها إليزا لي في عيد الميلاد الماضي من سويسرا، ناعمة ودافئة، حسنًا يا ماريا فيتوريا، سأختفي إذن. على كل الأحول حضرتك هنا في أمان.

ولكنه قبل أن «يختفي» أضاف:

ـ وإذا شعرتِ بالبرد أشعلي المدفأة، ففي كل الأحوال أنا أشعر بالبرد، إلى أن أجد حلًّا لمشكلتي الأساسية.

ابتسم ثم اختفى.

ذهبت إلى المطبخ لأشعل المدفأة برسغي الذي أصبح كالبالونة. على المائدة توجد حبات أرز مبعثرة في كل مكان، وكان جمعها بيد واحدة عملًا مُضنيًا.

أشعر في جسدي بألم السقطة، لا بد أن أذهب إلى الإسعافات الأولية لتجبيرها. إلا أنه بلا نقود لم يكن هناك الكثير لعمله. نظرت إلى محفظتي، أخذ مني التاكسي تقريبًا كل ما لديَّ، ولا يمكن الاعتماد على المواصلات العامة في هذه الساعة. لا بد أن أؤجل ذلك إلى الفجر. تأكدت من المتبقي لي من راتبي في آلة صنع «التالياتيلّه»، ليس الكثير، فالشهر على وشك الانتهاء.

طرقتُ باب الغرفة طرقًا خفيفًا، حيث يُسمع صوت المذياع الصغير.

ـ بروفيسور، إذا سمعتني في الصباح الباكر وأنا أخرج، لا تقلق، سأعود في ساعة الإفطار.

ـ هناك بعض النقود في درج المشتريات، إذا احتجتِ إلى أن تأخذيها، يمكنني دفعها مقدمًا.

شكرته، لا يفوته أي شيء.

اختلست منه بعض مناديله الورقية الثمينة. يحتفظ بها في ثغرة في خزانة الحمام وكأنه يحمي الأداة الوحيدة لكل حالات الطوارئ: فهو يأخذ منها واحدًا، يطويه، ويجفف أنفه وكأنه يبكي، ولكنني لم أرَه يبكي قَطُّ.

ولكن بدأت دموعي، فجأة، تتساقط متدفقة ومتلاحقة، لم تؤلمني، ولكن لها حرارة وجنتَي نفسها وتسقط ثقيلة على بنطالي الجينز القديم. بدت وكأنها الإحباطات العديدة المكثفة التي تتركني أخيرًا، أخذت ألمسها بنوع من الامتنان.

تزايد الألم عند الاستلقاء، شعرت بصفير في أذنَي، لم أعرف أين أضع ظهري، ورقبتي قاسية وكأنها وتد على الشاطئ. خشيت أن أغمض عينَي.

إلا أن شيئًا إيقاعيًّا ومطمئنًا رويدًا رويدًا خدَّرني، وجعلني أرخي القبضة الحديدية لمفاصلي. شيء شبيه بتهويدات الأطفال، حزمة من الضوء الدافئ، والسريع والمنتظم تخرج من مصراعَي الخزانة القابعة في آخر الغرفة. فكرت في أشعة تفكك السحب بالتدريج، في نجم يمر وهو يشير إلى طريق، في النجوم الساقطة لشهر أغسطس، ولكن في نهاية الأمر لم أكن بعيدة كثيرًا عن الحقيقة: لا شيء سوى فنار الميناء، عين مفتوحة تنزع الظلام وتُطمئِن من يبحث عن مرفأ في الليل. تركت سفينة الشحن المتجهة إلى ساردينيا إشارة سريعة، عميقة لتسقط، بينما تخرج بطيئة كظل، وهي محاطة بإشارات مضيئة.

الفصل الخامس عشر

بيزا

من يدري لماذا يشعر المرء بألم شديد على السرير القاسي للأشعة هكذا: برودة تلك الألواح التي يوضع عليها الجزء المتألم، وكأنه سجق جاهز للتقطيع لشرائح، شيء لا يمكن احتماله.

قال فني الأشعة وهو ممسك في يده بكوب القهوة الورقي:

ـ أنتن النساء تفعلن أشياء أكثر مما ينبغي لكُنَّ، لا بد أن تجعلن الأزواج أو الخُطاب يعملون أيضًا. إذن، ماذا فعلتِ؟

ـ وقعت.

ـ اثبتي هكذا، الآن أديري الذراع إلى هناك، أكثر بعض الشيء.

كان شخصًا ضخمًا يُذكرني بالجزار في شارع ماميلي.

ـ الآن امكثي هناك، وانتظري.

ـ مرة أخرى؟

كنت أجلس بالفعل منذ ساعة على مقعد من الفورميكا أحصي البلاطات وأنظر إلى الممرضة التي تجري في الممر.

ـ إليكِ، لا تتعجلي، هه؟ ألا يجب أن أطبع هذا اللوح لأُطلع عليه اختصاصيَّ العظام، أم أننا نعمل هنا بالتخمين؟

استسلمت بأن أجلس على مقعد الفورميكا. في أثناء ذلك وصل أحدهم يقفز على إحدى قدميه يصحبه آخر يقول له:

ـ إليك، ولكن إذا كنت قطعت أمامي الطريق، ليس هذا خطئي.

وعلى مقعد بعجل أُم ومعها طفل يتقيأ وامرأة تكاد تلد حيث سالت مياهها.

قالت الممرضة:

ـ إليكم جميعكم الآن. أنتِ اجلسي على المقعد المتحرك ومدي قدمك... سآخذ هذا الطفل إلى طبيب الأطفال، وأنت سيأتي أحدهم بالنقالة.

سمعت صوتًا ينادي:

ـ بارونشيني!

فزعتُ، بدا تقريبًا كصوت تانيا.

إلا أنها كانت عاملة في صالة التجبير، بيضاء تمامًا، حتى أنفها.

ـ بارونشيني ماريا فيتوريا؟ الآن الجبيرة.

سمعت صوتًا يصرخ من الغرفة المجاورة:

ـ لاااا! عندي!

كان اختصاصيُّ العظام يرتدي المعطف على القميص وعلى رأسه قبعة من الصوف. قال لي وهو يُدخلني إلى غرفة صغيرة بدت وكأنها مكان حفظ الثلج:

ـ التدفئة لا تعمل منذ ثلاثة أيام.

ـ فيما عدا الرسغ، كل شيء على ما يرام؟

لمعت عينَي.

ـ لا، لم يكن الأمر لأنني أتدخل فيما لا يعنيني، على كل حال، اسمعيني، واجلسي بطريقة أفضل.

كانت لديه صورة أشعة رسغي معلقة على النيون. بدت وكأنها رجل دجاجة في كل الأوضاع.

ـ هل ترين هنا؟

وصنع دائرة صغيرة على الصورة بغطاء القلم الجاف.
لم أرَ شيئًا سوى ظلال عظمية. في كل الأحوال قلت أجل لأريحه.
ـ حسنًا إذا لم تكوني ترينه فلا يهم، على كل حال ليس كسرًا تامًّا، ولكن سيُجبر.
ـ حقًّا؟ أنا أُفضل ألا نفعل هذا.
أخذ ورقة وقلمًا:
ـ الآن سأكتب لسيادتك كل شيء، ثم خلال ثلاثة أسابيع سنتحدث مرة أخرى في ذلك. أما الآن فدعيني ألقي نظرة على ظهرك الذي أراه متصلبًا أكثر من اللازم.
فحصني وقال لي أن أتجنب المجهود.
ـ الآن اذهبي إلى صالة الجبس، وهكذا قبل عيد الميلاد يمكنك أن تبدئي بحشو الديك، وهو الأمر الرائع، وستتمكنين من أن تنظفي السمك بالفعل خلال ثلاثة أسابيع.
ثم نادى:
ـ فانوتشي ماريو!
ـ هل آتي قافزًا؟
ـ بحق السماء لا، على المقعد المتحرك.
في الخارج هناك الشمس وبعض الزحام بالفعل.
لم أتخيل أن ثلاثة أسابيع يمكنها أن تمر بهذه السرعة. ولكنني عمليًّا مستقرة في بيت البروفيسور، حتى وإن كان ذلك بنوع من الضيق. لم أرغب في أن أستغل تسامحه، ولكن لم يطرح الأسئلة ولا يعلق. اكتفى بأن يقول لي:
ـ نظرًا إلى أننا غيرنا الشروط المتعلقة بالمسألة، في المقابل هل يمكنكِ أن تقرئي لي أيضًا الصحف؟
وهكذا عندما يبدو اليوم فارغًا بصورة خاصة، أقرأ له المقالات الأساسية، مثيرة غالبًا ردودَ فعل حيوية، أما أخطائي ففي التركيز على مقاطع كلمات

بالنسبة إليَّ غير مفهومة مثل «أورشاليمي» أو «ثاقب». وإذا تواجهنا في السياسة كان يرسلني لأبحث عن كتاب «الأخلاق النيقوماخية» لأنه لا بد أن يتذكر عبارة أرسطو: «إن الخير يستحق أن يُحب حتى ولو كان لصالح فرد واحد، ولكنه أجمل وأكثر قداسة عندما يتعلق بالشعوب والمدن». وهكذا يبدأ في هجوم عنيف على الحكومة ويجعلني أضيع الكثير من الوقت.

ولكنني أتصرف أفضل مع بعض فقرات من «رسالة فلكية» التي يحبها البروفيسور لأنها تجعله يرى السماء المرصعة بالنجوم. في رأيي أنه يتمتع بخيال واسع، وجاليلاي ماهر بالفعل في التفاصيل، عندما يحين دوري لوصف الرسومات، يخط هو دوائر في الهواء بدقة مؤثرة.

في إحدى المرات انتهينا من كل هذا، فعاد إلى موضوع الجبس الذي لم يقنعه على الإطلاق، لم يثق بعلاج القرن الواحد والعشرين بالقدر الذي يثق به بعلم النجوم للقرن السابع عشر.

ـ وهكذا جبسوها بالفعل؟

يسألني في كل مرة ليمزح حول الموضوع، ثم كان يريد أن يتحسس تكوين الجبس.

ـ أتعلمين، إذا ما حدث هذا لفالِّي، المصابة بالهذيان، لجعلتهم يجبسونها كلها لثلاثة أشهر. وهم في بيزا أكثر تشددًا في موضوع العظام، على حسب كلامها. ما رأيكِ أن نذهب إلى هناك لاستشارة؟

من الواضح أنه يبحث عن سبب. في نهاية الأمر إليزا أخبرتني.

اختتم:

ـ الآن سأهاتف فالِّي، وسأطلب منها أن تأتي لتأخذنا بمجرد أن يفكوا الجبس لحضرتك.

وعن هذا لم يكن بالإمكان زعزعته.

عندما ظهرت فالِّي على الباب، بعد ذلك ببضعة أسابيع، بدت، حرفيًّا، محشوة

بالنفتالين. ترتدي على رأسها قبعة على شكل عمامة، والوشاح يغطي أنفها، وفراء يصل إلى كاحليها الصغيرين. يمكن أن تُشم رائحة النفتالين من على بُعد مترين، كان يمكن حتى أن تشمها السيدة فافيلًا. اختفى أرتورو الذي كان على وشك أن يتسلل من تحت مصراع النافذة ليعمل بمخالبه على الأريكة. ولعدة أيام لم أرَ حتى خياله.

قالت فالِّي بصوت ضعيف، وبالفعل مقارنة بالصيف ظهرت مرات قليلة جدًّا، وكأن إيقاعها الحيوي يتغير مع ذلك الخاص بالفلك:

ـ كنت مريضة.

سألها البروفيسور:

ـ وبماذا أصبتِ؟

ـ أنفلونزا سيئة، قلت لك على الهاتف.

ـ آه، بالفعل.

زادت من الجرعة:

ـ ولكن، ألم تسمع عن أي نوع من السعال الأجوف؟

ـ إذن، هل سنذهب إلى بيزا لنستشير الأطباء؟

ـ بالتأكيد، فكل وعد دين، ولكن لتعلم أنني لن أمكث لأتجول في الخارج لأن الجو بارد.

المشكلة أن البروفيسور فقد مرة أخرى ساعته الناطقة، وبالنسبة إلى الحذاء المحظوظ الذي دهنته له كله بالأسود بالفعل، كان يرغب في ارتدائه على الرغم من أنه من فردتين مختلفتين. ونظرًا إلى أنه كان مدركًا النقد المحتمل، وليرتدي كما يحلو له، استغل اللحظة التي شردت فيها فالِّي بملفي الطبي. كان لديَّ رباط مؤقت والأمر بأن أؤدي التدريبات الخاصة بإعادة التأهيل.

سألت فالِّي:

ـ أين سنذهب في بيزا؟

ـ الآن لم تصبح بيزا مثل شيكاغو مثلًا.

قال البروفيسور وهو يجلس على الساعة التي انطلقت: «الساعة العاشرة وإحدى عشرة دقيقة». ابتسم مستريحًا:

ـ اتركيني أنا وماريا فيتوريا حيث تريدين، ونحن سنذهب إلى واحد من اختصاصيِّي العظام الكثيرين، معرفتك.

ـ ليسوا كثيرين، ونحتاج إلى واحد مناسب لماريا فيتوريا.

ـ أستكون عظامها مجوفة مثلًا كعظام النورس؟

بدأت الأمور تسير بشكل سيئ، وهكذا تدخلت:

ـ لقد شفيت، حسب ما قالوه لي.

دخلتُ إلى السيارة «الفيات» الخمسمائة الحمراء المغسولة لتوِّها، وهناك أدركت هي مسألة الحذاء. لم أنتبه للفردة الأخيرة. وبيد واحدة لم أستطع أن أضع الدهان بشكل جيد. وهو ما يعني، بالنسبة إليها، خطورة حالتي.

استمرا في الشجار لمدة نصف ساعة، وفي النهاية، طلب البروفيسور، راضيًا بوصوله إلى بيزا، أن ينزل معي في منطقة جسر القلعة. على كل حال نعرف جيدًا جدًّا، سواء أنا أم هو، أننا لن نذهب إلى أي طبيب.

انطلقت فالِّي بسرعة، بعد أن سعلت طويلًا، حول الرصيف الحجري العريض، وقبل أن تتركنا مستندَين إلى حاجز طريق الآرنو، أعلنت أنها ستعود إلى المنزل، نظرًا إلى أنها قريبة منه. وسرنا نحن في اتجاه المصب. لا بد أن في ذهنه كان هناك بالفعل خط سير محدد جدًّا يبدأ من ميدان أبعد بقليل، والذي سنبقى معلقَيْن فيه لبضع دقائق: ميدان كرَّارا. وهناك سيتنهد البروفيسور بعمق.

ـ حضرتك تعرفين بيزا يا ماريا فيتوريا؟

ـ بعض الشيء، مقارنة بليفورنو.

ـ أنا أعرفها كجيوبي.

فكرت: إذن، لا يعرفها على الإطلاق. ولكنني كنت مخطئة بشدة. أمسك بكوع ذراعي السليمة وقادني.

ـ لا بد أن نصل إلى ميدان المعجزات ولكن من أمام المعهد الجامعي النورمالي وليس من شارع سانتا ماريا.

ـ حسنًا، ولكن أين هو الاتجاه؟

ـ لنترك الآرنو خلفنا، ولنحيي فيرناندو داي ميديتشي فوق قاعدة التمثال، هل ترينه؟ ونذهب إلى اليمين.

ـ في ليفورنو الأمر سهل، من جهةٍ البحر ومن الجهة الأخرى التل.

ـ وهنا أيضًا يا ماريا فيتوريا، الآرنو يذهب نحو البحر، والمدينة لها فصان مثل المخ، من جهة توجد النورمالي حيث العلوم، ومن الجهة الأخرى القصر الأزرق حيث الفنون. كان جاليلاي من بيزا: العبقرية ستصبح بوصلتنا.

استأنفنا السير بعض الوقت بإيقاع متغير، من حين إلى آخر يبطئ البروفيسور وكأنه يستنشق الهواء. أحيانًا تصل إلينا رائحة الخشب المحروق، وأحيانًا أخرى رائحة الخبز، ثم رائحة اليوسفي من فوق طاولة بيع ما، وأحيانًا رائحة المجاري بسبب الآرنو. انطلقت مجموعة من الطلبة على دراجاتهم كالسهام بالقرب منا ودخلوا الحارات وكأنهم صواريخ ورق ملون تنطلق من البوابات.

قال لي:

ـ من تلك الجهات لا بد أن تكون كنيسة سان فريديانو.

بعدها بقليل رأيت ميدانًا صغيرًا به كنيسة حجرية.

ـ كنيسة على الطراز الرومانيسكي، ليست كبيرة جدًّا أو مثيرة، ولكنها جامعة كالملجأ، هنا أخذت أبي عند موته. كان ملحدًا مقتنعًا، ولكن لم يرغب في أن يعارضني حول الطقس. علمني باسكال أن «الإنسان بطبيعته مؤمن وغير مؤمن، خجول وشجاع». إذن، أنا أيضًا لست استثناءً من القاعدة، وربما لم يكن أبي كذلك.

لم أعلم إذا كان يتحدث مع نفسه أم معي.

استمررنا ببطء في الطريق، لم تكن مهمتي سهلة نظرًا إلى أنه لم يكن هناك رصيف. في كل مرة تمر فيها وسيلة مواصلات يُعبِّر البروفيسور عن دهشته قائلًا:

ـ على أيامي لم تعبر تلك السيارات المسرعة سيئة الرائحة. الآن سترين الانفعال في ميدان الكافالييري. إنه مثل الدخول إلى خشبة المسرح من الخلف.

مكان فريد بالفعل، بدت المساحة مقسمة بالملائكة التي تخترق السماء وكأنها السنونو في الصيف. علق:

ـ هنا توجد ومضة من الأبدية، ومضة الحكمة.

انعزلنا في زاوية أمام الواجهة الرائعة للنورمالي، وأخذ يشير بدقة إلى الكواليس المختلفة: كنيسة سانتو ستيفانو، قصر الساعة، برج المجاعة، وفي النهاية «البطل الرئيسي للمشهد»، أو تمثال كوزيمو داي ميدتشي.

ـ ماريا فيتوريا، هل ترين أن كوزيمو يضع قدمًا على رأس الدرفيل؟

ـ أجل.

ـ ينظر تجاه البحر، ربما نحو الغروب. به نُبل، ألا ترين ذلك؟

تنفس بصعوبة، ربما سرت بسرعة أكثر من اللازم. احتفظ برأسه مرفوعًا تجاه التمثال، وكأنه يريد أن يتقابل مع النظرة الحجرية مع كوزيمو الأول.

أحببت أن أتمكن من وصف كل شيء له، لأنعش ذاكرته، إلا أنني لم أعثر على الكلمات وخشيت ألا يتوافق شيء ما مع ذكرياته. فهو يحاول أن يغير الحاضر بالماضي ولم أرغب في إحباطه.

وقفت حمامة بكبرياء فوق رأس التمثال.

مكثنا في صمت لبضع دقائق، وكأننا أمام مدفن، ثم سرنا في اتجاه أكبر الشوارع اتساعًا الذي كان يُفتح خلفنا.

ـ لنترك على اليسار كنيسة الكافالييري وندخل في شارع فاجولا.

عثرت عليه على الفور: لم يكن به في الظاهر أي مناظر، ولكنه بدا وكأنه منفصل عن العالم.

ـ أتعرفين يا ماريا فيتوريا؟ هذا الشارع له عندي مكانة خاصة، شعور بالحميمية لا أجده في أي مكان آخر، ثم كانت هناك حدائق فيما خلف الأسوار، وشجرة وستارية تربت على بوابة قبل الوصول إلى هناك، بجوار مقر الأسقفية.

سرتُ ببطء أكثر، وانتقلت نحو وسط الطريق، أيضًا لأن الطريق تقريبًا مهجور.

ـ هذا المكان له واقع داخلي مجُهد. يشبه حياتي.

ربما يفكر في شيء محدد لا يرغب في مشاركته معي، إلا من خلال ظلاله. نظرت إليه، كان يبتسم. لا بد وقد حدث شيء ما شاعري أو عذب هنا. مكان حميم، المكان المناسب لمنح قُبلة، هناك تحت الوستارية، التي عندما تُزهر تُلقي بسحابتها البنفسجية وراء السور.

أغمض البروفيسور عينيه واستمر في الابتسام مغتبطًا. فجأة قال لي:

ـ هنا قابلت لاورا لأول مرة.

كتمت أنفاسي وترقبت.

ـ تزوجنا بعدها بسنتين، بعد التخرج. كنا نأتي دائمًا هنا لنتمشى. في ذلك الوقت كنت أرى، أرى خيالها النحيف، وشعرها الأسود والتعبير الفرِح وخاصة الابتسامة التي فقدتها بعد ذلك. هل ما زال الطريق جميلًا في رأيك؟

ـ جميل جدًّا.

ـ هل كنت تعرفين حضرتك أن اسمها لاورا؟

ـ لا.

ولكنني كنت قد قرأته في ذلك المقال القديم.

مكثنا في صمت.

بدأت السحب تذوب، وشيئًا فشيئًا بدا اللون الأزرق الفاتح للسماء التي تدفئ الجو. أدرك البروفيسور ذلك، ربما من النسيم.

ـ كنت متأكدًا أن الطقس سيدَّخر لنا مفاجآت: تلك التي تعمل على مواساتنا في بحثنا عما لم نعد نستطيع رؤيته...

تنهد، ولكن برضا.

لم يكن يريد الوصول إلى ميدان المعجزات لأن «الوجود هنا، اليوم، استنفد بالفعل كل مشاعري بالإعجاز».

تنهدت أنا أيضًا.

بقينا هكذا، في ارتفاع مقر الأسقفية، في الميدان المتسع، والمائلة بعض الشيء ومنها يمكن رؤية الكاتدرائية بارزة بكل ما فيها من ازدحام مقلق للسياح الذين انفجروا من بعض الحافلات وتجمعوا في أسراب، وكأنهم نمل يهاجم فتاتًا ضخمًا جدًّا.

ـ هناك في النهاية يمكن رؤية كنيسة المعمودية، أليس كذلك؟

ـ بلى، تبدو مثل كعكة «البانيتونه». ثم يمكن رؤية الكاتدرائية، البرج الذي يبرز من اليمين، وهو شديد البياض كله.

بقيت متشككة فيما يتعلق بباقي الوصف، ربما من الأفضل تجنب ذلك.

ـ بالفعل، ثم هنا الأسوار حول المنتزه، وكأنها قماش مخملي موضوعة عليه مجوهرات من اللؤلؤ. ينبع منها بريق الإيمان... أليست محاطة بحشود السياح أيضًا في هذا الموسم؟

انتظر ردي بعينين منخفضتين، كما يفعل عندما يخشى مفاجأة مزعجة.

ـ يوجد القليل من الناس.

رفع رأسه واستنشق عذوبة الهواء.

ـ كانت في زمني أيضًا هكذا.

الفصل السادس عشر

العملاء السريون (٠٠٧) والشقة ذات الغرفتين

لم أكن لأتوقع قَطُّ أن حريتي ستتحقق على يد السجين. إلا أن البروفيسور قال عنه: «عندما يفلت من رقابة زوجته يمكنه أن يكشف عن مصدر عون مؤكد».

في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة عُقد شيء شبيه بالقمة. يصلون بكامل عددهم، في الوقت نفسه دائمًا: كوستانتينو وأورورا والسجين، ينظرون إليَّ بفضول غير معتاد وينتزعون البروفيسور بحجة الطقس الجيد ويقولون إنهم سيذهبون لقراءة الصحيفة في فيلّا فابريكوتي. ولكن في الحقيقة كانوا يذهبون أيضًا وهي تمطر. لم يكونوا بالتأكيد عملاء سريين، في رأيي.

وهكذا، بينما أبحث في الصحف عن إعلانات الشقق للإيجار من دون أن أعثر على عنكبوت في الثقب، كان البروفيسور يتأمل. ولكنه، بالفعل يتصرف، لأن «فضيلة الرجل لا تُقاس بمجهوداته، ولكن بتصرفاته المعتادة».

أدركتُ أنني لا أضايقه، ولكن لا بد أن أرحل قبل كل من احتفالات الميلاد ووصول إليزا المُحتمل.

إلى أين، لا أعلم. أفكر في العفن الذي هربت منه وأشعر بالبرد. أحيانًا أحن إلى سيارتي «الباندا» القديمة التي كانت ستفيدني، ولكن الوقت تأخر جدًّا الآن، فقد تركتها لأصحابها. بل إنني إذا عدت مرة أخرى إلى الوراء، سأرسل بهم جميعًا إلى الجحيم، فالأمور سارت على ما يرام هكذا. أسير على قدمَي أي نعم، ولكن بنوع من الفروسية. لم يكن ينقصني سوى أن

أغير رقم هاتفي، حتى لا أتعرض للإزعاج. استقبلت ثلاث مكالمات من ماوريتزيو وواحدة من زوجي، ولكنني لم أرد، إذن، لا بد أن أسرع وأغيِّر الرقم، واتخذت قراري: بمجرد أن يعود رسغي إلى وضعه سأبتاع دراجة مستعملة بمحرك، لأذهب بها إلى السوق المركزية لأبتاع المشتريات، وأتجول في المدينة بحثًا عن ثقب ما لأسكنه. عليَّ فقط أن أراقب حساباتي، والأهم: تمني أن يعيش البروفيسور إلى الأبد.

كنت قد انتهيت من سلق العدس لأعد حساءً شهيًّا، عندما عاد الرباعي من فيلَّا فابريكوتي التي تغرقها الأمطار.

عبر كوستانتينو عن نفسه:

ـ أستأذن، الرائحة الجميلة تُعلن عن الوقت المتأخر في العودة الذي يُناسب استعادة عافية الجسد المنهك.

حكم السجين:

ـ ولكن هذا هو الجوع!

هاجم البروفيسور:

ـ وأنت تفهم في الجوع، هه؟

قالت أورورا:

ـ لا بد أن نحتفل!

ـ انتظري، انتظري، لا يمكن أن نتحاسب من دون مضيف.

دخلوا إلى المطبخ.

ـ تلك الرائحة لحساء العدس.

ـ إذن، من سيتحدث، كوستانتينو؟

أجابت أورورا:

ـ لا، إذا انتظرناه سيُحرق الحساء.

ثم سألت:

ـ هل وضعت فيه الأرز يا ماريا فيتوريا؟

ـ أجل، هل ترغبين في تذوقه؟ ربما يلسع.

تقدم السجين.

ـ جميل، ولكن لن نقول هذا...

أجابوا في جوقة:

ـ لا، لن نقوله للزوجة!

قالت أورورا:

ـ قل لي يا لوتشانو، في الإنجيل يُقال إن عيسو تنازل عن بكوريته مقابل صحن عدس، أليس كذلك؟

وتابعت بصوت رخيم منغم:

ـ لم يكن الأمر آنذاك يستحق، ولكن هنا يستحق.

وضعتُ الحساء في صحن وأجلست السجين على جانب من المائدة. يبدو متحمسًا فقط من البخار الساخن الذي يغبر نظارته. يبحث كوستانتينو عن الكلمات. وشكرًا للسماء أنه لم يعثر عليها.

قال السجين:

ـ سأتكلم أنا.

رفع للحظة رأسه في محاولة أن ينظر إليَّ عبر البخار وضم جبهته على أنفه المحبب. يُذكرني بالسيد ماجو(*).

ـ لديَّ شقة صغيرة، قرابة أربعين مترًا على حسب قول الخبراء. الشقة في طريق ماتزيني، في الطابق الرابع بلا مصعد، قديمة بعد الشيء، تحتاج إلى ترميم، وبها أثاث يعود إلى الخمسينيات، وربما يكون الفراش بالألواح.

تذوق الحساء من طرف الملعقة.

ـ لذيذ. لوتشانو، ستأكل اليوم جيدًا.

أخرجت صحونًا أخرى وشعرت بأن دقات قلبي تتسارع.

(*) شخصية كارتونية. (المترجمة).

وفرحوا هم:
ـ هل يوجد ما يكفي الجميع يا ماريا فيتوريا؟
ـ نعم، نعم، القليل، ولكن للجميع.
جلسوا، «فقط ليأكلوا شيئًا فاتحًا للشهية».
قال السجين:
ـ قال لي لوتشانو إن حضرتك تحتاجين إلى مكان لتقيمي فيه.
وتابع:
ـ وتلك الأمتار القليلة المربعة ملكي.
قال البروفيسور:
ـ نصيحتي أن نتأكد من الأوراق، لا أحد يعلم أبدًا.
ـ كان منزلًا خاليًا، مكانًا سريًّا حيث كانوا يتآمرون في زمن الحرب.
ـ كانوا يسيئون التآمر نظرًا إلى أنك عثرت على الأعداء في المنزل.
ـ أووووه، هل سنبدأ بعدوانية؟
قلت متأثرة:
ـ ولكن لا يمكنني أن أدفع إيجارًا كبيرًا.
ـ الآن أنا أدفع ببساطة الضرائب. إيه، لوتشانو يتحدث عن زوجتي لكن الحكومة أسوأ.
ـ أسوأ نعم، مصدر إزعاج. لنأخذ من هناك كتاب هوبز.
ـ فيما بعد، فيما بعد.
قال السجين دفعة واحدة:
ـ إذا دفعت حضرتك لي الضرائب وأعدت الكهرباء والغاز فهذا يكفي.
وأعاد وضع أنفه في صحن الحساء.
سعادة حقيقية، كدت أبكي.
ـ الملح مضبوط، هذه الصبية طاهية حقيقية!
كانت أورورا تعد الملح كاشفًا عن المهارة.

قلت بصوت خافت:
ـ حسنًا، إنه مجرد حساء عدس ويكفي القليل من الوقت...
ـ ولكنه حساء عدس مقدس، كما قال الكتاب!
ـ بالنسبة إليَّ الذهاب إلى منزل طريق ماتزيني حلم.
كدت أعانق السجين.
ـ إذن، هل يناسبك هذا؟
ـ يناسبني جدًّا.
ـ منذ اللحظة التي وصلنا في نهاية اجتماعاتنا السرية الغامضة إلى نهاية جيدة، أشعر شخصيًّا بأنني أرضيت البُعد الأخلاقي لصحبتكم.
ـ سنأتي نحن أيضًا يا كوستانتينو.

خرجوا، ومكثنا فقط نحن الاثنين، البروفيسور وأنا. وفي المنزل سكنت رائحة العدس، رائحة سأتذكرها دائمًا وكأنها رائحة الحرية.
قال الصوت الآلي للساعة الناطقة:
ـ الساعة الثانية عشرة وثمانٍ وأربعون دقيقة.
ـ بعد قليل إذن سأتذوق أنا أيضًا ذلك الإبداع في الطهي.
ـ هل تشعر بالجوع يا بروفيسور؟
ـ ليس كثيرًا. أتعرفين؟ إن الشعور بإمكانية عمل شيء إيجابي، حتى من وضع ضعيف، في حد ذاته مُشبع. أحدهم في الإنجيل قال: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».
ـ قالها يسوع.
سألني متأملًا:
ـ هل حضرتك متأكدة من أن حل السجين يمكن أن يناسبك؟
ـ متأكدة جدًّا من ذلك.
ثم أفرغت الجوال فجأة، مثلما يُفرغ أحدهم الطست الثقيل من الماء المتسخ.

ـ لقد عشت أعوامًا كثيرة أتحمل المعاملة وكأنني نفاية المكان، ولم أدرك ذلك. يشعر الإنسان بالوحدة أكثر عندما يبني لنفسه حياة خصوصًا ليتجنبها.

وكان يبدو لي من المستحيل أنني أبدعت فكرة بهذا الكمال.

مكث في صمت.

ـ بالفعل، ولكن للحياة أهدافًا أخرى.

ثم ذهب إلى المكتب وعاد منه بكتيب.

ـ زينون الرواقي، لا بد أن العنوان هو «الحياة وفقًا للطبيعة».

وضعت صحن الحساء.

ـ هناك صفحة مثنية وعلامة.

ـ ها هي. «كل عناصر السعادة توجد في حياة الفضيلة. لا يوجد أي خير بعيدًا عن ذلك الموجود، بطريقة مطلقة وفريدة، الخير في حد ذاته، الذي هو الصدق. الخير له جاذبية غريبة لمن يتمناه. بعيدًا عن الفضيلة، لا أهمية لأي شيء آخر لبلوغ الخير...».

قال:

ـ حسنًا.

ثم جلس على «الأفنتينو»، وعندما أعطيته الكتاب وضعه بجوار الهاتف. كان متعبًا.

جهزت المائدة بعناية، ووضعت مفرشًا بهيجًا عليه زهور عباد الشمس لأمنح دفئًا للمطبخ، وكأنه سيتمكن من تقدير ذلك الاهتمام. ثم دعوته ليجلس.

أخذ يبحث عن الملعقة الموضوعة بجوار الصحن بيده. قربتها منه ببطء تحت أصابعه، بحيث يعثر عليها بمفرده، من دون أن يضطر إلى السؤال.

استطعت أن أنجو من «الكي جي بي»، فهي لم تدرك أنني أمكث في منزل البروفيسور منذ أكثر من شهر. والفضل في ذلك يرجع إلى طبيبها المعالج:

وصف لها أدوية لتزيل الحصى من المرارة، وطلب منها أن تلتزم حمية غذائية لمدة ليست بالقليلة.

عرفت هذا بالمصادفة من السيدة فافيلَّا، وقوفًا في الصف عند الفران، كما عرفت أيضًا أن تلك الجارة «الكي جي بي»، لقبها «لينزي».

لهذا السبب اختفت، لا توجد أي تحركات، ولا رحلات بعربة التسوق، ولا نميمة. لم ترَ حتى الجبس.

لحسن الحظ، لأنني أعد شيئًا شبيهًا بنقل الأثاث، كان لديَّ ما أفعله.

قال لي البروفيسور:

ـ إذا كانت ستفيدك في منزلك الجديد، خذي أيضًا المرآة.

ـ ولكن ماذا عن إليزا؟

ـ إليزا إذا نظرت في المرآة ترى فقط ما ليس لديها، إذن لن تُطالب بها. للمرايا دائمًا توابعها الوجودية.

يا إلهي، تمنيت ألا تكون الأقوال الفلسفية حول المرايا كثيرة، إلا أنه أضاف:

ـ عالم «مونادات» لايبنتس مثل المرايا... خفايا فريدة ومنعكسة.

لحسن الحظ لم يُكمل.

ذهب إلى الصالون وهو يفتش في جيبه، ربما بحثًا عن الفتات.

عندما ظهر من جديد علق برضا:

ـ في رأيي أعادت بناء عشها.

ـ لقد أغلقت مصراع النافذة، وهكذا لا يمكن لأرتورو الدخول وإزعاج أحد.

في الواقع دخل أرتورو في أثناء وجوده متدثرًا تمامًا في الشرفة، ولم يُقدر جيدًا إمكانية أن تمطر قَطٌّ على رأسه. رأيته في الواقع يقفز من السطح، ثم يندفع ليُعمل مخالبه على الستارة: لا بد أن هذا يعجبه جدًّا، وذلك بالحكم على كم الخيوط المشدودة.

في تلك الظهيرة طلبتُ من البروفيسور أن أذهب لأرى المنزل الصغير للسجين ما دام هناك بعض النور.

قال:

ـ سآتي أنا أيضًا، من جهة أخرى فأنا صاحب الفكرة، ولا بد من تحسس الطريق لنتأكد من أن زوجة السجين لا تعرف أي شيء.

ثم أمسك بالهاتف.

اخترع هو والسجين كذبة من أجل الزوجة، وفي النهاية اتفقا على موعد بالقرب من كشك لبيع الصحف. شيء يشبه ما كان يحدث لي في سن الثالثة عشرة مع صديقاتي.

سألني البروفيسور:

ـ في أي ساعة ستغرب الشمس في رأيكِ؟

ـ في الخامسة، تقريبًا.

ـ إذن، لا بد من أن يكون لدينا مصباح جيب.

وكان السجين معه مصباح، يحتفظ به في عمق جيب معطفه.

ـ أحسنت، فهو مفيد في السجن.

ولم تكن أورورا موجودة لتهدئ الأوضاع، وانهمكت جدًّا في قيادة البروفيسور على الرصيف الضيق وغير المترابط. المشكلة دائمًا العوائق المتحركة أو شبه المتحركة، من السلالم الصغيرة التي يجب توقعها إلى المساحات التي يجب حسابها. وللأسف، نسي البروفيسور هذه المرة المظلة التي تساعد، على الأقل جزئيًّا.

قال:

ـ اليوم لن تمطر.

ولم أصر أنا، والآن يتقدم مع السجين الذي يعمل كمرشد طريق.

وكانت هناك رياح. فأطلق البروفيسور حكمه، بالإضافة إلى نظرياته:

ـ رياح شمالية، وهذه تأتي مباشرة من جزيرة إستريا، تعبر بين الجبال وتهبط كما فعلت القوات التي غزت إيطاليا في زمن الرومان.

تمتم السجين وأومأ من تحت قبعته الفرو التي تثبت سلسلة النظارة

المربوطة بلاصق. يسير منحنيًا في معطفه المصنوع من وبر الإبل، وكأنه شخص قضى حياته مُنكبًّا على الكتب.

عندما وصلنا إلى طريق ماتزيني من خلال مدينة بورجو كابوتشيني لمحت تجاه البحر النور الذهبي للغروب. من منزل البروفيسور كان يمكن رؤية الشمس تضرب في جدران المكتب، ومن ثَم تدفئ الصفحات المفتوحة من الصحف والكتب. من يدري ماذا يحدث هناك... شعرت بالانفعال، ولم أستطع أن آكل ولا حتى حفنة مكرونة «فوزيلي». أكل البروفيسور الطبق كله، بالنسبة إليه هذا النوع من المكرونة محبب لأنه يبقى ملتصقًا بالشوكة.

قال السجين:

ـ حسنًا، ما زالت الشمس موجودة، إذن في الطابق الرابع لا بد أن نستطيع رؤية شيء ما.

ثم اتجه بعدها نحو البوابة القاتمة، من تلك التي لها عتبة صغيرة أمامها، وأخرج من جيبه مجموعة من المفاتيح التي بدت وكأنها لسجن. في الداخل صدمتني رائحة الرطوبة المالحة والجدران الخشنة. في جهة توجد عجلات مصدأة مسندة تحت صناديق البريد، وخلف الصناديق يظهر باب من الحديد الذي ربما يقود إلى المخازن. أمامنا يوجد سلم من الحجر الرملي الرمادي، حاد وغير متساوٍ بعض الشيء. كانت الأرضية تبدو كرقعة شطرنج تتكرر حتى الدرج الأول، وعلى السلالم تفتح نوافذ ضخمة بإطار حديدي، بعضها زجاجه مكسور. في زمن ما لا بد أنها كانت بناية جميلة، ولكن الآن مهملة جدًّا.

صعدنا ببطء، ثلاثة أبواب في كل طابق، يُسمع منها بعض الأصوات المتفرقة أو مذياع مفتوح.

سأل البروفيسور:

ـ ألم تأتِ إلى هنا من مدة طويلة؟

ـ تقريبًا سنتان.

ـ لا تقل شيئًا.

بدأ ينهج بعد طابق واحد. توقفنا. ومن أحد الأبواب خرج صبي ومعه لوح تزحلق وأسرع إلى الأسفل على السلالم وكأن هناك سربًا من الدبابير يطارده. ربما تحرك البحر.

في الطابق الثالث يطهون الكرنب الأجعد، في الرابع يسود السكون.

قال السجين متقطع الأنفاس:

ـ ها قد وصلنا.

ثم أضاف:

ـ الآن لنجلس قليلًا.

كنت فضولية ومتعجلة، أخذت أنظر إلى كل تلك المحاولات السيئة للبحث عن المفتاح الصحيح لباب صغير من الخشب القاتم. كان محصنًا بشكل عجيب، قال السجين إنها فكرة ابنه الذي لجأ إلى المكان في أثناء الدراسة الجامعية.

كان المدخل ضيقًا: دخل السجين أولًا، ببعض الحرص. ثم قدت أنا البروفيسور، وأنا أتأكد جيدًا من عدم وجود أي عوائق. كان المكان مظلمًا، ولكنه لم يكن ظلامًا حالكًا. تقدم البروفيسور بمفرده وعثر على مقعد، هو فقط يتحرك بسهولة في تلك الظروف. ذهبت نحو النافذة لأفتح المصاريع. كانت الإطارات قديمة ومقشرة بعض الشيء، وكل المفصلات تصر، ولكن النوافذ تتوجه نحو الجنوب، وكانت ثلاثًا. في الحمام كوة عالية لا يمكن الوصول إليها، والصنابير مرصعة.

قصر.

قال السجين:

ـ المكان بارد لأن الغاز مفصول، ولكن توجد المدفأة التي عمرها بضعة أعوام. لا بد من فحصها، ولكنها تعمل. أنا لست خبيرًا. حضرتك بالتأكيد ستفهمين فيها، مثل كل النساء. في رأيك يا لوتشانو، كيف تفهم النساء في كل شيء دائمًا؟

أي عذر كان جيدًا للخوض في حوار حول الموضوعات المجردة.

ـ في رأيي لأنهن يملكن سر تركيبة المادة.

ـ أهذا رأيك؟

ـ أجل، أعتقد أن هناك سببًا ميتافيزيقيًّا.

ـ هذا موضوع سيثير اهتمام زوجتي.

ـ أرى أنه من الأفضل أن تواجه أنت هذا الأمر مع زوجتك.

ضحك وتابع:

ـ فهي إذا أصرت على رأيها تحدث مآسٍ.

قاطعتهما:

ـ هذا المنزل رائع!

ـ أهذا رأي حضرتك؟

ـ سأنظمه بشكل جيد، سترى!

كانت الشمس من نافذة المطبخ تضفي صبغة وردية على الجدار. إذا فتحنا الزجاج ستدخل رائحة الملح، ولكن ليست الرياح الشمالية حيث إن المنزل يولي ظهره للشمال الشرقي.

نظرت إلى الزوايا: لم يكن هناك عفن، أخيرًا.

استمر البروفيسور والسجين في التحدث حول تلك الموضوعات التي لا يمكن الإمساك بها والمتبخرة كالهواء الذي نتنفسه. أحدهما قبالة الآخر، على مقعدين متربين من الخشب، وكأنهما شخصيتان في لوحة. تلك الشخصيات التي تمنح معنى للوحة حيث كل ما عداها يكون في الظل بينما هي تعكس النور أو تنتجه.

كان «العبور الكبير» الذي يؤدي إلى عيد الميلاد يسير على أكمل وجه.

أدركت أنا هذا فقط عندما عدت إلى السوق المركزية. من الباب يدخل تيار حاليًّا مثلج، ولكنه خريفي بعض الشيء، كان الناس فرحين حتى بما

لديهم من نقود قليلة في جيوبهم، والباعة الباقون أمام طاولاتهم يشمرون أكمام الكنزات ويرتدون البيريه الصوفي على رؤوسهم. وسط الصالة الكبيرة، من جهة الآبار، كان كل شيء مجهزًا بالفعل بالزينة الحمراء مع العديد من خيوط الليف والكرات الفضية. لا بد أن أسرع. من يدري كيف تبدو الشجرة في التقويم الذي تركته معلقًا على جدار منزلي السابق، ربما الثلج فوقها.

فكرة أنني أستطيع أن أضع «السابق» قبل الكلمات كانت خفيفة ومُحببة، خفيفة بالدرجة نفسها التي كان فيها الموقف ثقيلًا قبل ذلك الصيف شديد الحرارة. ألقت الحياة بنفسها فوقي قبل أن أتمكن من الاستعداد، وكأنها أحد تلك العاكسات الضخمة لاستاد، تغشي النظر على الفور ثم تنير جيدًا الزوايا.

هذه المرة في السوق حسمت أمري تجاه عرض جيد للخرشوف: تلك المليئة بالشوك، وفقط عندما رأيتها في الكيس أدركت أن عليَّ تنظيفها. ثم، ونظرًا إلى أنني هناك، أخذت بطاقة العمل لمُبيض، تركها موزعة على كل الطاولات، الذي يستعرض سيرة مرحبة «أيضًا بالمشروعات الصغيرة».

عثرت لنفسي على سكوتر من نوع الخمسين. لم تكن فكرة عبقرية أن أذهب لأبتاعه في الشتاء، ولكن كان السعر جيدًا وسأنتهي من تسديد ثمنه خلال عام. لونه أزرق، تمامًا مثل زرقة الليل في عيد الميلاد، وسهل الاستخدام.

اتجهت إلى بيت البروفيسور بالحقيبتين المليئتين بالخرشوف والكليمونتين، وابتعت خبز البيتزا المُعد للتوِّ من مكان قريب من الآبار، لألقي بنظرة أخرى إلى القناة.

يمكنني أن آخذه له أيضًا فاترًا، إذا استطعت مع كل هذا البرد، برد شديد، ولكنه لم يكن قارسًا قَطُّ على السكوتر كما كنت أشعر به سيرًا على الأقدام. من يدري لماذا.

علق هو بينما يمضغ بتعب، ولكن برضا:

ـ طيبة، هذا ما أحتاج إليه بالفعل. هل توجد قطعة أخرى؟

أعجبته جدًّا إلى حد أنه نسي أن يطلب مني القهوة.

عبر عن إعجابه أيضًا بالخرشوف، بل أكد أن له «كرامة معينة وسط الخضراوات ذات الطابع الملكي»، وفي الوقت نفسه، من دون تفسير، سلمني ملفًّا كاملًا عن الأدوية لأضعه في النفايات.

ـ حسب ما أفهم ستظل فالِّي معتكفة في منزلها حتى احتفال الميلاد، وفي الميلاد ستنسى أنها أرادت ملفًّا حول أحدث الأخبار المتعلقة بأمراضها.

ـ وما أمراضها؟

ـ كل شيء، في رأيها، أيضًا تلك الموجودة في الملف.

بعد ذلك على الفور رن الهاتف مثل كل صباح. الآن أعرف الطقوس ككف يدي، موعد ثم فيلَّا فابريكوتي. ولكن هذه المرة كان المُتصل هو السجين. سيمر على البروفيسور مع أورورا لـ«يؤدي الحراسة»، ثم سيترك له سواء الصحف الخاصة بالشهر السابق أو «الأشياء».

عندما ذهبوا أخذت أنظف المكتب، الوصول إلى كل الأسطح في كل مرة عملية صعبة. تسقط الصحف وحدها، ربما أيضًا في الليل، من الأرفف حيث تراكمت بشكل غريب. أما الكتب فتبدو كأنها تتحرك، وتتمدد، وتحافظ على توازنها، مستعدة لتُلقي بنفسها أرضًا. أخذت أراقبها بطريقة أفضل. أصبح يوجد أكثر من المجلدات المعتادة في وضع أفقي فوق الصفوف، وتلك، لم تعد مناسِبة للفراغات التي خُلقت لأجلها، تتزحلق بانحراف وتتقدم وكأنها تبحث، بلا جدوى، عن مراكز دعم. وبالاقتراب منها أدركت أنه خلف كل صف يوجد آخر. جميعها تتعلق بالكون، أو نسخ من «خواطر» باسكال أو «محاورات أفلاطون». شيء غير محدد يربط بين تلك المجلدات، وكأنها علامات يحتاج البروفيسور، بشكل دوري، إلى أن يفحصها. يأخذها بين يديه ويقلب كل الصفحات، بتلك الطريقة المعتادة. ويفعل ذلك أكثر. من يدري لماذا يفعله، ربما كان نظامه الخاص ليستدعي المحتوى من الذاكرة. على كل حال، من الواضح أن كل يوم تتحرك بعض الكتب أو تنتهي فوق أخرى، مستلقية وكأنها جندي أصيب في معركة.

وعدت نفسي بأن أراقب تلك الظاهرة. شيء ما كان مؤكدًا: كلما مرت الأيام تضاعف عدد المجلدات الموجودة خارج مكانها. إلا أنه لا يوجد أحد آخر يدس أنفه بين أشيائه عداي، وفقط عندما يُطلب مني ذلك.

توقف أيضًا عن الكتابة في دفاتره. تلك التي وجدتها في المكان جديدة تقريبًا، مع بعض الصفحات المخربشة في نهايتها، أو بعضها تم تجاهله وكأن الفراغ ساد بين فكرة وأخرى.

قال وهو داخل ينهج بشدة:

ـ ها قد وصلت! لقد صعدت طابقًا على قدميَّ لأصحب لينزي بعربة الشراء.

أخرج شيئًا ما من جيبه:

ـ لقد فعلناها يا ماريا فيتوريا.

ووضع بين يديَّ قرطاسًا من ورق صحيفة.

ـ افحصي جيدًا الوصف الذي قُدم لي: واحد صغير، ثم آخر طويل بأسنان غير منتظمة، وواحد من نوع العصور الوسطى. كلها معلقة على شعار ليفورنو. هل الأمر كذلك؟

أجبته وأنا أنظر إلى المفاتيح:

ـ إنه كذلك.

ـ ستبدئين حياتك الجديدة، لكل واحد منا وقته...

أردتُ أن أعانقه.

الفصل السابع عشر
بما في ذلك البطاطس المقلية

تساءلت إذا حان الوقت لأُعلم أمي.

أفكر في هذا منذ مدة، ولكن لم أعرف من أين أبدأ.

من الصعب بداية حوار معها، تستطيع أن تعبر عن عواطفها فقط لشعلات موقد الغاز. زينها أخي ببعض الأحفاد وكأنهم الكرز على قالب الحلوى. ومنذ أن ولدوا وهي تطالب بأن يدعوها الجميع بـ«الجدة»، حتى نحن الأبناء.

ولكن نظرًا إلى أن عيد الميلاد بات وشيكًا، لا بد أن أسكت ضميري.

أخبرت البروفيسور بأنني سأخرج في أثناء جولته القصيرة الصباحية، وطلب مني أن «أعوضه» ببعض البطاطس المقلية في الواحدة والنصف.

ـ هذا فقط؟

ـ فقط هذا.

وبينما أنزع المريلة وأضع حذائي، صرخ:

ـ لا أعتقد أنه يوجد شيء على الأرض أكثر كمالًا من البطاطس المقلية. فيما عدا تمثال داود لمايكل أنجيلو، أو قبة برونيليسكي.

ثم ضحك راضيًا، وأخذ يلف حول الهاتف.

ـ الزيت على وشك الانتهاء...

حاولت أن أثبط من عزيمته.

ـ حسنًا سأبتاعه أنا من نقودي.

تركته على «الأفنتينو»، وأخذت السكوتر.

تعيش أمي بالقرب من المحطة، في مبنى يذكرني بمبنى السوق المركزية، بسبب فخامته والنوافذ الضخمة. المنزل الذي كبرت فيه ربما أقدم من ذلك الذي للبروفيسور، ولكن أصغر حجمًا، وفي الطابق الأول. عند موت أبي مكثنا نحن الثلاثة نتنقل بين تلك الغرف.

وصلتُ وكان تقريبًا منتصف النهار. لم أنزع الخوذة ومكثت لأنظر إلى المشهد: أخي الذي ركن سيارته تمامًا أمام المنزل، فتح باب السيارة وأخرج ابنه الصغير وأرسله إلى الجرس الداخلي. لم ينزل حتى، اتصل لتنزل أمنا. ولكنه انتظر إلى أن ضغطتْ هي على زر فتح الباب.

لم يرَني حتى.

صعدتُ مستخدمة مفاتيحي، ووجدتها تقلي البصل، كما تفعل كل صباح منذ أربعين عامًا. يلتقط الصغير، فعلًا، فولًا سودانيًّا من كيس صغير بلا رقابة.

ـ وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟ هل تشاجرت مع زوجك؟

ـ أتيت لأسلم عليكِ و...

ـ لم أرَكِ منذ مدة كبيرة! ساعديني مع باولينو.

ولم تبتعد عن القدر.

أخرج لي باولينو لسانه ليريني السوداني المعلق بين أسنانه.

ـ كنت أريد...

ـ توقف عن أكل تلك الأشياء ستصيبك بمغص في بطنك! خذي منه هذا الكيس فأنتِ بالقرب منه، وانظري إذا وضعت له كوبه الصغير وعليه صورة «باتمان» وإلا لن يأخذ الفيتامين.

وضعت السوداني في الأعلى كما أفعل عادة مع البروفيسور، وكان الكوب عليه «سبايدرمان»، ولكن لم يبدُ لي هذا أمرًا مهمًّا، ولم يبدُ لي ابن أخي أيضًا مهمًّا.

ـ هل تعرفين أن باولينو يغني بدايات أفلام الكارتون؟ أسمِع عمتك!
أخذ يغني بعبارات غير متصلة.
سألته:
ـ هل تعرف ماذا تغني؟
ـ الأمر سيان.
ـ لا ليس سيان، تعالَ سأعلمك.
ـ لا يهمني.
ـ ولكنها كلمات غير مترابطة.
رفع كتفيه، وكان فخورًا باللامبالاة.
سألته، لمجرد السؤال:
ـ وكيف الحال في المدرسة؟
ـ اليوم رسمت.
أحضر لي ورقة عليها شخصيات عديدة تقف في صف أمام أحد المنازل.
ـ ذلك الكبير هو بابا، ثم أنا، ثم الجدة، وماما، أخي وجدي وسيمونا.
ـ ومن سيمونا؟
ـ المُدرسة.
ـ وأنا؟
ـ تقفين في الخلف.
أدار الورقة ورأيت شخبطة.
قالت أمي بسعادة:
ـ وضعني في المكان الثالث، قبل أمه.
ـ أسباب للرضا، هه؟
ـ بالتأكيد، اذهب يا باولينو إلى هناك لترى المفاجأة.
وهرب.
ـ اسمعي أريد أن أقول لكِ شيئًا.

ـ مرري لي سلطانية المكرونة. أجل، قولي لي ماذا ستهدين إلى ابنَي أخيكِ في عيد الميلاد؟
ـ كتبًا مناسبة لسنهما، أو بطاقة دخول عالم البحار.
ـ ولن تهديهما أي لعب؟
ـ لا.
ـ واضح أنكِ لا تفهمين في الأطفال.
ـ في الأطفال ربما لا، ولكن في المسنين أجل.
ـ ومن المسنون، أنا؟ هل أتيت، بالمصادفة، لتضايقيني؟
ـ لا، لقد أتيت لأقول لكِ...

المحاولة الأخيرة.

ـ نظرًا إلى أنني مُسنة لماذا لا تأتين لمساعدتي في غداء عيد الميلاد؟ سنكون ثمانية بالفعل، اطهي شيئًا أنتِ، ويجب أن أفعل كل شيء بمفردي.

وصل الطفل ومعه حفار بين يديه، يتسبب في صخب وكأن لديه عشرات الضفادع بداخله. أخذ يصيح ويقفز من الفرح.

ـ إنكَ كنز حياتي!

وابتعدت عن القدر لتُقبله على جبهته.

ـ هل ستلعبين معي؟
ـ حبيبي أنا أعد المكرونة، تلك التي تحبها.

كانت على وشك أن تضع فيها فلفلًا روميًا، من المؤكد أنه لم يكن يشعر بألم في معدته.

أتى إليَّ.

ـ هل ستلعبين؟

استسلمت.

ـ إذن، أنتِ ستستلقين على السجادة، وأنا سأحفر ثقبًا بهذا، وأضعك بداخله بعد أن أطلق عليكِ النار.

من يدري ماذا يقولون عني في المنزل.

ـ ربما يصنعون الأنفاق ليبحثوا عن أطلال أثرية، ما رأيك؟

ـ ولكن يا للقرف، أنتِ مملة!

ـ قلت لكِ إنكِ لا تجيدين التصرف مع الأطفال.

ـ ربما، ولكن لا أعتقد أنه يجب إرضاؤهم فحسب، كنت تقولين ذلك دائمًا.

ـ إن الجدة أمٌّ مرتين. الذي لا تفهمه في المرة الأولى تفهمه في الثانية. أعطيني المسَّاكات.

قمت بكل سرور من «حفرتي».

ـ وأنتِ كيف حالك، هل انتهيت من الشجار مع زوجك؟

ـ أجل انتهيت.

فقدتُ الرغبة.

ـ حانت الساعة، تعالَ يا فأري الصغير، لا بد أن أعطيك النقاط.

ـ ولكن هذا «سبايدرمان».

تذمر الفأر الصغير.

ـ يا إلهي، ولكن عمتك ليست قادرة حتى على أن تميز بين «باتمان» و«سبايدرمان».

عندما رحلت، تركت هناك مفاتيح ذلك المنزل.

لم يكن البروفيسور قد عاد بعد، أخذت أقطع البطاطس لأقليها.

كنت أريد أن أعدها بأفضل الطرق، واندمجت في هذا وكأنها مسألة حياة أو موت.

دخل متقطع الأنفاس ومسرورًا.

ـ ذهبت إلى تراس ماسكاني مع أورورا في السيارة.

ـ وهل المكان مُريح؟

ـ فردوس، مكان حقيقي للذهن.

ذهب لينزع عدته، ويترك الصحف.

سألته عندما ظهر من جديد:

ـ بمعنى؟

ـ إنه مكان تجد فيه كل فكرة مساحة لتنطلق، وتختفي تجاعيد النفس ببطء، حتى ولو لبعض الوقت.

مكث برأس منخفض، في انتظار أن تعود إليه طاقته.

ـ ثم إن هناك مساحة البحر كبيرة بحيث تمنح شيئًا من التماسك ومذاقًا للذكريات.

كان يتحدث بشكل شاعري.

ـ حضرتك مُحِق، بطريقة ما يحدث هذا أيضًا معي. اعتقدت أنه نوع من أمراض أهل ليفورنو، أن يذهبوا ليتمشوا على التراس.

ـ ليس مرضًا، بل تعافيًا.

بدا لي أنه ليس بخير.

ـ هل سرت على الشطرنج الرخامي يا بروفيسور؟

ـ سرت بالتأكيد، ولكن على شطرنج الذكريات، لأنني لا يمكنني أن أبتعد.

التزم الصمت، وكأنه يبحث عن بعض الكلمات الأخرى أو ليستعيد فكرة عميقة غاصت في الزمن.

ربما كان يفكر في بيزا، في ذلك الشارع، شارع فاجولي، الذي كان يتمشى فيه في شبابه مع خطيبته.

ـ بروفيسور... ماذا عن فيلّا فابريكوتي؟

ـ ذلك مكان مختلف، مثل امتداد للحياة المنزلية. ليس له أنفاس تراس ماسكاني نفسها، فهو مكان مألوف أكثر، مزدحم بالتماثيل، يدعو إلى مسارات غامضة تحمل بداخلها آثار الحياة اليومية. لا بد أن أعود إلى هناك كثيرًا، قبل أن يجتاحني التعب.

سألته:

ـ هل تنام جيدًا في الليل؟

ـ بالتأكيد.

كذب، لأنني كثيرًا ما أسمع المذياع مفتوحًا في الرابعة صباحًا.

ـ إذن، عن أي تعب تتحدث؟ لا تقلقني.

ـ التعب يا ماريا فيتوريا، ذلك الذي في لحظة ما يجتاحنا بالضرورة.

أطفأت الغاز، وأحضر هو لي نسخته من إبكتيتوس:

ـ من فضلك، يجب أن أنعش ذاكرتي عن السابع.

وجلس على «الأفنتينو».

ـ «مثلما يحدث حين ترسو سفينتك في رحلتها بعد حين بأحد الموانئ: إذا ذهبت لكي تشرب فقد يطيب لك في الطريق أن تلتقط قوقعة من هنا أو كمأة من هناك. غير أن فكرك وانتباهك ينبغي لهما أن يكونا مُلتفتين دومًا إلى السفينة، مُرتقبًا نداء القبطان للإبحار. هناك يتعين عليك أن تُلقي بكل هذه الأشياء وإلا فسوف تُربط ويُلقى بك في السفينة كالشاة. كذلك الأمر في الحياة: فإذا وُهبت، بدلًا من القوقعة أو الكمأة، زوجة أو ولدًا، فلا بأس. ولكن إذا ما نادى القبطان فإن عليك أن تُهرِع إلى السفينة، تاركًا إياهما، غير مُكترث بأي منهما، أما إذا كنت شيخًا طاعنًا في السن فإياك أن تبتعد عن السفينة، وإلا فلن تكون قادرًا لحظة الاستدعاء على المجيء في الموعد».

أعطيته الكتيب من جديد وذهبت لأقلي البطاطس. وهكذا أحضرتها إليه، قبل العشاء، بينما يجلس على أريكة الصالون مع المذياع. كانت الشمس تُغرق الغرفة بشدة، ولكن استمر هو في الجلوس متدثرًا، وكأنه لا يشعر بها.

علق، ممسكًا بقرطاس البطاطس:

ـ هذا هو الكمال، خلاصة روح الإتقان. ولكن للأسف الجو شديد البرودة.

كنت أريد أن أعطيه مقياس الحرارة، ولكنني كنت متأكدة أنه سيرفضه: يمسك قرطاس البطاطس بقوة وكأنه كنز يقدِّر تكوينه وحرارته، أكثر من مذاقه، وبدا لي هذا غريبًا. اجتهدت في محاولة أن أفهم إذا كان مصابًا بالحمى أم ماذا، ولكن عرفت، في نهاية الأمر، أن هذا لم يعد مهمًّا، كان مثل من تجاوز شيئًا كالمرحلة التي تُقربه من هدفه، وبدأ في تقدير الأشياء المعتادة بطريقة مختلفة، بما في ذلك البطاطس المقلية.

ـ ماريا فيتوريا، بالقرب من سبينوزا يوجد كتاب «التطور الخلاق»، هل تحضرينه من فضلك؟

ـ هل يمكن أن نفعل هذا بعد الغداء؟

ـ حسنًا، بعد الغداء، ولكن في أثناء ذلك إذا وضعته لي هنا بجواري فسأرتهن الفكرة.

الأمر الغريب أنه ذلك العصر نام على المقعد، شيء لم يحدث من قبل. لم يجعلني حتى أبحث عن الصفحة التي رغب في الاستماع إليها. لأطمئن ألقيت باللوم على جولة التراس، ربما كان الجو شديد البرودة، وعلى الطعام المقلي، من المؤكد أنه كان ثقيلًا عليه، حتى وإن أكل القليل جدًّا من البطاطس.

خرجت بهدوء حتى لا أزعجه، وذهبت في زيارة سريعة إلى طريق ماتزيني لأجرب المفاتيح ولأختبر التأثير الناتج عن الدخول إلى مكان لي وحدي.

وصلت إلى الطابق الرابع يدفعني الحماس. تسبب لي صعود الطوابق الأربعة على قدمَي بتعب أقل من صعود سلمتين في منزلي القديم. حاولت أن أكون موضوعية، لأنني أعرف أن النشوة يمكن أن تمزح بسخافة. فُتح الباب بسهولة، مُحصن كما رأيته من قبل، إلا أن تلك الداخلية كانت من زمن التآمر: من الخشب، ذات دهان أبيض متهالك، وزجاج مبرغل. لم يكن بالإمكان استخدام الأقفال حتى في الحمام، والمقابض من القصدير ومجمدة. لكن لا مشكلة في هذا، فالأبواب التي لا بد من غلقها جربتها

بالفعل. يوجد مصباح من السبعينيات على شكل كرة أرضية، ومرآة في إحدى الغرفتين، بيضوية طويلة وقاتمة، موضوعة خلف الباب. للسقف دعائم مرئية والأرضية من حجر الطاحون القديم على شكل بلاطات موضوعة بشكل سيئ وبعضها بارز هنا وهناك. كل الجدار المقابل للنافذة مشغول بخزانة قديمة، من تلك التي تعود إلى زمن ما، مستديرة بعض الشيء من الأمام، ورجلها معوجة، ولم يكن لها سوى بابين. تحت النافذة كان يوجد كومودينو من الحديد المشغول بزجاج وبجواره الفراش ذو الألواح. فراش فردي وصغير ويميل بعض الشيء إلى الأسِرَّة المتنقلة، إذا لم يكن فيه مسند من الجلد الصناعي المبطن، ربما ليتمكن المرء من الجلوس والقراءة. في الواقع ذلك النوع من المكاتب بين الخزانة والفراش دعوة إلى التفكير بأنه منزل قارئ، وكان يوجد واحد آخر في غرفة المعيشة. أما بالنسبة إلى طاولة الطعام فكانت من الفورميكا، موضوعة في زاوية في المطبخ الصغير، وكأن تناول الطعام أكثر نشاط مخجل للساكن. توجد أيضًا بعض الأرفف حيث اعتاد بالتأكيد تسكين الكتب. والشيء الوحيد المتبقي كان مجموعات من صور توسكانا، ثلاث فقط.

جلست على المقعد لأختبر مدى راحته، تخيل نفسي هنا يمنحني بعض القشعريرة بسبب الاستقلال والحرية والحميمية. يعجبني حتى كل التراب الذي تراكم، ويشهد على السلام السائد لمدة طويلة بين تلك الجدران. ثم ذهبت لأضع نفسي على الفراش متكئة على المسند: من النافذة تدخل حزمة من الضوء مصممة بإعجاز من حبيبات الأتربة، وبالنظر إليها بدأت أتخيل. هنا سأقتطع لنفسي لحظات من الكسل من دون الشعور بالذنب. سأمكث تحت الأغطية، في الصباح لأستمع لضوضاء جديدة، تلك الموجودة دائمًا في منزل مجهول. سأضيف شيئًا يخصني، مثل: مطفأة السجائر التي أتمسك بها كثيرًا، ومصباح طاولة جميل، وقميص جديد لأضعه في الخزانة، وعبوة طلاء الأظافر المهداة من إليزا، وفرشاة الأسنان، وقطاعة قالب الحلوى.

عجَّ ذلك المنزل بالمقترحات، بدا بالفعل منزلي. ولكن مر الوقت. أغلقت الباب بعجلة وهرولت على السلالم وكأنني أعرفها مثل كف يدي، حتى تلك المخلخلة.

بمجرد أن وصلت عند البروفيسور ذهبت لأبحث عنه في الصالون، ما زال على المقعد، ممسكًا بالمذياع الصغير وبدا وكأنه لم يدرك شيئًا.

أغلقه:

ـ هل تقرئين لي الآن عبارة برجسون؟

أخذت الكتاب الذي تركته بالقرب منه، مؤلَّف لم يطلبه مني من قبل.

ـ هناك في الفقرة الرابعة بعض الاعتبارات عن الشيخوخة التي أريد أن أستحضرها. لا بد أنها مكتوبة بالخط المائل.

ـ «أينما يعيش أي كائن، يُفتح في مكان ما سجل فيه يُكتب الزمن». جميلة تلك العبارة.

ـ بالفعل... اقرئي بعد ذلك بقليل.

ـ «نرى دائمًا أفضل، رويدًا رويدًا من خلال التقدم في دراستنا هذه: ليس من السهل، عندما نفكر في الوقت، الهروب من صورة الساعة الرملية. إن سبب الشيخوخة لا بد أن يكون أكثر عمقًا...».

ـ بعد ذلك ببضعة أسطر من فضلك.

ـ «إن الدفعة التي من أجلها يكبر الكائن الحي، ويتطور ويشيخ، هي تلك نفسها التي جعلته يعبر مراحل الحياة الجنينية».

ـ أعطيني هذا الكتاب، شكرًا.

مر الطبيب علينا قبل أن يذهب إلى العيادة، فقط لأنني أسرعت باستدعائه، من دون علم البروفيسور، ومن دون علم أي شخص، نظرًا إلى أنني شعرت بالقلق بسبب ذلك «التعب» وبسبب فقدان الشهية.

قال لي:

ـ لا تقلقي، أعرف دجاجاتي. سأقول له إنني أتيت لأبحث عن كتاب لن يكون لديه بالتأكيد.

ـ لا تستهِن به.

أكَّد واثقًا:

ـ ليس لديه هذا الكتاب، سأعطيه له بالتأكيد وكأنه تشخيص لالتهاب البلعوم.

كان البروفيسور يحرك ذراعه حول المكتب بحثًا عن ساعته الناطقة، التي فقدها، من باب التغيير. لم أعد أهرع لنجدته، فقد فهمت أن عملية البحث هذه جزء من طقوسه اليومية.

ـ أنا في أحسن حال، لماذا أتيت حضرتك؟

قال مدافعًا بمجرد أن سمعه:

ـ أنا في حاجة إلى كتاب قصة مصورة: «أرتشيبالدو وبيترونيلَّا».

وغمز إليَّ بعينه.

ـ امـمـم... العنوان ليس جديدًا بالنسبة إليَّ.

ضحك الطبيب:

ـ نظرًا إلى أنني موجود سأقيس لك الضغط.

ترك الطبيب يفحصه بلا مقاومة، هو منهمك في بحث ذهني عن «أرتشيبالدو وبيترونيلَّا». ثم فحص الطبيب بطنه حيث يوجد جرح طويل على شكل حرف «L»، وجعله يتنفس لكي يستمع إلى رئتيه. كل شيء تم في المكتب، فوق المقعد الذي لم يرغب في تركه، نظرًا إلى أن الساعة المتحركة لا بد أن تكون هنا. لأنه يسمعها.

علق الطبيب:

ـ لا يوجد شيء جديد، سأذهب لأرى هناك في الخزانة إذا كان لديك ما يكفي من أدوية حتى يناير.

اصطحبته مرة أخرى حتى الباب، حيث لحق بنا البروفيسور ومعه كتاب ضخم في يده:

ـ انظرا هنا أي عنوان يمكن أن يكون هذا؟

قلنا معًا أنا والطبيب:

ـ «أرتشيبالدو وبيترونيلَّا!».

ـ آه، إليك، كنت أتذكر جيدًا...

كان غلاف الكتاب برتقاليًّا وخشنًا، ولا بد أن يأخذه الطبيب معه إلى المنزل، سواء أراد أم لا.

بعد نصف ساعة رنَّت السيدة فافيلَّا الجرس ومعها لفة ملونة بين يديها. قالت لي إن هذه «هدية صغيرة بمناسبة المنزل الجديد»، ثم اختفت على الفور.

ـ أجل، في الوقت المناسب.

كان البروفيسور قد سمع.

ـ أنا أيضًا لديَّ هدية من أجلك.

وأخذ يفتش في مصراع من خزانة الحائط في الردهة. من الصخب فهمت أنني لا بد أن أنظم المكان، إلا أن المبادرة مؤثرة. شد إلى الخارج مصباحًا ضخمًا، تمامًا مثل ذلك الذي كنت أتمنى أن أعثر عليه لنفسي، ولكنني فكرت: ربما أخطأ. ولكن لا، كان بالفعل يبحث عن ذلك. مصباح مكتب قديم، وكأنه أباجور كبير ومستدير، أخضر فاتح وتوجد قاعدة مصباح لامعة عريضة فوق مفتاح التحكم. يبدو مصباحًا جديدًا، ملفوفًا في السيلوفان. حتى السلك كان جديدًا، قاسيًا بعض الشيء ومجموعًا في قطعة من الحديد.

ـ لم أعد أستعمل المصابيح، ولكنني ارتبطت بهذا كأداة زمن ما، حضرتك تعرفين هذا. إنه مفيد، ابتعته معتقدًا أنه مصباح خاص، وأنه يصدر ضوءًا أكثر من كل المصابيح الأخرى.

صمت لبضع ثوانٍ.

ـ ولكن بالنسبة إليَّ لم يكن ليكفي قَطُّ، ولكن لحضرتكِ أجل، سيريحك.

ذكرني ذلك المصباح بكتاب جاليلاي، والنجوم، والنار بوصفها أصلًا للكون.

تأثرت، وقلت له ذلك. بدا مسرورًا وأراد التأكد من أنه يعمل.

ـ حسنًا، نظرًا إلى أنه يعمل، يا ماريا فيتوريا، فلنُجرِ تجربة افتتاحه بأن نقرأ شيئًا مثيرًا.

قبل كل شيء، أراد أن يعرف مكونات زبدة الفول السوداني، وشعر بالفزع، ثم بدأ يحضر لي أجندات صغيرة.

وصَّلت المصباح بالكهرباء في الصالون، لأنه كان من المستحيل في المكتب العثور على عشرين سنتيمترًا فارغة، وهكذا جلست بالقرب من الطاولة في انتظار «المواد».

ـ ها هنا، في تلك الأجندات أرقام هواتف وعناوين مكتوبة دوَّنها أشخاص أتوا لزيارتي. ولأسباب واضحة كتبوها هم، انظري من فضلك تحت حرف الفاء.

بعض الأجندات فارغة، ولكن واحدة منها، احتوت على الأسماء مكتوبة بالترتيب.

ـ فالاسكي.

ـ آه، هذا الذي احتاج إلى الإعادة، بعد ذلك.

ـ فيريري.

ـ آه، أجل، كنت أبحث بالتحديد عن هذا. فيريري. كان أحد تلاميذي، وكان يأتي ليقرأ، شخص مهذب بصوت معدني بعض الشيء، ولكنه لم يخطئ قَطُّ في نطق أي تشكيل. ثم درس الأحياء، ما زال يأتي من حين إلى آخر. شخص قليل الكلمات، ولكنه صلب، يوثَق به، ويعجبني لأنه يفهم الأشياء على الفور.

حك جبهته:

ـ يمكث في بيزا، أريد أن أهنئه بمناسبة عيد الميلاد. هل هناك رقم هاتف؟

ـ أجل.
بلعت ريقي، كان يتحدث عن أنجيلو.
ـ إذن، هل تطلبين لي الرقم من فضلك. وفي أثناء ذلك إن أمكن الذهاب إلى حرف الميم.
عرقت يدي بالفعل، وشعرت بنفاد صبر.
ـ ماريسكالي.
ـ كانت هذه طالبة تفتقر إلى المنطق إلى حد كبير، وحاليًا سلكت السياسة، لأسباب واضحة.
ـ مينيكالي.
ـ مينيكالي بالتأكيد يستحق التهنئة. أتى مع دور البرد القوي ليشرح لي التطورات في البحث، هل تتذكرين؟ ذلك الفتى طويل القامة.
ـ أجل، الذي شرب البابونج.
ـ بالفعل، ربما كان مصابًا بالحمى.
مكتبة
t.me/soramnqraa
ووضع يده على جبهته.
ـ هل تشعر بأنك لست على ما يرام حضرتك أيضًا يا بروفيسور؟
ـ أنا في أحسن حال. إذن، بعد قليل نتصل بهذين الاثنين لنهنئهما بعيد الميلاد، فيريري ومانيكالي. على كل حال اختبرنا الضوء.
في الخارج كان ظلام بالفعل، ويُسمع صوت الريح تئن بصوت منخفض من عوارض المصراع الملفوف تجاه الغرب، وبمجرد أن أطفأت النور رأيت حزمة ضوء مشعة من الفنار.
ـ ولكن هل تتذكر حضرتك اسمَي هذين الشابين؟
جلس على مقعد في الصالون، ليفكر متخذًا وضعية التمثال.
ـ لا، كما تعرفين على السجلات لا بد أن نضع فقط الألقاب.
ـ إذن، ماذا أفعل يا بروفيسور، أتصل؟
ـ أجل، أجل.

تبعني حتى الجهاز وأضاء نورًا ضعيفًا داخل مصباح على الجدار.

كان رقم مانيكالي يبدأ برمز ليفورنو ولم يُجِب، الرقم الآخر كود بيزا، وبمجرد أن رن مررت السماعة إلى البروفيسور حتى لا أخاطر بالكشف عن نفسي.

قال بلا مقدمات:

ـ يا فيريري! هل تتذكرني؟

من الواضح أن الإجابة أجل، لأنه تابع:

ـ ولكن كيف كنت تفكر في مهاتفتي؟ آه، هل رأيت، لقد أحسنت صنعًا إذن.

أخذ البروفيسور يضحك ثم جلس على «الأفنتينو». تحدث بصوت منخفض عن لقاء محتمل لمدة عشر دقائق، بينما كنت أحاول أن أهدئ نفسي وأنا أدور في المطبخ. في نهاية المكالمة مكث والسماعة في يديه.

ـ ماريا فيتوريا! على الأقل بالنسبة إلى فيريري أعرف الآن اسمه الأول.

جن قلبي بعض الشيء.

الفصل الثامن عشر

باسكال، بطبيعة الحال

بينما البروفيسور، غير واثق من أخْذ المظلة، كان يتناقش أمام البوابة مع أورورا وكوستانتينو، تجنبتهم جميعًا وأخذت السكوتر. سواء أمطرت أم لا، لا بد أن أذهب إلى طريق ماتزيني لأتأكد إذا كان النقَّاش قد وصل. ولكن لديَّ الوقت الكافي لأمر على تراس ماسكاني لأرى من جديد ذلك «المكان الذهني». توقفت على ارتفاع مقصورة الحديقة، المستديرة كقفص الكناري، ونزلت من السكوتر لبضع دقائق. تستحضر الدفعات الوجيزة للرياح القليل جدًّا من الهواء حتى بدت وكأنها تُمطر، يجري أحدهم هناك، والسماء مبطنة بالغيوم، ولكن مضيئة، فيما الشمس غائصة بين السحب الضخمة المزبدة وكأنها الزلال المخفوق كالجليد.

رأيت نفسي مرة أخرى على المقعد الحجري والفاكهة على ركبتي، عندما شعرت بعد وقت طويل بطعم الخوخ الناعم وكأنه أمر جديد. عرفت أنجيلو بعد هذا بمدة وجيزة، في راحتي الصيفية. وتساءلت: ماذا يفعل الآن؟

بدت لي مصادفة عجيبة أن يختار البروفيسور، من ضمن كل الأسماء المدونة في الأجندة، اسمه هو بالتحديد واسم مانيكالي، لتهنئتهما بعيد الميلاد.

مكثت قليلًا وأنا أنظر إلى موظفي البلدية الذين يضعون الأضواء حول جذوع النخيل، ثم أخذت السكوتر مرة أخرى.

جاء النقَّاش في موعده، رجل قصير في الستينيات، قصير ونحيف كالمسمار، حاجباه كثيفان ورماديان، له أنف معكوف وأربع أسنان لا غير. بدأ التدخين بالفعل. لون الدلو الذي أحضره معه أصفر، من الخارج وأيضًا من الداخل.

سألته:

ـ أصفر؟

ـ وكيف تريدين أن تدهنيه؟ لا تريدينه أبيض لأنه سيتسبب في شعورك بالملل.

ـ ولكن ليس أصفر بهذه الطريقة، فهو ليس منزلي.

ـ أفضل، هكذا تتركين بصمتك الشخصية.

شكرًا للسماء أننا اتفقنا على حل وسط. صعد بعد ذلك على السلم الذي جره خلفه، وبمجرد أن عثر على موقع العمل، بدأ يدهن من المطبخ الصغير.

ـ لن أوصيك.

ـ اسمعي، بالمبلغ الذي وافقت عليه لا تتوقعي أن أقدم لك رسوم مايكل أنجلو، ولكن ثقي بي.

تركته هناك في صحبة عبوة بيرة وسندوتش. سأعود في وقت لاحق، عندما يجلس البروفيسور على الأريكة ومعه مذياعه الصغير، في بداية العصر. بدأت الأمطار تهطل، ولكن السماء بدت أكثر تهديدًا، بل يمكن أيضًا رؤية ستار فوق مزار المونتى نيرو، هناك في نهاية شارع مارادي.

رعدت السماء.

عند عودتي لاحظت بعض الإضافات: عبوة كبيرة، وعبوات أصغر مركونة في زاوية المكتب، حيث كان يوجد فراغ صغير أمام المدفأة.

قال برضا:

ـ ابتعت الهدايا، أو يمكن أن نقول إنني جعلت أورورا تبتاعها فلديها أفكار جيدة. اختارت أنواعًا من السترات لإليزا وللطفلتين. حتى هي ترى أنهن يرتدين «كاجوال»، إذن، من المؤكد أنهن يعانين البرد.

ـ إن حضرتك من يرتدي الخف المبطن حتى في شهر أغسطس.
ـ فعلًا، ولكن بردي أنا برد دفين، لا أعتقد أن له علاجًا.
كنت أخشى أن يضيف شيئًا مقلقًا، لكنه أكمل في هدوء:
ـ أريد أن أدخر من أجل بعض الهدايا الأخرى.
أحصيت النقود في الحقيبة الصغيرة ورأيت أنها نقصت.
ـ لديَّ أيضًا شجرة ميلاد صغيرة في خزانة الجدار...
شعرت بالتأثر من أجله، فهو ينتظر حفيدتيه، هذا واضح.
ـ ولكن أتوجد أيضًا الأضواء والكرات التي توضع عليها؟
ـ أعتقد. ولكن إذا لم توجد يمكن أن نبتاع غيرها، أليس كذلك؟ نحتاج إلى الكثير منها، فهي تمنح تأثيرًا احتفاليًّا جميلًا.
أحضر لي عملة نقدية:
ـ إليكِ، أوصيك، أريدها أن تكون بالفعل شجرة جميلة، حتى وإن كانت غير طبيعية.
قال:
ـ هل تفهمين ما أقصده؟ شجرة مثل تلك الأشياء التي يتذكرها المرء بكل سرور خلال عام.
ابتسم والعملة النقدية في يده. لا أعلم السبب، ولكن نزلت من عيني دمعة، ولم أستطع أن أقول أي شيء. نظرت إلى حذائه هناك أمام الصوان. لم يكن متربًا، وكأنه تعلم الطيران.

عندما انتهيت من الشجرة كنا بالفعل على «الأبواب بالحجارة»، كما قال البروفيسور، أو على بُعد عشرة أيام من ليلة الميلاد.
استغرقني الأمر تقريبًا أسبوعًا، ولكن كان يستحق العناء: نتج بالفعل عمل فني.
ومسكني أيضًا أصبح جاهزًا، ولكن بلا أثاث وبارد بعض الشيء، وهكذا

تركت التدفئة مفتوحة لليلتين. ولتوثيق قرب الأحداث الوشيك وصلت أيضًا فالّي، غارقة في فراء ذئب.

كدت أعتقدها حيوان راكون: ففي ظل بسطة الدرج تظهر نظارتها اللامعة، وأسنانها المؤطرة بأحمر الشفاه وحذاؤها عالي الساق المبطن. هرعَت إلى داخل المنزل لتضع في المدخل حقيبة بلاستيكية متينة وملونة كبيرة، مطبوعًا عليها مذنبات ذهبية. فحصت رسغي الذي شُفي عمليًّا، ومعه أيضًا لون حذاء البروفيسور، وبعد أن استنتجت أن من عالجني عبقري، أعلنت أنها لم تعد تعاني السعال.

سألها البروفيسور:

ـ أوه، كم استمر معكِ هذا السعال؟

ـ شهرين.

قالتها بصوت ضعيف مذنب، ثم نزعت القفاز الجلدي الذي تُعرفه بأنه «لا غنى عنه لتقود بطريقة جيدة»، كأنها تقود زلاقة. ثم اختتمت راضية:

ـ لقد أحضرت التموين.

ومن الحقيبة ظهرت عبوتان من الشمبانيا ومكرونة شرائط «ريتشاريلّي» التي لا بد أن أضعها بالتحديد حيث أشارت إليَّ، ويا لشقائي إذا وضعتها على بُعد عشرين سنتيمترًا أبعد.

استعد البروفيسور للذهاب إلى مكتب البريد ومعه حوالات يضعها معونة لمن يسأله المساعدة، وهكذا يلخص درسًا جميلًا عن «مفهوم الوراثة كغياب الديون المعنوية». ولم تكن إجابة فالّي سوى أنها أخذت تطارده في المكتب وهي تهز رأسها علامة على رفضها التام «للنزوات الفلسفية»، ولكن فقط لأنها لا تعرف أعظم المبادئ. ولكن أنا عرفتها، وعرفتها جيدًا، وعرفت أن البروفيسور، بطبيعة الحال، لم يمنع المساعدات حتى عن الحمام والقرقف واليمام.

وكانت الحوالات مدفونة بين الصحف، قرابة عَشْر (رأيته يضع في جيبه شيئًا خُفية، ربما بطاقة يرغب في إرسالها)، ثم خرجا.

أخذ هو المظلة وبدأ الجدل مع فالِّي التي أصرت أن يذهب للكشف الطبي حتى أعلنت، قبل الدخول إلى المصعد، عبارة مدمرة:

ـ كدت أنسى، في الحقيبة التي أحضرتها يوجد كيس ورقي لم نفتحه بداخله كوسة رائعة يجب إعدادها على الفور.

عندئذٍ اتصل أنجيلو، فجأة، بينما أضع يديَّ على «الخضرة الملعونة». انطلق:

ـ كنت أعرف هذا. في الصباح يصل أصدقاؤه أولئك الذين يتبادلون معه أفكاره. كنت متأكدًا من أنكِ أنتِ التي ستردين. اخترت الساعة المضبوطة.

ابتلعت ريقي، كنت منفعلة، واضطررت إلى أن أجلس على «الأفنتينو». حاولت أن أقول شيئًا ذكيًّا من دون أن أنجح.

ـ لقد خرج مع أخت زوجته لشراء بعض متطلبات عيد الميلاد، إنه حدث كبير بالفعل.

قال:

ـ أفكر في أن آتي لزيارتكما مع ماسيمو.

قال «لزيارتكما»، وأخذ قلبي عمليًّا الآن يرقص السامبا.

ـ مَن ماسيمو؟

ـ مانيكالي، البروفيسور يعرفه جيدًا.

خطر في بالي على الفور صوته المصاب بالبرد.

ـ سنأتي خلال هذا الأسبوع، ربما في ساعة الشاي، ما رأيكِ؟ هل ستكونين موجودة؟

مرت أمامي كل برامجي الأسبوعية: الأشياء الأولى التي لا بد أن آخذها للسكن، والكهربائي، والبحث عن الأغطية، والسباك الذي سيأتي ليضع صنابير جديدة، والنقاش ليدهن الأبواب أيضًا.

ـ بالتأكيد سأكون موجودة، عندما تريد.

سأؤجل كل شيء.

ثم تذكرت السجين الذي كان يريد أن يستخرج شهادة الطاقة، وكان سيرسل إليَّ أحدهم يوم الخميس.

ـ يوم الخميس؟

ـ رائع، إلى لقاء قريب.

يا لها من مفاجأة.

أغلقت الهاتف، وأنا واثقة: الخميس بعد الظهيرة، في وقت الشاي، لا بد أن تكون شهادة الطاقة بالفعل في جيب السجين، ثم سأملأ الصوان بأكياس الأعشاب والبسكويت...

وعندئذٍ، مثلما حدث قبل أن أبدأ القراءة، داهمتني الشكوك: ما الساعة المناسبة لتناول الشاي؟ لا بد أن أراقب السيدة فافيلَّا الدقيقة جدًّا في هذا الموضوع.

عدت إلى الكوسة، طازجة، ولكنها مجعدة، وشكلها بائس إلى حد يجسد تمامًا مخاوف البروفيسور. وضعتها في الخلاط، وصنعت منها عصيدة يمكن بها التباهي بقدرتي الإبداعية المُفعلة للتوِّ.

الآن كان لا بد من اختيار الشاي، ويا حبذا أيضًا رداء أقل إهمالًا. منذ أن عُينت وأنا لم أهتم كثيرًا بما في خزانتي، ربما حانت اللحظة لأتحرك في هذا الاتجاه. سأرتدي «اللجينجز» الأزرق وبلوزة طويلة ملونة من القطن، لأنني لا بد أن أكون مرتاحة أيضًا وأنيقة من دون مبالغة. لا بد من تجنب تقويرة الرقبة والرتوش. ومن الأفضل إذا كانت البلوزة بلون الخوخ. فكرت أنه حتى إن بدوت أقل شحوبًا وأيضًا إذا كان منزل البروفيسور مظللًا، إلا أن أنجيلو يرى جيدًا جدًّا. سأضع قرطًا صغيرًا جدًّا، ولكن يمنح بعض النور. بدأ الضوء يصبح بالنسبة إليَّ موضوعًا أساسيًّا. ربما سأضع بعض المساحيق الخفيفة، ولكن القليلة جدًّا، وهكذا لا أُظهر أنني مهتمة أكثر من اللازم، لكيلا أعطي صورة خاطئة، ولكن ربما أيضًا أكثر بالنسبة إليَّ، حتى

لا تزيد تطلعاتي أكثر مما ينبغي لها... الخلاصة، لم أستطع أن أتوقف عن التفكير في الأمر.

عندما عاد البروفيسور وفالِّي من مكتب البريد وجداني في مزاج رائع. ولكن لا بد أنهما تشاجرا، لأن فالِّي قالت إن كل ما وضعتُه في الطبق جيد. وقالت أيضًا إنها ستأخذ الكوسة معها إلى بيزا، وهو الشيء الذي جعلني أخمن من انتصر في النقاش.

ـ الوقت متأخر جدًّا، ستعثرين عليها في صحن الحساء.

لحسن الحظ لم يسمع البروفيسور ذلك، كان قد أسرع إلى الصالون.

ـ أرسل أيضًا بطاقة معايدة إلى أمريكا.

أضافت، مستاءة، بصوت منخفض:

ـ ما الذي يجعله يرسل المعايدة إلى هؤلاء؟ لا أعرف.

فهمت أنها تريد أن تفضفض، وانتظرتُ، هزت هي رأسها:

ـ لم يفهم أنهم لا يفلحون إلا في التسبب في قلقه. هذا الرجل المسكين يحتاج إلى شيء آخر تمامًا. هل يأتي ابنا أخته ليقرآ له الجريدة وليأخذاه إلى الطبيب؟ ومن الذي يبتاع له الأدوية أيضًا؟

ثم اختتمت قائلة:

ـ كلام فقط بلا أي أفعال.

فكرتُ في أن المعايدات لا بد أن يرسل البروفيسور منها أطنانًا، بسبب ما حدث لتيد ولكنني لم أقل أي شيء. من الواضح أنها لا تعلم. ربما أملى لأحدهم بعض الكلمات ليكتبها بالإنجليزية. أو ربما أرسل بطاقة صامتة، مثلما فعلا هما من أمريكا منذ بضعة أعوام، مع الورق المقوى المغطى باللآلئ والخرز الملون.

أكد هو عند دخوله إلى المطبخ:

ـ لا بد أن الشحارير توجد هناك.

تنهدت فالِّي بضيق، والتزمت أنا الصمت، كما يليق بمقدمة رعاية تلتزم حدودها (أو لا بد أن تفعل ذلك).

وضعت العصيدة في صحن الحساء، وجدت طريقة لأخفي مذاق الكوسة ببعض البطاطس والنعناع.

نظرت إليَّ السيدة فالِّي نظرة جانبية، في البداية من دون أن تعلق، ثم كنت أنا على أهبة الاستعداد لأن أنطلق بالهجوم.

ـ إذن، ماريا فيتوريا، استخدمت الـ...

ـ أجل، استخدمت البطاطس التي أحضرتها سيادتك.

إذا عرف الموجود في الصحن سيترك البروفيسور على الفور اختراعي.

علق، وهو الذي لم يكن يدرك اللون المخضر للحساء:

ـ غريب. هذا الملمس العجيب يُذكرني من بعيد بالكوسة المسلوقة.

اختتمت فالِّي:

ـ لم يعد المذاق كما كان عليه في زمن ما.

وصلا تمامًا في الخامسة والربع، كلاهما شاعر بالبرد من الرياح الشتوية، وكأن هبة رياح وصلت معهما أيضًا، أو ربما كانا هما تلك الهبة: بدا مانيكالي أطول بكثير من المرة السابقة، ولكن أنجيلو أيضًا بدا لي عملاقًا. فجأة ضاقت مساحات المنزل، وكأن الحيوية والتجديد اللذين أحضراهما هذان الاثنان معهما، غزوا كل الزوايا. أخذت معطفَيهما لأعلقهما في المدخل. كانا ضخمَين، باردَين ومنتفخَين من الرياح.

كان انطباع البروفيسور يشبه انطباعي:

ـ هل أصبحتما فرسَين مدرعَين في تلك المدة؟

أجاب مانيكالي:

ـ هكذا نرى الشمس بشكل أفضل.

وأضاف أنجيلو:

ـ ويمكن توقع الفيضانات بطريقة أفضل.

ـ مانيكالي، أخيرًا شفيت من دور البرد.

هذه المرة توقفت عملية التعارف في منتصفها لأنني قلت على الفور للبروفيسور إنني تعرفت على أنجيلو في الصيف. ومن الواضح أن هذا الأمر أدهشه.

ـ أنتِ أيضًا يا ماريا فيتوريا تقيسين حرارة السلطعونات؟

قال أنجيلو:

ـ أجل، كانت هي تثبتها لي، نظرًا إلى أنها تهرب بمجرد أن ترى مقياس الحرارة.

ثم ابتسم لي. لاحظت أنه كان مسرورًا، مثلي.

تمتم البروفيسور:

ـ وأنا الذي تمنيت أن تكون لي حصريًّا عملية التقديم.

جلسا على المقاعد التي نقلتها من المطبخ، وغاص البروفيسور بتعب في مقعده، نازعًا مني ومن أنجيلو نظرات قلقة. قبل أن أتركهم بمفردهم ألقيت نظرة تجاه المكتبة: أردت أن ألتقط لها صورة ذهنية، كنت متأكدة أن شيئًا ما سيحدث لها، وكأنها تنبض بالحياة.

ذهبت إلى المطبخ، مقيدة في زاوية تخصصي. استطعت أن أعد فطيرة «الكروستاتا»، مفتتحة بذلك موسمًا من الكعك يمكنه أن يملأ فراغ بعض ساعات العصر الشتوية.

ربما كنت مخطئة، ربما لا وجود للفراغ، أو ربما موجود فقط لمن يسكن الفراغ في داخله. لم يكن موجودًا لدى البروفيسور، ولم يعد موجودًا منذ مدة حتى لديَّ.

فتحت الباب متعمدة وانتشرت رائحة «الكروستاتا» عبر أرجاء المنزل. بعدها بقليل ظهر أنجيلو ومعه الطلبات:

ـ يريد مانيكالي بابونج طيبًا...

ـ ولكن هل مانيكالي ما زال متعبًا؟

ـ لماذا؟
ـ لأنه أراده أيضًا في المرة السابقة.
ـ يبدو أنه يُذكره بالمراعي والمساحات غير المتناهية، ومن جهة أخرى يتحدثان بالفعل عن الكون.
ـ بمعنى؟
ـ ربما يرى النجوم فقط إذا نام...
ضحكنا على وجه مانيكالي. وبدأت أغلي المياه. كان المصباح في المطبخ قويًا جدًّا لأنني غيرته، وسعدت لأنني تمكنت من أن أُظهر القرط الصغير البراق، والبلوزة بلون الخوخ، والتي أنارت وجهي من دون الحاجة إلى مساحيق.
ـ وهل لأعشابك البحرية مكان في الحوار أم لا؟
ـ ستأتي اللحظة المناسبة لتلك، ولكن قبلها لا بد أن نعبر على تكوين البحار، والآن ما زالا في الفضاء اللامتناهي... شريطة أن ينجحا في الانتقال من هناك.
ضحكنا من جديد.
ـ اسمعي، أنا سأشرب الشاي بكل سرور، ولكن البروفيسور يريد القهوة.
ـ كان يمكنني أن أقسم على هذا.
ـ لا يمكنكِ أن تصعدي على القارب المطاطي، ولكن يمكنكِ بالتأكيد إعداد «الكروستاتا».
استند إلى الطاولة وهو ينظر إليَّ بإعجاب حقيقي، بنظرة شفافة.
ـ الصيف القادم سأضع سلمًا صغيرًا على الزورق، ربما استطعت الصعود! كنت أفتقده.
ـ هذا العام عندما وصلت هيئة حماية البيئة إلى منطقة آبار ميدتشي من أجل سمكة القرش، هل كنت أيضًا معهم؟
ـ سمكة القرش؟

ضحك باستمتاع:

ـ هل قالوا هذا؟ شيء مدهش.

ثم ترك نفسه ليسقط على «الأفنتينو».

ـ وماذا كان إذن؟ أنا كنت هناك أراقب في فضول، وبدا لي أنني رأيتك.

ـ ولكن أي سمكة قرش! كانت كائنات مجهرية تلون المياه. شيء يمكن رؤيته بالميكروسكوب، إن سمك القرش لا يسعل كما يتخيلون.

هز رأسه باستنكار وهو يضحك. سلمته طبقًا جميلًا عليه شرائح «الكروستاتا».

ـ إذن، كنت أنتِ من تطلين من الحاجز وتأكلين.

ـ وكنت أنت على الرصيف.

ـ كان يمكن أن يلوح كل منا للآخر، ولكن الأمر سيان، تولد الأحداث فيما بعد بمفردها، وكأنها شقائق النعمان.

بدا وكأننا رأينا أحدنا الآخر اليوم السابق، مميزان مثل زهرة شقائق النعمان حقًّا.

ترك لي صدَفة جميلة على الطاولة، هديته لعيد الميلاد. التقطها لي من عرض البحر، في هذا الصيف، بينما تطفو فارغة لأن حيوانها الصغير غير حياته.

أضاف:

ـ ذكَّرتْني بكِ.

وخرج من المطبخ حاملًا الطبق بتبجيل.

أخذت أنظر إلى الصدَفة. رائعة الجمال، ملفوفة كأنها ذيل، بيضاء بأشكال هندسية تشبه الموزاييك. لم أرَ مثلها قَطُّ في جهتنا.

في أثناء ذلك في المكتب، أثارت «الكروستاتا» النقاش المُكرر مرات لا نهائية، حول السبب، الذي لأجله تقع بين أكثر الحلوى المحببة للجميع على الرغم من أنها مُعدة بمكونات بسيطة. حلوى يراها البروفيسور

«خالية من الألاعيب» و«تُطهى بسهولة»، نظرًا إلى أنها لا تحتوي على مكونات تتسرب أو تفيض. عندئذٍ استُدعيتُ لأحدد تفاصيل التنفيذ، قبل أن أترك ثلاثتهم من جديد في حماسة الأسئلة حول حركات الفرن في درجة حرارة ١٨٠ مئوية، وانتقلوا إلى مفهوم «الحرارة». بل أوقد مانيكالي النار أيضًا.

سمعتهم يتحدثون بصوت منخفض أكثر، وأحيانًا تصل إليَّ أوقات طويلة من الصمت، بعض التحركات، صوت مقعد يُجر، ثم صوت أنجيلو يقرأ، والبروفيسور يطرح الأسئلة. من الضوضاء خمنت أن أحدهم نهض ليبحث عن شيء ما، ربما فوق المكتب، تحت إرشادات البروفيسور. طقطقة الأصوات تلك والأفكار جعلتني أفكر في نار مشتعلة على الشاطئ، تخبو بالتدريج في رطوبة المساء. ظهر أنجيلو فجأة في الصالون، وفاجأني بينما أحرك المكواة. كان ممسكًا بالصحن الفارغ والملآن بالفتات وبورقة مكرمشة، ربما أراد أن يقول لي شيئًا ما، ولكن لم ينجح، فقد قطع ولادة الكلمات التي يبحث عنها صوت مانيكالي الذي يصيح:

ـ لقد عثرت على الصفحة الخاصة بالأيكة الساحلية! تعالَ لأنك لا بد أن تفسر لنا شيئًا.

وضع الصحن بحزن على الصوان الكبير، ووضع الوريقة في جيبه ونفخ، قبل أن يعود إلى المكتب.

في تلك الأثناء كان الفنار قد بدأ يقذف بحزمته المنيرة نحو جدار غرفة إليزا. ربما هذا الشيء الذي سأفتقده أكثر في ملاذي الجديد، ولكن فكرة استخدام الفراش بالألواح وإشعال المصباح الذي أهداه إليَّ البروفيسور ومحاولة القراءة، تشعرني، على كل حال، بالسعادة.

بينما أنتهي من الكي في الصالون، ظهر أنجيلو على العتبة، منهكًا، ولكن مبتسمًا:

ـ نحن بنينا الكون، وأنتِ؟

ظهر أيضًا البروفيسور. بدا لي أكثر تعبًا ومسنًّا أكبر مما كان عليه منذ ساعات قليلة. ابتسم بصعوبة:

ـ ماريا فيتوريا، الوقت متأخر.

ذهب مانيكالي ليتناول المعطفين وقذف لأنجيلو معطفه.

سأله:

ـ ماذا تفعل؟ هل ستأتي معي أم ستبقى هنا؟

في الواقع كان يبدو مترددًا، وكأنه يحاول البحث عن عذر ما ليمكث المزيد من الوقت. ولكنه لم يعثر على ذلك العذر.

قال البروفيسور:

ـ أشكركما على الزيارة، لقد قطعنا طريقًا طويلًا هذا المساء.

فصلت المكواة واتجهت معهم نحو الباب، كان أنجيلو ومانيكالي كسحابتين أمامنا.

استكمل البروفيسور:

ـ كل عام وأنتما بخير. هل سنتواصل مرة أخرى؟

قال أنجيلو:

ـ أعتقد هذا. فنحن نعثر على مساحة اتصال في هذا الواقع الجديد.

أدى البروفيسور حركة غريبة بيده، وكأنه يريد أن يخط دائرة تُغلق بدقة.

ـ الباقي مسؤوليتي. ماريا فيتوريا متخصصة في «الكروستاتا» والفلسفة، من حين إلى آخر تقرأ لي خاطرة لا تضر. فيريري، الآن في وجودها لا أفتقدك كثيرًا. لتعرف هذا.

منحني أنجيلو قُبلة على خدي. وجهه لا يزال باردًا وكأنه كان في الهواء الطلق، وليس جالسًا في المكتب المغلق لثلاث ساعات. لم أسأله عن إذا أو كيف سنتقابل أو نتواصل. على كل حال سيحدث هذا إن عاجلًا أم آجلًا.

نزلا على السلالم يحملان حقيبتَي الظهر ويقفزان درجتين في المرة الواحدة. بينما تتبخر الأصوات الفرحة يقف البروفيسور، ساكنًا ومتأملًا،

يستمع لتلك الخطوات، مرتديًا خفه المبطن، متدثرًا في رداء المنزل الطويل، المُلقى على العديد من الكنزات.

ـ بروفيسور، الجو بارد هنا في الخارج، لتتفضل بالدخول.

قدته إلى المطبخ وجلس على «الأفنتينو»:

ـ الآن يجب أن تذهبي إلى المنزل الجديد.

ـ لا، سأعد لحضرتك شيئًا للعشاء، ثم سأرى. هل تشعر بالتعب؟

ـ أجل، لا أريد أي شيء. أشكرك. سأذهب إلى غرفتي.

دخلت إلى المكتب لآخذ المقاعد ولأتأكد إذا كان يوجد أي فتات لأكنسه. لم أكن بحاجة إلى أن أشعل الضوء، فنور القمر يعبر الزجاج بلمعة شاحبة مثل لمعة اللآلئ. التفتُّ نحو المكتبة: أحد الرفين بدا تقريبًا فارغًا، والكتب الباقية وُضعت أفقيًّا، والكثير من تلك الشاردة كانت على الأرض، وأخرى بدت وكأنها تبخرت. حتى والنور مُطفأ كل التفاصيل واضحة، بل استطعت قراءة العناوين، وجمع بعض الفتات من على الأرض الحجرية من دون أن أخطئ. فكرت في أن نور القمر دخل كله إلى المكتب وكأنه سُكب من السماء، وملأ كل المساحات الفارغة للمكتبة. ربما استدعوه في حديثهم عن الكون.

في أثناء تحركه في الغرفة أسقط البروفيسور شيئًا ما، واضطررت إلى أن أعود إلى أرض الواقع: كان الأمر يتعلق بتمثال حامل لمصباح، الوحيد السليم، وشرح لي أنه ذكرى من عائلة زوجته:

ـ لقد ارتكبت كارثة حقيقية، الآن لم أعد قادرًا حتى على حساب المسافات. هل ترين الخسائر؟ ربما هناك مصباح ولا بد أن الأمر يتعلق بملاك صغير ذي جناحين أو شيء من هذا القبيل.

ـ أجل يا بروفيسور، أرى الجناحين.

بالفعل. «فالتمثال مصنوع بدقة ليُظهر أنه صورة الرب، والعيوب ليظهر أنه ليس سوى تمثال».

جمعت الجناحين، ثم الرأس الصغير المستدير، الذي من ملمسه بدا كالصدَفة. أراد البروفيسور أن يضعه في جيبه للذكرى، تمامًا مثلما فعلت أنا بهدية أنجيلو.

قال:

ـ باسكال، بطبيعة الحال.

الفصل التاسع عشر
الماء والنار

أردت أن يكون المنزل في أحسن حال في عيد الميلاد، ولكن طار الوقت، أو ربما تلكأت أنا كثيرًا، ولذلك اضطررت إلى أن أقنع بما تم.

أتى السجين مع أورورا ليتأكدا من أن كل شيء على ما يرام، وأبلغا عن نجاح المشروع.

قالت أورورا:

ـ ربما تمتع ببركة الميلاد.

علق السجين بعد أن تحدث عن الوثنية، ولكن ليس عن لون جدار منزله:

ـ ربما.

أصر البروفيسور على أن يمنحني «الإجازة القانونية»، وكرر أكثر من مرة أنه لا يرغب في أن يصبح هو نفسه عذرًا «لإقلال مساحات التحركات في الحياة». ولكن نظرًا إلى أنني لم أفهم جيدًا، قدَّم لي تفسيرًا:

ـ إنه من الطبيعي أن أبقى بعض الوقت في مساحتي الشخصية، وخاصة بعد أن تنهي إليزا وقبيلتها غزوتها عندي. أما حضرتك فلا بد لك من استعادة وجودك، وإلا سأحتكر أنا وقتك.

على عكسي، لم يكن لديه أي شك في حضور إليزا. في مساء الثاني والعشرين كان عليَّ أن أشرح له أين وضعتُ الهدايا، هكذا يمكنه أن يعطي الإرشادات للحفيدتين لتسيرا بخطى واثقة. تركته على مضض بالقرب من

الهاتف، في وقت متأخر، متدثرًا وبيده مشروب خالٍ من الكافيين لأن المدفأة غير كافية لتُسخن معدته، حسب قوله.

قال:

ـ أنتظر مكالمة ابنتي.

ولكنني لم أصدقه لأنه كان يبدو لي أكثر قلقًا من المعتاد وصامتًا. لم أرغب في أن أحقق، انتظرت، بلا فائدة، أن يضيف شيئًا آخر لتحياته ومعايدته التي تكونت من علبة شوكولاتة، وراتب شهر إضافي.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى أمي بالسكوتر، حتى وإن كانت تُمطر.

كان لا بد أن أحضر الهدايا للحفيدين كما وعدت.

سألتني من الهاتف الداخلي:

ـ أليس معكِ مفتاح؟

ـ لقد أعدته إليكِ، ألا تتذكرين؟

في الأعلى كان الجو ممتلئًا بالبخار، نظرًا إلى أنها تسلق الدجاجة.

سألتني:

ـ هل قررتِ ماذا ستفعلين في الغد؟

ـ أجل، لن أحضر.

ـ ستذهبين إلى حماتك، كنت متوقعة.

لم تبدُ مستاءة.

ـ لا.

بدلًا من أن تنظر إليَّ لتفهم، ذاقت المرقة. تُسمع أصوات صياح.

ـ امكثا هناك لأن الجدة لديها ما تفعله.

غمزت لي وهي تأخذ اللفائف:

ـ أعطيني، أعطيني إياها لكي أخفيها.

قالت بصوت منخفض:

ـ هدايا بابا نويل يجب ألا يراها أحد. ماذا أحضرتِ؟

ـ سترين.

ـ أنا فضولية. ألعاب؟

ـ أجل، واحدة منها، والتي ستشغلهما بينما تطهين.

ـ لحسن الحظ، لا يجلسان ثابتَين ولو لدقيقة.

ـ سيجلسان.

وأعدت ربط السترة.

ـ هل ستذهبين الآن؟ ألن تذهبي حتى لتحيتهما؟

ـ يلعبان على كل حال.

ـ صافِحا العمة!

نزلا السلالم بسرعة، أردت أن أرى الوجوه عندما ينزعان الورق عن مكعب «روبيك». وخاصة وجه أمي.

في ليلة عيد الميلاد عثرت في هاتفي على رسالة من إليزا:

أشكرك على وجودك معنا.

لم يكن هناك توقيع لكنْ شيئان واضحان: أنها وصلت، وأنها تحتاج إليَّ. قرأت الرسالة على باب كنيسة سانتا ماريا قبل دخولي القداس. الرياح الجنوبية الغربية تعصف والملح يملأ الأروقة، وأرغب في أن ألجأ بسرعة إلى هناك بالداخل. النيجيريون القلائل كانوا يغنون في كورال صغير محلي مشتت إلى حد كبير، ولكن مُزود بطبول البانجو والجيتارات، والأمهات في غرفة المقدسات يجرين بشرائط مذهبة ونباتات بخور مريم المجففة، والناس تصل بالتدريج، مغطين وجوههم حتى عيونهم. تقريبًا الفوضى المعتادة لتلك الكنيسة بالتحديد أكثر من فوضى احتفال الميلاد. اخترعوا عشية على أساس أشعار أفريقية، وشرائح ضوئية تعرض أشجارًا وصور الغارقين، وفقط عندما ظهر الاستياء الجماعي في قمته، تذكر دون باراكيني

أيضًا الطفل يسوع. ذهب ليخرجه في نوع من الجرات التي وضعت عليها بصورة غير محددة النيات الطيبة التي كتبها المؤمنون. على كل الحالات لم يكن هناك الكثير من تلك النيات الطيبة.

في تلك اللحظة، ولدهشتي الشديدة، ظهرت بيانكيتي على المنبر، أخذت تقرأ بصوت جهور رسالة طويلة جدًّا صالحة لكل الطلبات، معلقة على أنفها نظارة ضخمة، كأنها قناع غطس يغرقه الخرز الملون، لم تنقذها من الأخطاء في كل الأحوال.

كانت تترك، على قدم المساواة، نصف سطر هنا ونصف سطر هناك، ولكن بدا أن أحدًا لم يلحظ هذا. أو أن الدفء يسود مطمئنًا أذهان الجميع، أو أنني أصبحت حساسة جدًّا تجاه الكلمات. بهذا الإيقاع يمكن للطفل يسوع ألا يأتي قبل الفجر.

إلا أن الأجواء بدأت تسخن، ونام الأطفال المدللون على الركب، وانطلق دون باراكيني في عظة غير مفهومة، ولكن مناسبة تمامًا للجو العام، أيضًا لأنه في عيد الميلاد يوجد القليل جدًّا ليُشرح وليس هناك سوى الاحتفال. وهو الشيء الذي حدث في نحو الساعة الواحدة والنصف بالشمبانيا و«الباندورو».

لا أدري لماذا أذهب بالتحديد إلى هناك، مع كل الكنائس التي بإمكاني اختيارها. ربما لأن العذراء هناك، في ذلك الصيف، أثبتت بالدليل روحها العملية. أتذكر جيدًا اللحظة التي فيها رفع دون باراكيني نظرته التائهة على اللوحة الموضوعة خلفي ليقترح لي بعدها أن أذهب إلى «المؤسسات المسيحية للعمال الإيطاليين».

الآن أيضًا يقف خلف الشعلات المرتعشة، يبحث عن شيء من التعزية في هذه الفوضى الخاصة بعيد الميلاد ويعثر عليها. وفي الساعة الواحدة وأربعين دقيقة، عندما لم يعد أحد يتذكر يسوع الطفل الذي تُرك وسط التيارات الهوائية، أحد المشردين الشجعان الذي ظل على العتبة حتى تلك الساعة

في انتظار النبيذ الساخن، اقترب من التمثال الخشبي، العاري بشجاعة، ذي الذراعين المفتوحتين على القش، وظل رافعًا الكوب البلاستيكي ليشرب في نخب ذلك الطفل الصغير، قبل أن يرحل ليدخل في كيس النوم الموضوع أسفل درابزين غرفة المقدسات.

أتت بيانكيتي، الغارقة في السكر، لتحضنني.

ـ بارونشيني!

صرخَت وكأنها أمام بوابة المؤسسة على الرغم من أنني على بُعد نصف متر.

ـ لقد عثرنا لكِ على مكان، هه؟ كيف حالك؟

ـ في أحسن حال، أتعلَّم العديد من الأشياء.

ـ آه، إذن مُرِّي لتملئي الاستبيان الخاص بخدمتنا، حيث نحتاج إلى تقييم.

قالت هذا برضا، وكأنها تهدي نفسها هدية عيد الميلاد. فهمت أننا لن تفهم إحدانا الأخرى أبدًا.

بعد أن صافحتها ذهبت لأجلس في ركن من الكنيسة، ونظرًا إلى الفوضى، استغللت الموقف لأخرج هاتفي الذي كان يذبذب في جيبي قبلها بنصف ساعة.

الآن أجلس مباشرة في مواجهة العذراء. كان لها تعبير أبي الهول نفسه الذي للبروفيسور عندما لا يرغب في أن يكشف عن أفكاره. وهكذا حاولت أن «أخمن» صلاة خاصة من أجله، عندما لمحت على المحمول رسالة من رقم مجهول:

حضن، عيد سعيد.

قبل أن أخرج نظرتُ إليها نظرة أخيرة.

لأفهم أن البروفيسور قد منحني هدية عيد الميلاد استغرقني الأمر أسبوعًا كاملًا، ثم اكتشفت هذا فقط من خلال تلميح. من جهة أخرى، فيما يتعلق بالخيال، هو يفوقني بمراحل.

في نهاية العام، في أثناء عودتي إلى المنزل بحقائب المشتريات، رأيت سيارة مركونة بطريقة معوجة على ناصية شارع ماتزيني. صعدت بعجلتين فوق الرصيف (فكرت في أنه شيء يليق بإليزا) تحت كاميرا شرطة البلدية، تفوح منها المخالفة. وهكذا عبرت خلفها ووضعت السكوتر حتى لا أضايق المشاة. ثم اتجهت نحو البوابة سعيدة بعودتي إلى المنزل بعد عصر من التجول في وسط المدينة.

وضعت الحقائب أرضًا لأبحث عن المفاتيح في جيبي وسمعت باب سيارة يضرب بعنف.

ـ ماريا فيتوريا، إذن فقد فهمت العنوان جيدًا.

كانت إليزا كما خمنت.

تعانقنا، وفي أثناء ذلك رأيت في السيارة خيالين يتحركان وخيالًا غائصًا وساكنًا.

ـ لقد أتيت لأطلب منكِ أن تعودي إلى أبي يومين مبكرًا، في رأيي يشعر بالوحدة بعض الشيء، وإن أنكر هذا، وأنا غدًا مساءً سأرحل من جديد. لا بد أن أبكر عودتي.

نظرتُ إليها: بدت لي متعبة ومشدودة مثل مَن يتعارك مع نفسه. ترتدي المعطف الجديد هدية أبيها، ربما وضعت أيضًا لمسات على خصلات شعرها الذي بدا فاتحًا أكثر ومصففًا على غير العادة.

ـ اهدئي، سأهتم أنا بهذا. هل أنتِ بخير؟

ـ لنقُل أجل.

نفختْ، وأفهمتني أنها ليست بخير على الإطلاق.

ـ وأنتِ؟ سألني أبي أكثر من مرة إذا أعجبتك هديته، حتى وإن لم أعرف عما يتحدث، واضح أنه يتخيل أننا تحدثنا. حسنًا، هل أعجبتك؟

شعرت أن هناك شيئًا ما لا أفهمه، لا يمكن أن تكون الشوكولاتة هي المقصودة، تمتمت بكلمة «بالتأكيد» في خجل.

من السيارة خرجت إحدى الفتاتَين لتجري مكالمة هاتفية، وخلفها الأخرى تُخرج بصعوبة جدها الذي يرتدي قبعة من اللباد بأطراف عريضة لم أرَها قَطُّ.

قالت إليزا بتعب:

ـ يريد أن يحييكِ، وكان يريد أن يذهب ليرى بحر أردينزا.

قادته الحفيدة لبضعة أمتار على الرصيف وجعلته يتعثر في حفرة صغيرة على الأسفلت المعوج: بدا لي أصغر حجمًا منذ تركته بجوار الهاتف. اقترب وهو يمد لي يده بطريقة مترددة. مكتبة .. سُر مَن قرأ

ـ عام سعيد يا ماريا فيتوريا، لم أعايدك بمناسبة العام الجديد. هل تعجبكِ قبعتي؟

ـ جدًّا.

قال بفخر:

ـ إنها هدية عيد الميلاد. تحمي من الجو السيئ، ولكن أيضًا من أشياء أخرى، حسب الاستخدام. ليس من السهل دائمًا استخدام شيء لم نكن نتوقعه.

لم أفهم ما يقصده، نظرًا إلى أنه نطق المقاطع بوضوح شديد، فكرت في أنها عبارة لباسكال. ولكن سأفهم المقصود بعدها بعشر دقائق.

ـ لكن يا جدو لقد ابتعنا لك القبعة لتبدو أكثر أناقة!

ـ وهل أنا كذلك الآن؟

ـ أجل!

ـ إذن، تحقق الهدف المطلوب، ولم يعد ينقصني سوى أن أحتفظ بها على رأسي.

تركهن يقُدنه مرة أخرى للسيارة، متعثرًا من جديد في الحفرة الصغيرة، واعتصر قلبي عندما رأيته.

بعد التحيات صعدت السلالم بسرعة، يدفعني الفضول. ألقيت حذائي في زاوية واتجهت إلى المطبخ حافية، أبحث عن علبة الشوكولاتة، نزعت

الغلاف بسرعة، اللفة مصنوعة بشكل سيئ، ربما فُتحت وأغلقت من جديد بيد غير خبيرة. وفي الشريط الذي يغلق اللفة الأصلية، توجد قطعة مطوية من الورق. أخرجتها: يوجد رقم هاتف مكتوب بخط مهزوز، رقم هاتف محمول، بعض الأرقام فوق الأخرى، من دون أي اسم بجانبها. ربما كانت هناك نية لكتابة اسم ما، ولكن كان يمكن فقط قراءة حرف «أ». خطرت ببالي صورة خاطفة للبروفيسور وهو يكتب بالقلم الجاف على الصفحات تاركًا الكلمات محفورة على الملف الجلدي، أكثر من الورق.

مكثت بعض الثواني ثابتة أفكر. لا، لا يمكن أن يكون هذا، ولكن بدا لي شيئًا جميلًا بمبالغة، ثم أخذت هاتفي الصغير وبحثت عن الرسالة التي استلمتها ليلة الميلاد من الرقم المجهول. وأمام الرقم الخامس سقطت دمعة على الشاشة. كان رقم هاتف أنجيلو، كتبه البروفيسور من أجلي، ربما أملاه له هو، في تلك الليلة التي أتى لزيارته هو ومانيكالي.

حسنًا، سآكل قطعة من الشوكولاتة في منتصف الليل، وسأستفيد من الرسالة في صباح اليوم التالي، بأن أكتب:

مكتبة
t.me/soramnqraa

عام سعيد!

بلا توقيع.

ليس من السهل دائمًا استخدام شيء ما لم نكن نتوقعه.

قال البروفيسور وهو يفتح لي الباب:

ـ والآن علينا أن نصل إلى عيد القيامة.

لا أعرف إذا جلس على «الأفنتينو» لينتظر المصعد، ولكنه، على أي حال، فتح لي الباب في الوقت المناسب جدًّا.

ـ بروفيسور، لم أشكر حضرتك.

رغبت في أن أعانقه، ولكن توقفت، أعرف أنه يتمسك كثيرًا بالرسميات.

حاول أن يعد لنفسه القهوة بمفرده وسكبها على المائدة، ولا بد أنه تصرف

أيضًا فيما يتعلق بالعشاء، لأنه مكث «بلا مراقبين» قبل الأوان. والنتيجة أنني مكثت على الأقل ساعتين أعالج النتائج.

بمجرد أن أدرك أنني أدور في أنحاء المنزل ربط نفسه في الصالون، حيث تهب الرياح من بين فتحات المصراع الموجه نحو الغرب.

قال ملاحظته:

ـ لا يُسمع صوت تغريد العصافير.

ثم غاص في صمت غير معتاد، من دون حتى أن يشغل المذياع. تخيلت أن لديه ما يفكر فيه.

في المكتب كان الفِراش المتنقل رطبًا قليلًا من شيء لم أستطع تمييزه. نزعت الملاءات ووضعتها في الغسالة.

كانت المكتبة في حالة مزرية، مثلها مثل البروفيسور. الكتب، مفتوحة ومبعثرة، بعضها تحت الصحف التي في بضعة أيام تكاثرت بلا حدود. على الملف ذي العلامات توجد بعض العبارات المبتورة التي خطها البروفيسور على الورق، حاولت، بلا جدوى، تمييزها، «أنجيلو»، ولكنني عثرت فقط على ورقة مقطوعة ومقروءة التي بالتأكيد لم يكتبها هو. تحمل تاريخ أول يناير وهوجمت بخط كُتب بمخالب الدجاج حتى بدا وكأنه مخطط رسم القلب. لم يبدُ لي مناسبًا مضيعة الوقت في التطلع على المحتوى، كالعادة يجب أن تكون أشياء لا يمكنني استيعابها، وتركتها هناك واضحة للعيان، متوقعة أنها سيكون لها دور مهم إن عاجلًا أم آجلًا. اختفى أيضًا العددان الأخيران من المجلة الأمريكية، والصورة الشاحبة على المائدة أصبحت ظلًّا مع الإطار، بل، وبالنظر جيدًا يمكن تخمين فقط محيط الشكلين على الخلفية البيضاء... فكرت في فخر: ربما عملت شمس الشتاء على نزع الألوان لأنها تدخل عبر الزجاج من دون أن تعوقها الأوساخ.

في الغُرف مكثت على الأقل ساعة وانتشلت كمية من الأشياء المنسية:

جوارب، أوشحة من صوف «الباشمين»، أقراط، أساور، وشريط أقراص نصفه فارغ، دفتر ملحوظات بنحو إنجليزي، مظلات تُطوى خفيفة للغاية، نظارات شمس على شكل الوطواط. كان يمكنني أن أملأ كيسًا للبيع في السوق. في غرفة إليزا عثرت على سبحة مصنوعة من الحبل، كتاب سيرة ذاتية لشخص تملأ رأسه التجاعيد جالسًا أمام البيانو، وكتيب إرشادي لليوجا، والتدريبات الروحية للقديس أغناطيوس دي ليولا. لم أجد أي شيء تافه ولا مُهدئ، فيما عدا عروس من اللباد الرفيع التي بدت مناسبة لطقس من طقوس الفودو أكثر من الصحبة.

بالتأكيد كان الزوج أيضًا موجودًا: فهناك كوب فوق ورقة التعليمات الخاصة بالأسبرين على قمة خزانة الحمام. أما فيما يتعلق بفوارغ البيرة والنبيذ والشمبانيا، فسلة المطبخ ممتلئة. ألقيت كل شيء في حقيبة جيدة للزجاج، نظرًا إلى أنني لم تكن لديَّ خبرة حول مصير فوارغ عبوات الخيزران.

ـ بروفيسور، ألن تطلب مني إعداد القهوة؟

أجاب بضعف:

ـ نعم...

هرعت لأرى ماذا يفعل. كانت عيناه مغلقتين.

ـ هل تستريح؟

ـ الحقيقة أنني لم أنَم جيدًا.

عندما اقتربت لاحظت أن الجزء الخارجي من البنطال القديم مبلل.

ـ هل لديك حمى؟

ـ لا أعتقد، أجل، أعدي لي قهوة.

ربما أراد أن يلهيني.

ذهبت إلى المطبخ. كان سطح الطهي الخاص بالفرن لزجًا بأكمله، ربما بسبب المياه اللاصقة من نشا الأرز. وعلى الأرض أيضًا توجد تلك العصيدة، خليط من المناديل الورقية التي تحولت إلى قشور.

عدت على الفور إلى الصالون.
ـ ولكن بروفيسور، هل أعددت بمفردك الأرز الأبيض؟
ـ مساء أمس... نسيت إليزا أن تعده. لماذا، هل تسببت في خسائر؟
ـ ولكن أين صفيته؟
ـ لم أُصفِّه، سقطت القدر قبل أن أفعل هذا، للأسف.
ـ ولكن الماء المغلي؟
ـ بالفعل، تؤلمني قدمي بعض الشيء.
وببطء رفع طرف بنطاله، كان محروقًا، وجلده ينضح بالإفرازات، ولم تكن هناك دقيقة لنضيعها.
ـ لماذا لم تقل لي هذا على الفور؟
ـ لأنني لم أرغب في أن أتسبب في ضيق زائد، وخاصة لأنني قلق أن يكون لدى حضرتك بالفعل الكثير لترتبيه...
ـ ولكن كيف؟
ـ نظرًا إلى أن الرجل قصبة ثقيلة، بمجرد أن يفقد صوابه فالباقي...
ـ سأتصل بفالِّي.
ـ لا.
فاق على الفور:
ـ ستستاء.
ـ أنا أيضًا مستاءة يا بروفيسور، سنذهب إلى المشفى على الفور.
ـ لا أجد ذلك شيئًا ضروريًا.
ـ سأتصل بإليزا.
ـ لا، أعرف أنها ذهبت للعمل في الصين.
ـ سأتصل بالطبيب.
ـ لا بد أنه في جولته للزيارات المنزلية.
لم أنتظر ليجيبني، حاولت أن أتصل بالطبيب بلا جدوى، وهكذا قررت

أن أذهب لأرن جرس بيته. لم يكن موجودًا، ولكن في المقابل عثرت على الجارة «الكي جي بي»، لينزي، التي تنتظر المصعد ومعها عربة التسوق. كدت أتجاهلها، ثم فكرت أن شخصًا مثلها يمكنه أن يساعدني.

ـ هل تعرفين أين يمكنني أن أجد الطبيب؟

ـ أجل، إنه هنا في الفرن، لأن ضغط السيد باتشي انخفض في أثناء وقوفه في الصف.

ـ نظرًا إلى أن حضرتك على وشك الخروج، هل يمكنك أن تستدعيه للبروفيسور، من فضلك؟

انطلقت بسرعة وبحماس شديد إلى حد أننا وجدنا الطبيب على الباب بعد ربع ساعة يجري ومعه حقيبته.

سأل البروفيسور:

ـ وكيف استطعت أن تظهر هكذا؟

ـ سمعت ثرثرة عما حدث.

ـ وماذا قالوا لك هذه المرة؟

ـ أنك أصبت بعسر هضم من الأرز الأبيض، نقلًا عن ماريا فيتوريا.

اقترب ليرى قدمه وحك جبهته:

ـ الآن حاول أن تنزع ملابسك كلها، لأنني حسب معرفتي بك، أعرف أن هذا قمة جبل الجليد.

قدتهما إلى الغرفة، وبعدها بقليل قال الطبيب إننا لا بد أن نستدعي الإسعاف. تلك الحروق خطيرة، ولا بد أن تُعالج جيدًا حتى لا تجتاح الجلد.

قال البروفيسور:

ـ لا مجال للحديث عن الإسعاف، يكفي جدًّا التاكسي.

وحدد أنه سيذهب على الناقلة فقط في حالة موته. ثم أضاف بمجرد أن دخلنا السيارة:

ـ الآن سأصبح فريسة للنظام الطبي.

سألَنا سائق التاكسي بفرح:

ـ إلى أين؟

ـ إلى المستشفى.

ـ في هذا اليوم الجميل؟ هل أنتما متأكدان؟

وصلنا بسرعة إلى الطوارئ حيث لم يكن جو الاحتفال برأس السنة قد اختفى تمامًا. فكعكة «البانيتونه» موضوعة على فِراش نقال، وقليل من العاملين، ولكن مستعدون جيدًا.

قال اختصاصيُّ الأمراض الجلدية:

ـ لا بد أن يدخل المستشفى وسنضمده كما يجب.

أخذ البروفيسور العبارة بشكل سيئ للغاية، وقال وهو يشير إليَّ بدقة معينة:

ـ ستضمدني السيدة الموجودة هنا.

ـ ليس لديها كل الأدوات الضرورية، هنا سنؤدي المهمة كما يجب.

أخذوه إلى غرفة منعزلة أطلق عليها البروفيسور «الأفنتينو الثاني»، وخلال مدة وجيزة أغرقوه برغوة ما، وكأنه على وشك الاشتعال.

قال الممرض:

ـ لقد هدأناه تمامًا. لا بد أن يمكث هنا بضعة أيام.

التزم البروفيسور الصمت. كان لا بد أن أستخلص منه بعض التعليمات عما يريدني أن أحضر له، ولكن كان الأمر عسيرًا:

ـ المذياع الصغير من فضلكِ، والساعة الناطقة.

ـ هل أقول ما حدث لأصدقائك، هكذا يأتون لزيارتك؟

ـ ربما.

ـ أي شيء آخر؟

بينما أنا على وشك الرحيل، استدعاني قائلًا:

ـ على الملف لا بد أن هناك ورقة. إذا عثرتِ عليها هل تحضرينها أيضًا؟

النقود في الدرج، ولكن ربما لا تكفي.

ـ كانت تكفي دائمًا، سأعود خلال ساعة، لا تقلق.

فكرت من جديد في أنه ربما يجب أن أخبر إليزا، ولكنه كان عنيدًا واختتم بأنني لا بد أن أعتني به في كل شيء وكل الظروف، إذن لا بد أن أتولى مسؤولية التصرف في هذا الأمر. هو ليس في غيبوبة، في النهاية، واعتُنِيَ به.

كما تخيلت، اتصلت السيدة فالِّي لتسأل عن زوج أختها، وأنا أخرجت ما في جعبتي. حولت الأمر إلى مأساة وافترضت مستقبلًا من المضادات الحيوية والغرف المعقمة ورحلات إلى المستشفى.

ـ أفكر في أن أحضر لأساعدك.

بدا لي اقتراحًا أكثر إحباطًا من ذلك الذي نطق به البروفيسور: ربما لو ذهبت لأسبح في البحر سينتهي كل شيء، من جهة أخرى فإن الحل المثالي للنار هو الماء.

أصدقاؤه المخلصون والراغبون في مشاركة التأملات حول الوقائع شبه السياسية التي تغزو صفحات الصحف، ذهبوا في موكب ليطلوا عليه من الباب، وصرحوا بأنهم عثروا عليه أفضل من المعتاد.

حدد البروفيسور:

ـ مسلوق، للدقة.

ـ الخلاصة، يبدو أن هناك نوعًا من الكفاءة الأكيدة في هذا المستشفى.

ـ حسنًا، يمكنني أن أقول إنهم أكفاء وأيضًا بعيدو النظر. في الصباح يحضرون لي شربة، يطلقون عليها قهوة باللبن، ولكن نظرًا إلى أنهم يخشون أن أسكبها على نفسي، يحضرونها لي باردة، بحصافة فريدة من نوعها.

في الواقع، اللحظة الوحيدة من النهار التي لا يدَعونني أدخل فيها.

تنبأ كوستانتينو:

ـ كل التفاصيل في الحالة التعسة تجلب معها حملًا مفرطًا.

وتأكدت النظرية التي تبعًا لها يتضايق البروفيسور من التفاهات وليس من الكوارث. لم يقل قَطُّ أي شيء عما يشعر به، ولكن في المقابل تضايق من صوت الممرض الذي بدا له شبيهًا بِدون جوان(*)، واشتكى أيضًا من واقع أنه في الصباح لا تغرد العصافير على الرغم من وجود الأشجار. كانت أشجار نخيل، وافترض احتمال انزلاق الشحارير في محاولاتها الاستقرار بصعوبة على القمم المعوجة.

وبفضل السماء اعتدل الطقس، وهكذا استطعت أن أتحرك كالمكوك بين منزله والمستشفى على دراجتي السكوتر المجيدة. بينما أفتش بين أشيائه استمر شعوري بأنها تتآكل، كما يحدث عندما تفقد شجرة أوراقها. إلا أنني أنا من يضع البياضات في الغسالة وأكوي، ولكن عليَّ أن أسارع لأن أتأكد من أن عدد القطع التي تحركت من سلة الغسيل حتى لوح المكواة لم يتغير. استخدم هو بالتحديد تلك الكلمة: «التهام». ربما تلتهم المكتبة الكتب كما تلتهم الغسالة أشياءه.

في تلك الأثناء طارت الورقة التي تركها على ملف مائدة المكتب، عثرت عليها محشورة تحت الهاتف.

هذه المرة، ونظرًا إلى توفر الوقت، حاولت أن أفك شفرة ما خربشتْه مخالب الدجاج بالقلم الأزرق:

> توجد أشياء تطفو على سطح الحياة، حاليًّا. وتلك هي المهمة، وقد أصبحت خفيفة لأنها ستُحمل فيما بعد. رأوا كيف تكونت المادة، أتوا إذن وكأنهم من فكرة تمر على الأرض. كما نعبر من اللاشيء إلى كل شيء، كما يمكن أن يكون كل شيء ومضة أو هزة مرئية فقط للنفس. يمكن لتخمين العلم فقط إدراكها.
>
> السر يكمن في الخلق وليس في التدمير. إذن، الأمر حقيقي: هناك بالفعل «صانع، مَن كوَّن». كما توقعت.

(*) الشخصية الرئيسية في مسرحية موليير: «دون جوان أو الوليمة الحجرية». (المترجمة).

«إذا لم يكن هناك ظلام لم يكن للرجل أن يشعر بأي قدر من فساده، إذا لم تكن هناك حلول، لما كان للإنسان أمل في أي علاج. وهكذا، ليس فقط عدلًا، ولكن من المفيد لنا أن يختبئ الله جزئيًّا ويكشف نفسه جزئيًّا، نظرًا إلى أن معرفة الإنسان لله من دون أن يعرف شقاءه أمر ضار تمامًا كضرر معرفته لشقائه من دون أن يعرف الله» (٣٤٦ باسكال).

كليانتس (من إبكتيتوس): «قدني يا زيوس، وأنت أيها القدر إلى حيثما رسمتما لي الطريق، فأنا متبعكما من دون تردد، وحتى لو أخذني الارتياب، فتثاقلت وتملصت، فلن أكون مع ذلك أقل متابعة لكما».

استمررت في القراءة بعد أن تجاوزت بعض الأسطر:

إذن، يمكنني أن أؤمن بوجود مسيرة عكسية، وأنني أنا أيضًا سأعود إلى مستوى الجزيء لا متناهي الصغر ربما سأستطيع أن أرى ذلك الذي طالما تمنيت أن أراه من دون أن أستطيع. لن أعود إلى اللاشيء ولكن فقط إلى الأصل. سأستطيع بإبهام أن أخلق صورة ستتعمق، هكذا كما يتمدد الكون في الزمان. حتى الظلام يتنفس لأنه ليس فارغًا، أو على الأقل ليس خاليًا مثل أولئك الذين لم تعد لديهم القدرة على التفكير.

بدا وكأن الملحوظة توقفت، ربما من أملى لم يرغب في أن يستمر، أو من كتب رفض استكمال الكتابة. بقي هناك رقم ٢٤١، ثم لا شيء بعد ذلك.

كلمات قليلة، ولكن في نهاية الأمر مفهومة بشكل كافٍ. مفتاح تلك الشهور موجود هنا بالتأكيد.

طويت الورقة ووضعتها في الحقيبة، مع نسخته من إبكتيتوس.

في المدة الأخيرة لم يعد يطلب مني أن أقرأ.

الفصل العشرون

متجر الأفكار

كان مقعد المكتب ممزقًا، بقاعدته المنخفضة جدًّا يمكن لأي شخص أن يغوص فيه. جلست عليه ربع ساعة: يمكن رؤية السحب وهي تعبر وكأنك تجلس في ساحة أو في عربة معلقة.

بدا المكتب أمامي مرتفعًا جدًّا، والمكتبة واضحة للغاية.

لم أستطع أن أمنح نفسي أي تفسير مُقنع حول اختفاء الكتب، أعيد التفكير في نوع من العبور على مركب شراعي، في أثنائه لا بد من تخفيف الحمل للوصول إلى الهدف لأن البحر كبير. ربما العديد منها ذابت بمفردها لأنها لم تعد تُقرأ، أو ربما باختفائها، مهدت الطريق لقائد السفينة الذي يسهر في الليل. من الأفضل اكتشاف الحقيقة سريعًا، الحقيقة التي ترضيني كوني مدبرة منزل عملية ومنظمة.

بفحص سريع بالنظر إلى الرف المركزي رأيت كتابًا آخر من «خواطر» موضوعًا بطريقة أفقية وكأنه علامة. ذهبت لآخذه لأرى ماذا يقول في الخاطرة ٢٤١ المكتوبة على الورقة غير المكتملة التي ما زالت في حقيبتي، وقرأتها:

> من الأفضل أن نشعر بالإجهاد والتعب للبحث المضني عن الخير الحقيقي، لنتمكن من أن نمد ذراعينا للمحرر.

قاطعني ضجيج قادم من الصالون، أعدت الكتاب مكانه وذهبت لأرى: كان أرتورو يخدش مصراع الشرفة المنخفض بلا جدوى، من يدري منذ متى. أدخلته.

ربما القط هو من يسرق الكتب.

جنون بجنون، قررت أن أهاتف أنجيلو.

أجاب بعد رنة واحدة، من دون أن يمنحني الوقت لأنظم عبارة.

ـ أخيرًا! اعتقدت أنكِ غاضبة.

هكذا بدأ المكالمة.

تبادلنا بعض المزحات لنخفف الإحراج، ثم قلت له إن البروفيسور حُرق حرفيًّا، ولكن سرعان ما سيعود إلى المنزل.

ـ هل ستأتي لزيارته؟

ـ ليس على الفور، فأنا راحل.

كان متحمسًا.

ـ كنت سأقول لكِ خلال خمس دقائق. سأذهب إلى شمال كارولاينا. فزت بمنحة دراسية بسبب قرش ليفورنو.

ضحك. ولكنني لم أضحك.

ـ مبارك، ولكنك ستعود؟

ـ بالتأكيد. خلال ثلاثة أشهر على الأقصى. أنا مسرور جدًّا لأنكِ بحثت عني.

لحسن الحظ. وشعرت برغبة في التدلل.

ـ سأتابع معك حال البروفيسور، رؤيته كل يوم يتدهور تقلقني، وسأحتاج إلى شخص أتحدث معه عن هذا الأمر.

ـ ولكن لا بد أن تعثري على هاتف محمول أكثر تطورًا، وهكذا يمكننا التواصل من خلال أنظمة أحدث من تلك السابقة للطوفان، ما رأيكِ؟ ربما خلال بضعة أسابيع، عندما تستطيعين.

ربما فهم أنني أضع النقود في الحصالة مثل مدبرة منزل جيدة، وأنني لديَّ حسابات مختلفة. شعرت بأنني متأخرة بعض الشيء، ولكن العناية بالبروفيسور تجعلني أحتاج إلى مجهودي فقط وليس إلى التكنولوجيا.

تودعنا من دون أن نتواعد، ثم خرجت لآخذ بعضًا من فطيرة «الكيش» للبروفيسور.

في اليوم التالي عثرت عليه على الأريكة المعدنية خارج غرفته بكيس على ركبتيه والحقيبة بجواره.

تمتم:

ـ سيرسلونني إلى المنزل.

ـ تبدو وكأنك في انتظار القطار. من ساعدك هذا الصباح؟

ـ الممرض. انظري هنا، يقول إنه ترك لي بعض الأشياء لأرشها على الجرح، موجودة في الظرف.

ـ تبدو كرغوة الحلاقة.

ـ وضعوا لي منها أطنانًا، ولكن ربما تكون كذلك بالفعل.

ـ هل تحدثت مع الأطباء؟ هل أعطوك أي أوراق؟

ـ أكثر مما يلزم.

لم ينهض، كان يبدو ككومة من الخرق.

قلت له أن يتشجع واصطحبته للسلالم بخطوات صغيرة. ولكنه تراجع بارتباك، يكاد يكون قد فقد الثقة بإرشادي له.

على قدميه، كانت الضمادات أسوأ من حال لعازر، وكان صامتًا، وخاصة عندما قلت له إن فالِّي يمكن أن تحضر لتطمئن عليه.

سائق التاكسي الذي فتح لنا باب السيارة لديه وشم ثعبان كوبرا على ساعده.

اختتم البروفيسور بعد الناصية الثالثة:

ـ في كل الأحوال لن تتعاون فالِّي، فهي ضحية مفهوم الكمال. ستجد أنهم صرفوني من المستشفى مبكرًا بضعة أشهر.

في المنزل أقنعته بأن يجلس على الفراش النظيف. بالتفتيش في الحقيبة

لم أعثر على المذياع الصغير الذي تركته له في المستشفى، والذي كان الوحيد السليم.

قال لي:

ـ غير موجود، لقد أهديته.

ـ ولكن لمن؟

ـ للممرض.

ـ لماذا؟

ـ لأنه أعجبه، قال إنه سيكون صحبة جيدة في أثناء دورية الليل.

قال هذا وكأنه أمر لا نقاش فيه، مثل بيض اليمامات، والحوالات الخيرية، واستحالة أن تتصل به إليزا في بعض الأحيان.

استنتجت:

ـ إذن، لا توجد نشرة إذاعية.

ـ بالفعل. سيفكر أصدقائي في إعطائي الأخبار، غير المفيدة. المفيدة لديَّ بالفعل: كل شيء له أصل.

حسنًا، بالتأكيد.

ـ إذن، ماذا ستفعل هنا بمفردك؟

ـ سأتأمل.

ـ ولكن ألا تحتاج إلى شيء لتشعر بأنك في حال أفضل؟

ـ بلى، في الواقع. هل تقرئين لي، من فضلك، رقم ٤١، إذا عثرت على «المختصر»، ثم تتركينه في جيبي؟

ـ «من علامات فقدان القدرات الطبيعية تجاه الفلسفة على سبيل المثال: أن تُكب على ما يتعلق بالجسم: أنِ تطيل التدريب والأكل والشرب وتصريف الوظائف الحيوية الأخرى، وأن تكون لديك العديد من العلاقات الجنسية. مثل هذه الوظائف ينبغي لك أن تؤديها بشكل عابر، ويجب أن تصرف جُل اهتمامك على الاستعدادات الداخلية».

كرر:

ـ أعطيني إياه، سأفعل خيرًا أن أتأمل.

ولكنه تأمل مدة وجيزة، فقبل أن تمر نصف ساعة وصلت أورورا وكوستانتينو، ولتكمل الفريق، وصلت فالِّي وهي ترتدي اللون الأحمر، يليها السجين مقطوع الأنفاس.

أتوا من المستشفى، حيث وجدوا «القبر فارغًا».

تبعًا لأورورا، فإن الحدث مشابه تمامًا للرواية الإنجيلية فيما عدا ضمادات الوجه، إلى حد أن طبيب الدورية تحدث عن القيامة.

راكموا الصحف اليومية على المكتب بترتيب القراءة، ولكن لم يستطيعوا الهجوم على العنوان الأول لأن البروفيسور أراد أن يذهب إلى المكتب. بمجرد أن ضبط نفسه هناك مع عديد من الملاءات على المقعد، ظهر أيضًا الطبيب.

سألته:

ـ هل تريد أن تفحصه؟

ـ لا، ولكن سأكتب لكم الأدوية، وهكذا يكون لديه ما يكفيه. أعتقد أن أصدقاءه أكثر فائدة من أي دواء.

بمجرد أن سمعت فالِّي هذه العبارة أصابتها رعشة استياء:

ـ ولكن ألن تضبط حتى كوليسترول هذا الرجل المسكين؟

ـ الكوليسترول؟

خشيت ردًّا مشتعلًا بسبب اللمعة المستمتعة التي ومضت في عينيه:

ـ هذا لو الأمر يتعلق فقط بالكوليسترول.

واستمر في الكتابة.

بمجرد أن وضع التذاكر الطبية على منضدة المطبخ، وقبل أن ينصرف أخرج من حقيبته كتاب «أرتشيبالدو وبيترونيلَّا»:

ـ إليك، في حالة الكوليسترول المرتفع، سيكون هذا رائعًا.

ووضعه بين اليدين الحريصتَين للسيدة فالِّي.

في نهاية الأمر، استعاد البروفيسور عافيته بسرعة، «مثل صبي»، كما قال الطبيب بعد نحو خمسة عشر يومًا.

ولكن اختفت إليزا. ربما تتصل ليلًا عند وجودي في طريق ماتزيني، مع الظلام والبرد الشديدين، إلى حد أنني كنت بحاجة إلى أن أشعل المدفأة. كنت أحاول أن أوفر، ولكن أحيانًا، إذا سمح لي الدفء بالنوم، أكتفي بأن أحلم بأنني أطفئها في أثناء الليل، وهكذا في الصباح أشعر بالذنب. في الواقع كان لديَّ مشروعان اقتصاديان: الهاتف الذكي، ومحام.

لو لم يرحل أنجيلو إلى أمريكا لبدلت الأولويات، ولكن نظرًا إلى ما آلت إليه الأمور أصبح الأمر الأكثر إلحاحًا هو الحصول على هاتف متطور. حيث إن الانفصال قد أصبح حقًّا حاسمًا. حان الوقت بالفعل، وقد قطعت إلى حد بعيد ما يكفي من طريق لأدرك هذا بمفردي. الآن أنا أيضًا أعيد التفكير، وخاصة في أثناء الأحداث وأحيانًا حتى بطريقة مثمرة.

في صباح أحد الأيام وفي أثناء إزالة الأتربة عن صورة المكتب، أدركت أنني أنزع الأتربة فقط عن الإطار.

ـ بروفيسور، هل نزعت الصورة؟

كان غائصًا في مقعد الصالون بالمذياع المعطل الذي يرسل من حين إلى آخر موسيقى يلتقطها.

ـ لا، ألم يعد يظهر أي شيء في الصورة؟

ـ كلها بيضاء.

أمسكت بالبرواز، الأقفال الخلفية كما هي.

ـ لكن لا يبدو أن أحدًا لمسها.

سأل بهدوء:

ـ حقًّا؟

نزعت المسند عن البرواز وفهمت أن الصورة قُلبت. وكأن أحدهم لم يعد يرغب في رؤيتها، حتى وإن شحبت الخيالات للغاية.

ـ آه، إليك، كانت موضوعة بطريقة خاطئة.

ـ أبطال الصورة في وضع أسوأ.

ـ لكنها ذكرى جميلة، أليس كذلك؟

لم أكن متأكدة لهذه الدرجة.

أطفأ المذياع، كان يئز كثيرًا ويسبب الإزعاج. لم يُجِب.

حاولت أن أقترح:

ـ إذا أردت يمكننا وضع صورة أخرى.

علق:

ـ سيكون الأمر سيان بالنسبة إليَّ.

ندمت على الفور لأنني تحدثت بلا جدوى.

ـ ولكن أيمكنكِ أن تقولي لي إذا كان يمكن رؤية ظلال المشملة، هكذا أستطيع أن أعرف إذا كانت ستمطر؟

من الواضح أنه أراد إلهائي.

من خلال الفتحات رأيت حمامة برية: بدأت غناءها الحزين فقط عندما تأكدت من خروج الشمس من السحب.

ـ أجل، يمكن الآن رؤية ظل المشملة.

فتح المذياع الذي أخذ يئز من جديد، وهكذا أطفأه بتنهيدة. كان يبدو حزينًا.

ـ في تلك الصورة لم يجب أن أكون أنا موجودًا، بل تيد. هو وأمه لا بد أنهما يجتمعان الآن بتلك الشمعة الموقدة التي ربطت بينهما يومًا ما.

لم أقل أي شيء، أخذت من جديد الصورة ونظرت إليها. حتى بإدارتها نحو الشمس، يظهر القليل، أو اللاشيء، ولكنني قررت أن هذا لا يهم. سأحاول أن أملأ الفراغات بالكلمات:

ـ إن هذه الصورة أوضح مما تعتقد. يظهر فيها شخصان سعيدان، يتأبط كل منهما ذراع الآخر تحت الشمس القوية لمنتصف النهار، يقفان في منتزه أخضر عليه يظهر برج بيزا والسور، وفي الخلفية يظهر ميدان رئاسة الأسقفية ومن جهة يبدأ شارع الفاجولا. لا يوجد سياح في الجوار، وأحد هذين الشخصين بالتأكيد بروفيسور، لأنه يمسك في يده بـ«علم الأخلاق».

استطعت أن أنتزع منه ابتسامة، ثم طلب مني الصورة، وأمسك بها في يده قبل أن يعيدها إليَّ وقد ثُنيت بعض الشيء. وقال:

ـ ضعيها على الجهة الصحيحة كما يمكن لحضرتك أن تفعلي، ثم أعدي قهوة جيدة لاثنين، وهكذا نشربها معًا.

في اليوم التالي، في الصباح الباكر ذهبت إلى السوق. كنت أريد أن أبتاع حلوى «شينشي» الكرنفال، فقط القليل منها، لأن الأشياء المقلية خاصة ومن ثَم اللذيذة لا تؤدي إلى نتائج صحية جيدة.

أخذت أبحث عن تلك المقرمشات اللذيذة بالسكر فوقها، الهجوم الحقيقي والفعلي على زهد وقت الصيام الأربعيني الذي بدأ منذ يومين. تجاوزت الصف الموجود أمام المحل الذي يقلي كعك «الدونات» خلف الميدان وشعرت برغبة في شراء واحدة جميلة مستديرة. ثم ابتعت مذياعًا جديدًا، بنقودي، هدية. ذلك الجهاز شبه المعطوب الذي يئز على مكتب البروفيسور يمكنه أن يسبب الجنون لأي شخص.

كانوا يسألون من على الرصيف:

ـ هل تصنع رقائق «السكاليوتزي» المحمرة؟

ـ في هذه الساعة؟ انتظر لحظة.

عصيدة «بولينتا» مقلية في الصباح هو طعام الصيادين الذين يسهرون حتى الفجر في البحر، في واقع الأمر.

أشعر بالفعل بالربيع في الأجواء، بدأت الأيام تطول، حتى ولو بدرجة قليلة، والرمادي المسائي يستمر طويلًا.

قلت بمجرد أن دخلت إلى المنزل:

ـ بروفيسور، عندي مفاجأة.

وجدته ما زال في الفراش، وكانت المرة الأولى.

كان المصراع مرفوعًا بأكمله، وكان يجلس ورأسه على كومة من الوسائد. لم يكن معه المذياع ولا الساعة الناطقة.

ـ هناك مفاجأة أخرى؟

إلى ماذا يشير؟ لوهلة شككت بأنه قد حدث شيء ما، ولكن أدركت أن لديه بعض التشويش في أفكاره. ذهبت لأضع بطاريات في المذياع الصغير الجديد ووضعته بجواره من دون أن أقول أي شيء. بمجرد أن حاول التحرك، تحسسه بيده:

ـ ولكن من أين أتى هذا؟ أنا لا أعرفه.

ـ هل أعجبتك هديتي يا بروفيسور؟

أخذ على الفور يبحث عن الأخبار كما يفعل كالعادة، وعندما عثر على موسيقى أعجبته قرَّبه من أذنه وكأنه يُدلل حيوانًا صغيرًا.

علق:

ـ رائع، يعمل ببراعة. هل دفعتِ فيه الكثير؟

ـ إنها هدية ولذلك لن أقول.

ـ هدية جميلة جدًّا، ولكن بلا مناسبة...

ـ المناسبة أنه لم يعد لديك مذياع. ولكن هل تشعر بأنك بخير؟

ـ أنا قلق بعض الشيء، لم أعد أستطيع العثور على الأشياء. على سبيل المثال: غرفي، ملابسي، لا أتذكر أرقام الهواتف. وكأن كل شيء يغوص في الظلام المحيط بي.

ـ لا تعثر على الغرف؟

ـ أجل، وكأنها تتنقل. فجأة أصبح كل شيء نسبيًّا.

يا إلهي.

ـ انظري من فضلك إذا ما زالت هناك «رسالة في الطبيعة البشرية»، نسخة موجزة. الخزانة السفلية. إذا عثرتِ عليه ستكون بداخله زهرة أقحوان جافة، وهناك أيضًا بعض الخطوط.

بطبيعة الحال كانت لعبة البحث عن الكنز.

صاح بالأنفاس القليلة في جسده:

ـ المؤلف هو هيوم.

عثرت على كل شيء:

ـ «إن الخيال لا يُحتفظ به بالنظام نفسه ولا على الوتيرة نفسها التي للانطباعات النسبية، إلا أن الذاكرة موجودة، بشكل ما، في وضع أقل أهمية، لأنها لا يمكنها أن تتغير».

علَّق:

ـ آه، لحسن الحظ.

بينما أدور في المنزل، نهض. كان يريد أن يحلق ذقنه بماكينة حلاقة عتيقة أهدتها إليه إليزا، من يدري منذ كم عام. نجحت العملية بشكل جيد، لأن الأمر لم يكن سوى مسألة لمس. لم يطلب مني القهوة، ولكن كوب مياه. اقترحت عليه بشجاعة الكعكة المقلية. أكل أكثر من نصفها، ربما امتنانًا، نظرًا إلى أنه أعاد إليَّ ما تبقى:

ـ لقد تجاوزت بالتأكيد أكثر من نصفها.

لم أكن متأكدة إذا ما أشار فقط إلى الكعكة، ولكن اكتفيت بأن أعطيته منديل سفرة.

ـ أوصيكِ بأن تذهب القطعة المتبقية للطيور، ربما تحب مذاق السكر.

بعد بضعة أيام، وفي أثناء انتظاره للسجين الذي كان لا بد أن يقرأ له خطابًا من المصرف، ذهب ليأخذ كتاب «خواطر» وطلب مني أن أختار له واحدة حول طبيعة الإنسان، واحدة يتذكرها، ولكن ليس جيدًا. قرأت له العديد منها، ولكن لم أعثر قَطُّ على تلك المقصودة، حتى اعتقد في النهاية أنه مخطئ.

علق:

- إليكِ، إنه تأثير فقدان الاتجاه، هل يمكنكِ أن تعطيني الكتاب، أعرف ماذا سأفعل به.

وضعه في كيس قديم من القماش كان يضعه في أحد أدراج المكتب، مخبأ جيدًا، وجمع فيه كومة صغيرة من كتب أخرى مُمددة.

لم أستطع أن أمسك نفسي:

- ماذا تفعل يا بروفيسور؟

- أي كتاب في حد ذاته لا قيمة له إذا لم يجد شخصًا يُحييه بالقراءة.

- كما تفعل حضرتك، أليس كذلك؟

- بلى. أنا حاليًّا أستخدم الذاكرة، وهي مخادعة، ولكن يستحق الكتاب أن يولد من جديد في كل مرة.

وهكذا اكتشفت، بالمصادفة ومن دون توقع، أنه يحدد كتابًا في اليوم ليهديه.

- ولكن ألا يضايقك هذا بعض الشيء؟

- لا، سأكون أنانيًّا وبخيلًا إذا لم أترك رفاق الرحلة يطيرون نحو خط النهاية.

حررني الاكتشاف من الشعور بالقلق الذي عذبني الآن منذ أسابيع. من يدري إذا فهم تساؤلاتي، أو إذا كان يدرك الشكل الذي بدأت تتخذه مكتبته في عين من ينظر إليها. فهو يخطط للاختفاء بمنهجية معينة، بحيث يخلق مساحات متبادلة تحدد هجرة الموضوعات.

عندما وصل السجين سأله إذا ما كان قد عثر على مكان المجلدات التي أعطاه إياها، واستنتجت من ذلك أن صديقه يعمل وسيطًا لذلك النوع من تهريب الأفكار.

- أجل، عثرت زوجتي بينها على بعض الكتب المثيرة للاهتمام...

- علامة جيدة.

تنهد البروفيسور:

ـ ستتغير هي أيضًا.
ثم قفز وأخذ كتاب «خواطر» من الكيس.
ـ انظر هنا حول الخاطرة ١٠٠ أو شيء من هذا القبيل.
رفع السجين نظارته على جبهته وألصق الكتاب أمام أنفه وكأنه تحت عدسة الميكروسكوب، وعيناه جاحظتان جيدًا ليطارد الكلمات. لم يكن لينتبه إذا سقط العالم حوله، مكث في صمت بضع دقائق بينما انتظر البروفيسور في وضع التمثال، حتى ظل في لحظة ما فاغرًا فمه، وقال:
ـ اسمع هنا قليلًا. لا أدري إذا كنت تبحث عن هذا، ولكنه شيء مثير للقلق فعلًا.
ـ اقرأ، اقرأ، ماذا يقول؟
ـ في القسم الخاص بطبيعة الإنسان: «فنحن نعرف القليل جدًّا عن أنفسنا، إلى حد أن الكثيرين مقتنعون بقربهم من الموت حتى إذا كانوا بصحة جيدة، وآخرون يعتقدون أنهم بصحة جيدة فيما هم قريبون من الموت، ولا يشعرون بالحمى القريبة، والقُرح التي في طريقها للتكون».
أومأ البروفيسور في صمت.
سأل السجين، بعد أن نزع النظارة تمامًا:
ـ هل تعتقد أنه يتحدث عن مرض حقيقي؟
واستمر في لصق أنفه وسط الكتاب وأخذ الآن يلتهم الصفحة بنهم.
ـ لا.
ـ إذن، هنا يفسرها: «نحن نجري بلا تفكير نحو الهاوية، بعد أن نكون وضعنا أمام أعيننا شيئًا يمنعنا من رؤيتها».
ـ تمامًا.
تنهد البروفيسور.
ـ إما لا نرى أو لا نريد أن نرى ذلك الذي يقودنا نحو الدمار. العيون لا تتدخل كثيرًا على كل حال.

هذه المرة تنهد السجين، ربما لأنه فهم إلى ماذا يُلمح. بينما أنا أدور بقطعة القماش بينهما حتى أعاد وضع النظارة مستحضرًا خطاب المصرف، الذي بدا مطَمئنًا أكثر.

لا، لن أقول إنه مطَمئن أكثر.

علق بعد أن انتهى الصديق من قراءته له:

ـ عمليًّا يقول إنهم سيفعلون كل ما يريدونه وليس عليَّ سوى القبول. إما أن تأكل ذلك الحساء وإما أن تقفز من النافذة.

غرس السجين مرة أخرى أنفه في الأوراق:

ـ لديك القليل من النقود، أتعرف هذا؟

ـ أعرف هذا، ولكن هناك من هم في وضع أسوأ. سأترك لإليزا المنزل، وبعض الفكة، بلا ديون.

ـ أنت كيف حالك؟

ـ آه، لا أعرف. لديَّ شعور مستمر بالذنب. واليقين بأنني مستعد للرحيل سواء أكنتُ في حالة سيئة أم جيدة.

لم يكن السجين يتوقع هذه الإجابة، حك جبهته ونظر إليَّ. ربما أراد أن يفهم إذا كنت أعرف شيئًا ما، ولكن فيما يتعلق بالشعور بالذنب هذا الذي لدى البروفيسور الذي يظهر على السطح من حين إلى آخر، تعلمت أن أقبله كما تُقبل السحب والأمطار. أو ربما عليه هو أن يكشف لي سرًّا ما. على كل حال، قرر ألا يفعل هذا.

ـ أنا لن أترك لك كتاب باسكال: فأنت متشائم جدًّا وغير مستعد لهذه الموضوعات، على الرغم من سنك المبجلة. ولكن سأعطيك كتابًا آخر عن تاريخ الفن، لأن مذاق الفن يُعد جزءًا من مفهوم الوراثة.

وفكرت: «لا يوجد رجل عظيم بالنسبة إلى وصيفه».

كنت أعرف كل شيء عنه: إنه لا ينام الليل، وإنه يسمع أكثر موسيقى حزينة، وإنه يريد أن يضع في جيبه رأس التمثال الذي كسره، وأراد أن يمسك

بيده الصورة الشاحبة لأنني وصفتها له جيدًا. لأنه، في نهاية الأمر، يعتمد على صبري من الصباح حتى المساء.

مكثا في المكتب وقتًا طويلًا، وفي النهاية لم يعثرا حتى على سبب جيد للخروج. أحضر السجين الصحف، وبدا البروفيسور متعبًا، كنت أبحث عن دواء لا بد أن يتناوله.

كنت قد تركته على الصوان الجانبي بجوار الأدوية الأخرى، مع العديد من الأوراق الدالة على موعد تناولها.

بعد نصف ساعة عثرت على الزجاجة فارغة في سلة المهملات، وذهبت على الفور لأطلب تفسيرًا:

- اعتقدته للمضمضة في الفم، ولكن كان مذاقه رهيبًا وسكبته في الحوض، ربما كان سمًّا.

- وماذا إذا كان دواء لا يمكن الاستغناء عنه؟

- لا يوجد شيء لا يمكن الاستغناء عنه، على الأقل في مرحلة معينة التي هي ما أنا فيه.

حاول السجين تغيير الاتجاه:

- ما هذه الرائحة يا ترى؟

أجبته:

- خرشوف.

سألني:

- ولكن هل يُطهى بسهولة؟

- بمجرد أن يُزال الشوك ويُنظف جيدًا.

علق ببعض الأسى:

- امممم... سأحاول هذا.

عدت إلى المطبخ، وخرشوفاتي الستة تنظر إليَّ من آنية الطهي ولكن بنية واضحة أنها تقترح شيئًا.

صحتُ وأنا أسمع الباب يُفتح:

ـ انتظر، انتظر!

كان البروفيسور على العتبة يقدم كيسه بالكتاب. أضفت إلى الكيس ثلاثة خرشوفات موضوعة في برطمان، «للتذوق». كان السجين متحمسًا.

قال البروفيسور:

ـ قل لي شيئًا... هل تطهو لك زوجتك الأشواك فقط؟

ـ لا أعتقد أن خرشوفًا دخل من قبل إلى منزلنا، فيما عدا أخا زوجتي...

قلت:

ـ إنها ثلاثة فقط، إذا كان لديَّ ثلاثون لكنت أعطيتها لك عن طيب خاطر، مع كل الذي أدينه لك.

علق البروفيسور:

ـ اذهب على الفور إلى المنزل، قبل أن يسوء الجو أكثر من هذا. فهو ممتلئ بالسحب.

نظرت إلى النافذة، السماء تتلألأ على قمم التلال وتجعلها تبدو مخملية، صافية كما يحدث عندما يزهر الربيع.

الفصل الواحد والعشرون

المنعطف وخندق فولتوني(*)

هبَّت عاصفة عنيفة، ولكن وجيزة، عادت بعدها الشمس. أحيانًا في المناطق البحرية يحدث هذا، بطريقة خاطفة وبلا تفسير. أخذت ضربة مياه فوق السكوتر وكان منزلي يثير الشفقة، المشتريات مبتلة تمامًا، ولم ينجُ حتى خبز الريف، يناسبني أكثر أن أصنع منه سلطة خبز.

دخلت إلى منزل فارنيزي في تلك الحالة ووجدت إليزا. لا بد أنني كنت أشبه خيال المآتة، بالحكم على وجهها.

ـ هل نزلتِ تحت الدُّش بملابسكِ؟

ترتدي الجينز المعتاد وكنزة قطنية سوداء مكتوبًا عليها:

إذا تصرفت كالنعجة(**)

على الناحية الأمامية. قصت شعرها ولم تستطع أن تلمه في ذيل حصان كما يجب.

ـ فاجأتني العاصفة منذ قليل.

ـ منذ قليل كنت مع أبي في الشرفة ولم ترعد حتى.

سمعت صوت البروفيسور من بعيد، ربما من الحمام:

(*) الاسم المعروف للخندق الملكي في ليفورنو. (المترجمة).

(**) بداية مثل إيطالي، ونصه الكامل: «إذا تصرفت كالنعجة سيأكلك الذئب». (المترجمة).

ـ بل رعدت.

قدرة على السمع ممتازة بالفعل.

قلت لها بسرور:

ـ لم نتوقع حضورك.

علقَت:

ـ الشيء الوحيد المسلي فيَّ المفاجآت.

وضعت ملابسي المبتلة على منشر الغسيل، وارتديت تيشيرتًا من تيشيرتات البروفيسور المقطعة في انتظار أن تجف. بدأت الرياح ترتفع، وكأنه بمجرد أن قدمت عرضها احتاجت السماء إلى أن تقلب الصفحة.

قالت إليزا من الردهة:

ـ عندما يحتاج الأمر إلى شيء يحدث.

رأيتها من ظهرها، وهكذا قرأت المكتوب من خلف التيشيرت:

فالذئب نباتي.

التجول بشيء مكتوب بحروف عريضة كان تحديًا كبيرًا.

تتحدث مع البروفيسور الذي يحرك ذراعيه في المكتب بحثًا عن شيء لا يعثر عليه.

ـ ما معنى «عندما يحتاج الأمر إلى شيء يحدث»؟ الأشياء يجب حلها من جذورها بطريقة منهجية وبالتدريج.

كان يقول:

ـ لا يكفي أن يغلق المرء نفسه في دير لمدة شهر. ثم أي دير؟

نظرتُ إلى إليزا بفضول، أومأت هي وأشارت إليَّ بأن أصمت في نوع من التواطؤ.

ـ مكان للتكريس، «oblate»، مكان جميل على البحيرة.

كنت مدهوشة أكثر من أبيها، بل شعرت بأنني أسقط من بين السحب.

ـ «oblate»، يعني النسيان والضياع، ولكن البذور لا تُنسى. وخاصة

تلك التي بحثت أنت عنها. الآن ماذا ستفعلين بعد ذلك؟ ماذا ستصبحين؟

ـ نباتية.

غمزت من جديد. ربما تمزح، ولكنها ليست من النوع الذي يأتي خصوصًا من سويسرا ليسخر منا.

ـ لا أريد أن أعرف شيئًا عن هذا، ولكن لا أريد حتى أن أعرف هذا.

كان لدى البروفيسور شيء من الطاقة الصباحية التي تعجبني، لا بد أنه الدواء الجديد. أما أنا فلم أستطع أن أفهم شيئًا، أهيم في المطبخ من دون أن أتذكر لماذا. ربما ما فعلته إليزا هو تجربة روحية.

صرخَت خلفه:

ـ لا بد من عمل نوع من التحديث!

ـ هل اكتشفت المياه الساخنة؟

في أثناء ذلك أخرج البروفيسور كتيب إبكتيتوس من جيبه.

ـ اقرئي هنا مفيد لك، رقم ١٣.

ـ لن نتحدث عن هذا!

ـ افعلي هذا من أجلي.

زفرَت:

ـ «إذا شئتَ أن تُحرز تقدمًا فلا تستنكف أن تبدو بليدًا ساذجًا تجاه الأمور الخارجية». آه، وكأنني لم أعرف هذا. «ولتعلم أنك لا يمكنك أن تبقى منسجمًا بإرادتك مع الطبيعة، وأن تضمن لنفسك الأشياء الخارجية في الوقت نفسه؛ ذلك أنَّ المرء إذا اهتم بهذه فلا مناص له من أن يُهمِل تلك». ولكن هذه الأشياء عفا عليها الزمن.

تمتم:

ـ شكرًا، أعيدي إليَّ الكتيب. الحياة والموت والسعادة والسلام أشياء لا تفقد صلاحيتها.

وصلتُ وسط حوار جاد لم أرغب في أن أدس أنفي فيه، ولكنني لم أستطع الرحيل. كنت هناك، مع المشتريات التي أحضرتها، وأمامي المنزل لأنظمه والغداء لأحضره. سألت نفسي ماذا يمكنني أن أطهو لنباتية مبتدئة، لم أعرف شيئًا عن هذا.

وفي تلك الأثناء، بدا أنه لا هي ولا أبوها كانا مهتمَّين بوجودي. على الرغم من المناقشات، كان الأب سعيدًا بالمفاجأة، هذا أكيد.

ذهبت لأنظر إلى التقويم: لم تكن هناك إجازات، واليوم بالأخص هو الثلاثاء. إلا أن إليزا كانت بمفردها، أقل عصبية من المعتاد، ولكن بالتأكيد أقل تحفظًا.

ـ نحن سنخرج.

قال البروفيسور، ووضع بهدوء فردة حذاء سوداء وأخرى أقل سوادًا تحت النظرة غير المبالية لابنته:

ـ إذا كنتِ سترحلين من المنزل وستغيرين عملك أيضًا ستحتاجين إلى أشياء كثيرة. ولكن كيف خطر هذا في بالك؟ وماذا عن الفتاتين؟

ـ لديَّ ثقة بالعناية الإلهية.

ـ أتمنى ألا يكون اسم العناية الإلهية لوتشانو فارنيزي لأنني أشرف على النهاية.

بدا أن إليزا ترغب في أن تسير في طريق الانعزال الرهباني في الحقيقة. بالتدريج، بالتأكيد، نوعًا من «الأفنتينو» الدائم.

في رأيي لم تكن لديها أفكار واضحة جدًّا هي أيضًا. وأبوها لا بد أن يكون من رأيي أيضًا. قال:

ـ الآن سنتحدث في هدوء في مكان يتفق مع العقلانية، وقبل كل شيء سنحاول أن نقيم حوارًا سقراطيًّا.

ـ هل سنذهب إلى تراس ماسكاني؟

من الواضح أن إليزا تعرف تمام المعرفة ماذا يعني «حوارًا سقراطيًّا».

- أجل، مرورًا بالفيلّات، وأيضًا فيلّا ميمبلّي.
- على العموم أول شيء سأفعله هو التحرر من هاتفي الذكي.
أنصتُّ باهتمام، يمكن أن تكون هذه فرصة جيدة لي.
- عظيم، فأنت لا تستهلكينه بالتأكيد لتهاتفي المذكور أدناه.

لم يكن في إمكان إليزا أن تعرف أن أباها حرق رِجليه، فقد التزمنا الصمت. ولم يكن في إمكانها أن ترى العلامات التي تراكمت: اللامبالاة تجاه الأخبار والمذياع المغلق لأوقات طويلة، والساعة الناطقة المختفية ولم يبحث عنها، ربما فرغ شحنها منذ أيام ومدفونة في أحد جيوبه، والكتب المهداة. حتى الصحف تظل غالبًا مغلقة ومتراكمة على المكتب، وأحيانًا آخذ منها بعض الصفحات لأنظف زجاج النوافذ من دون اهتمام.

بدا وكأنه ينفصل عن الأشياء، بطريقة أكثر مرارة ومعاناة من تلك التي للمكرسين. الأشياء الوحيدة التي لم يبدُ أنه قد تعب منها هي «أماكن الذهن»، والذكرى التي لديه لبعض الأماكن التي يحفظ صورة لها.

سأل إليزا بمجرد أن عادا إلى المنزل:
- متى سنذهب إلى فياريدجو؟
- قل لي أنت يا بابا.
لم ترغب في أن تتجول بالسيارة، كان واضحًا.
جلس البروفيسور على «الأفنتينو»:
- إذن، لنذهب غدًا: هناك سيكون السير أفضل، رصيف متسع، شارع طويل يصل حتى ليدو كامايوره. أتذكر تسلسل بنايات على طراز ليبرتي والميناء. رصيف الميناء متسع للغاية ويمكن السير حتى القمة حيث، في وقت ما، كنا نلقي بأنفسنا لنعوم.
أحد «أماكن الذهن».
كان يبدو ميتًا من التعب، وقال إنه ليس جائعًا.

ـ ماريا فيتوريا، إذا أردتِ يمكنك أيضًا الذهاب إلى المنزل، هذان اليومان سأهتم أنا بكل شيء. هل أنت موافق يا بابا؟

أومأ بشيء من القلق، وكأن وجود الابنة يتطلب جزئيًّا مجهودًا مضاعفًا، ولكنه واجب، ولا بد للأب الصالح أن يبذله. هو نوع من الحكمة السائدة بين العناصر التي تقع تحت مفهوم الوراثة وتُترك للأخلاف.

مجهود رهيب.

اقترحتُ أن آتي على الأقل لأطهو شيئًا ما، ولكن بدت إليزا متعنتة. قبل أن أخرج، قالت لي بعدم اهتمام:

ـ سأترك هاتفي الذكي على الفراش، هكذا يمكنك أن تتخلصي من ذلك الحجري الذي لديك. أنا ملتزمة بهذه المسيرة التصاعدية التي لا تعجب أبي، ولكنه هو نفسه يفعلها منذ عشرات السنين، من دون أن أعارضه.

وارتفع صوتها لتقول العبارة الأخيرة.

ـ أشكركِ، ولكن هل أنتِ متأكدة؟

أضافت:

ـ سأراكِ قريبًا، على ما أعتقد.

ولكنها لم تؤكد الوقت لأن هذا بدا لها الموضوع الذي تنوي الانفصال عنه.

في ذلك العصر، عند عودتي إلى المنزل، حدث ذلك الذي كان لا بد من حدوثه إن عاجلًا أم آجلًا. على ناصية بورجو داي كابوتشيني على طريق ماتزيني، لم تعطني سيارة «باندا» أولوية المرور، وتجنبتها بصعوبة. وفي لحظات كاد ذلك الغبي يصدمني، ولكنني أرسلته حيث يستحق. قرأت الرقم وتعرفت على السيارة.

ـ إذا ألقيت بك أرضًا سأفعل خيرًا بالتأكيد!

خرج زوجي السابق مندفعًا من السيارة، بقميص مكرمش خارج من بنطاله. تعرف عليَّ على الرغم من الخوذة ذات الحاجب المنخفض. كان

قد اسمرَّ، من الواضح أنه يمكث خارج المنتجع الذي يعمل فيه أكثر من مكوثه في الداخل في مكتب الاستقبال.

ـ قال لي ماوريتزيو إنكِ تدورين في طريق ماتزيني، أعبر من هنا كل الأيام عمدًا.

ووجه لي السبابة.

صرخت أمه من نافذة السيارة:

ـ هيا تعالَ، فالوقت متأخر! لن نمكث لنتشاجر.

سألته:

ـ وماوريتزيو لا يستطيع أن يهتم بشؤونه الخاصة؟

ـ وفي رأيك أنا أسمح أن يعاملني أحد كما عاملتني أنت، هكذا بلا أي سبب؟

ـ كما فعلت أنا لأعوام.

ـ اسمعي، دعينا ألا نبالغ وإلا...

ـ وإلا؟

ـ لا تستغلي واقع أن أمي موجودة في السيارة.

ـ صباح الخير سيدتي!

فتحت هي الباب، كانت تمسك بكلب صغير على ذراعها:

ـ ماذا إذن؟ اختفيتِ تمامًا. هل يعجبك هذا؟ أليس محببًا؟ سنأخذه ليتطعم.

نزلت من السكوتر وذهبت لأنظر إلى «الشيواواه». نبح في وجهي.

ـ أهداه إليَّ لأنني بكيت على بارولو.

ـ أفهم بالطبع.

لم تسألني عن أي شيء، لا أين أمكث ولا ماذا أفعل، ولا لماذا رحلت. فلقد اشتراها ابنها بـ«الشيواواه». قلت لابنها:

ـ نظرًا إلى أنك عثرت على الطريقة التي تستطيع أن تقف بها على قدميك، فلتمنحني أنا أيضًا هدية ولتضع توقيعًا صغيرًا في المكان الصحيح عندما تحين اللحظة.

ـ ثم ستقولين إن عليَّ أن أعولكِ، هل تظنين أنني غبي؟
ـ اهدأ، لن أطلب منك مليمًا، يكفي أن أتخلص منك.
أعجبه الأمر، نظرًا إلى كم الحب الذي يكنه لي.
ـ ثم إنكِ سترين بعد مدة من الزمن، أننا كنا متفقين. هل تفهمين؟
أخذت أضحك:
ـ وهكذا نحن متفاهمان؟ فلتلقِ في سلة المهملات خمسة عشر عامًا من التمثيل الصامت.
ـ تمام هكذا.
ـ أحسنت.
رفع كتفيه، في رأيي لا بد وقد عثر بالفعل على الطريقة التي سيستبدلني بها. وبالنظر إلى قميصه، لم تكن المكواة من نقاط قوتها.
ـ إذن، تمكثين في تلك الأنحاء؟
ـ تقريبًا، ولكن الأمر لا يعنيك.
ـ إذن، حققت ثروة.
ـ عثرت على منجم ذهب بمجرد أن أنهيت علاقتي بك.
استحثته أمه:
ـ هيا تعالَ، الطبيب البيطري ينتظرنا!
ـ منذ ساعة ونحن ندور في دوائر في طريق ماتزيني...
ـ حظًّا سعيدًا. وحاول أن تعطي الأولوية لمن كانت له دائمًا!
ركبت السكوتر من جديد. وصِحت وأنا أتجاوزهما. ولكن تجاوزت باب البناية التي أسكنها ودخلتُ في شارع ماراندي، وهكذا لا يعرف أين أمكث.

ـ إذن، العبور من أسفل ميدان لا ريبوبليكا، وفي النهاية تكونين في ميناء مراسي دازيليو. يمكنني أن أوصلكِ إذا ناسبكِ هذا!
مانيكالي نظر إليَّ مستمتعًا من القارب الراسي في مراسي أنكوره.

كان ذلك صباحًا غريبًا. أخيرًا كنت بمفردي وأدور بلا هدف محدد، وبلا خوف من مصادفة لقاءات سيئة مثل تلك التي لليوم السابق. ولكن في نهاية الأمر كان هناك توضيح ما.

تركت السكوتر في مراسي بيتاريني وسرت نحو حي فينسيا، من خلال عبور ميدان لا ريبوريكا الكبير، ووصلت بعدها إلى الجسر الأول المفيد للوصول إلى مراسي بيتره وشارع بويا، وشارع بيسكاتوري، لأشرد بين تلك الشوارع الضيقة حيث تفوح رائحة السمك والكلور.

وهكذا وصلت إلى سانتا كاترينا، المتخذة شكل الفنار، لأضع شمعة وحيدة معوجة، ثم اتجهت نحو الميناء.

سألني مانيكالي:

- ماذا تفعلين في تلك الجهات سارحة هكذا في وسط النهار؟ لقد ناديتكِ على الأقل ثلاث مرات، وأنا ألوح لكِ بيدي، ولكن لم تردي.

- سامحني، لم أتصور أنه أنت.

يرتدي سترة خفيفة من الجينز من تلك التي تُباع في السوق الأمريكية وتحتها قميص بمربعات، بدا وكأنه خرج من خزانة شبيهة بخزانة البروفيسور.

- إليكِ، تعالي لأعرفك على المكان. أراهن أنكِ لم تقومي بجولة جيدة حول القنوات بمركبة سريعة كهذه.

القارب عمليًّا نوع من أنواع قوارب الصيد، مضاف إليه العديد من الألواح الصغيرة، وطُلي حديثًا بالطلاء الأزرق، ولكن له معبر رفيع يربطه بالشاطئ. لم يكن في إمكاني الرفض.

علق مانيكالي:

- أحسن أنجيلو القول، يراكِ جيدًا جدًّا في بيزا، وليس في صندل تشربين فاتح الشهية، ولكن لنقل على درابزين عريض من أرصفة الأرنو، بلا أي شراب، وإلا ستفقدين توازنك.

- أليست لديكما موضوعات أفضل؟

مد لي يده، تشبثت بها بلا أي تحفظات. بمجرد أن أصبحت على المتن عثرت على بعض الكلمات لأجامله بخصوص القارب. في الواقع كنت أحتاج إلى تلك التوصيلة، فحذائي الجديد يؤلمني.

ـ اسمعي، سأدخل مباشرة في لب الموضوع. كتب لي أنجيلو سلسلة من الشكاوى من أمريكا.

ـ آه، فعلًا؟ وأي شكاوى؟

وشعرت برغبة في الضحك.

ـ إنه لا يسمعكِ ولا يراكِ، ولا أي شيء، حتى المكالمات بالفيديو لا يمكنكِ تلقيها. فيما بعد أعطيني عنوان البريد الإلكتروني، حسنًا؟ هكذا أرسله إليه.

أخذ قلبي يطلق شرارات.

سألت مانيكالي:

ـ كيف تعرفت عليَّ؟!

ـ شقراء شاردة تتجول في مراسي أنكوره يمكن ملاحظتها، وخاصة إذا كانت واحدة تنظر بدهشة إلى القلعة القديمة. تعجبكِ ليفورنو، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ وأنا أيضًا. كيف حال فارنيزي المسن؟

ـ لا بأس. إذن، هل سنمر تحت خندق فولتوني؟

شغَّل المحرك، وانفصل القارب بعض الشيء عن الرصيف متجهًا نحو الأرض. نعطي ظهرنا للميناء الذي تظهر منه مدخنة سفينة عالية كما تظهر رافعة مخازن نيري، تحت القلعة. نتحرك نحو قلب الحي. كنت أشعر بالبرد هناك فوق، ولكن لم أرغب في أن أقول له، حتى لا أبدأ أنا أيضًا في الشكوى.

من الجميل مراقبة القناة من مركز رؤية مختلف، هكذا من المياه وفي ملء الشمس شعرت بالإعجاب أكثر بجزء ليفورنو الشبيه بفينسيا. أرى

البنايات الملونة تمر بجوارنا، الواجهات بلون الفانيليا والأصفر والسلمون والوردي الشاحب، تقريبًا كلها بمصاريع خضراء قاتمة التي تنعكس على المياه المظللة للقنوات.

ـ ماذا قلت؟

كان صخب المحرك يغطي على الأصوات.

ـ هل تخافين من أن تمري من هناك؟ أسفل الميدان.

تطير طيور النورس مبتعدة، تضج في أثناء مرورنا، وتزعج أيضًا هدوء القوارب الراسية في صف حتى مدخل فولتوني. ظلت القلعة الجديدة على اليسار تاركة خلفها المرآة المتسعة من البحر التي ترتفع عليها الجدران وجزء من مراسي الكانتينه، ثم سندخل تحت النفق الطويل المظلم، أسفل ميدان لاريبوبليكا، مع المياه التي ترسل انعكاسات على القنطرة السوداء.

ـ إذن، ماذا ستحكين لي عن صديقنا فارنيزي؟

هناك في نهاية فولتوني، صوت مانيكالي يعود مجوفًا بعض الشيء، كما سمعته أول مرة عندما كان مصابًا بالبرد الشديد.

ـ حسنًا، يبدو لي أسوأ بعض الشيء، ربما يشعر بالربيع.

كنت غامضة قليلًا، وصوتي يدوي أيضًا.

ـ ربما كانا الأمرين معًا.

ـ أيهما؟

ـ الربيع والرغبة في الرسو، نظرًا إلى أنه قد ميَّز المرسى.

خرجنا من الفولتوني حيث بدت السماء لامعة أكثر، وكانت مراسي سافِّي في متناول اليد.

اقترب القارب من نقطة لا بد عندها أن نقفز إلى الشاطئ، وساعدني مانيكالي لأصل إليه بعد أن ألقى حبلًا.

ـ هل أعجبتكِ الجولة؟ انتظري!

مكثت مدهوشة بعض الشيء على الشاطئ.

ـ لا بد أن تعطيني عنوان البريد الإلكتروني!
ـ أعطني أنت عنوان أنجيلو.
كتبه لي بقلم رصاص خلف إعلان تخفيض جيد لمسكن.

عندما دخلت المنزل في اليوم التالي، مبكرًا أكثر من المعتاد، كان البروفيسور في مزاج سيئ جدًّا، وهناك رائحة سيئة جدًّا مختلطة برائحة كحول. إليزا رحلت بالفعل.

تركت الهاتف الذكي على الفراش، تملأه كله بقع أصابع، ومتوقف بالتأكيد. في المنزل الجو حار، شديد الحرارة. من جهة أخرى، تدخل الشمس بدفعات حيث لم تجد حتى آثار ملح البحر على الزجاج ليمنعها. أنظفه كثيرًا لأنه بوابة الضوء، ومن ثَم ثمين في ذلك المنزل.

ـ ولكن إذا أمطرت فستفتحين المدفأة قليلًا، أليس كذلك؟

سألني البروفيسور من دون قناعة شديدة. كان يتدثر أقل من المعتاد، ويرتدي سترته الصوفية المتهالكة مقلوبة على ظهره المكسو بالعظام.

اهتم بخبرتي البحرية الوجيزة في الآبار وهو يحاول أن يسبق وصفي على أساس ذكرياته، وهكذا عرفت التغيرات التي تتعلق، بصفة خاصة، بحركة المرور، وعدد المراكب التي لديه «صور قليلة» عنها.

ـ في وقت ما كان كل شيء أكثر.
ـ أكثر؟
ـ كنت أنا مختلفًا، ربما. ليس فقط العالم. وبهذا لا أريد أن أقول إن العالم الآن أسوأ، الشر موجود أيضًا من قبل، ولكن ربما كان من الأسهل التعرف عليه. الآن أصبح متنكرًا بيئيًّا.
ـ بمعنى؟
ـ أصبحنا ضحية للنزعة النسبية.

ها نحن.

لم يفسر نفسه. ذهب ببساطة ليفحص صفحات كتابه الموضوع بجوار الصورة الشاحبة، وربت على الصورة. لم يفعل ذلك من قبل.

كان باب الحمام مواربًا، ولكن بدلًا من أن أدخل تسمرت على العتبة. العفونة قادمة من هناك، وصُدمت: بياضات متسخة ملقاة على الأرض، وقاعدة المرحاض في فوضى، ودماء وقالب صابونة الحوض وقد تحولت إلى عصيدة، وبصمات على الجدران. فكرت: لا بد أن هذا حدث منذ قليل، وإلا فتلك الرائحة المثيرة للغثيان كانت ستصل إلى عتبة السلم، والأرضية لا تزال رطبة. لم أقل أي شيء، ولكن هاجمتني صدمة من الخوف. أطار هذا الإعصار بعيدًا أي فكرة أخرى.

تراجعت بعض الشيء، وأنا أستند إلى جدار الردهة. حتى هذه اللحظة كان كل شيء جديدًا، مثيرًا، وجذابًا، ولكن يمكن التحكم فيه. في تلك اللحظة بدا لي أن أحدهم أطلق ثقلًا معدنيًّا في مرآة معدتي، وهزني من ذلك الهدوء الطفولي الذي كنت أستلقي عليه. في أعماق أعماقي أريد أن أترك خارج الباب كل الإساءات والثقل، وكأنها كلها يجب ألا تمسه ولا تمسني، أنا التي أعتني به. شعرت بالشلل، بلا أي تعليمات أمنحها لنفسي لأتخذ خطوة ما، للأمام أو للخلف.

ربما شعر البروفيسور بأنني توقفت.

ـ هل تسببت في خسائر؟

ـ لا، ليست كثيرة.

كذبت، وتسلحت بكل أنواع الإسفنج لأنظف تلك الكارثة. شعرت بغثيان شديد، وتمنيت أن أرى من جديد كل شيء في مكانه في غمضة عين.

ـ ألا تشعر بأنك بخير يا بروفيسور؟

ـ ليس بالتحديد. «الرجل اعتمادي، أحتاج إلى أمنية الاستقلال»، كما يقول باسكال.

استغرقت وقتًا أطول مما تخيلت، لم أعد حتى القهوة، ولكنني استطعت

أن أمحو كل أثر، بما في ذلك الرائحة، قبل أن تفاجئنا فالِّي في المنزل من دون إنذار. ولكنني وجدتها أمام الباب بوجه متألم ومعها آلة صغيرة.

أعلنت:

ـ «الهولتر» معي.

سأل البروفيسور بتعب:

ـ ماذا؟

ـ شيء يجب عليك أنت أيضًا أن تفعله.

ذهبَت إلى المكتب لتحكي له عن قرب فوائد هذا الجهاز الذي يسجل سلوك القلب طوال اليوم.

قال:

ـ فهمت، على كل حال «القلب له أسبابه التي لا يعرفها العقل». إذن، إذا لم يعرفها العقل، فهل ستعرفها هذه الآلة الصغيرة؟

ثم أغلقا الباب، وتحدثت فالِّي طويلًا بصوت منخفض لم يترك مجالًا لتوقع أي شيء جيد. التقطت بالمصادفة أنها تحاول إقناعه بأن يذهب إلى «مؤسسة متخصصة لفاقدي البصر».

ـ هناك سيقرأون لك كما تريد، ثم سيكون لديك مساعدة مستمرة... حتى في الليل.

من الواضح أنني يجب ألا أسمع.

كان صبورًا، على غير العادة، وهو يصحبها حتى الباب، اكتفى فقط بالسؤال:

ـ هل حقيقي أنكِ ابتعتِ بالفعل مكانًا لنفسكِ في المقابر؟

ـ طبيعي، ابتعته في أعلى، كانت صفقة جيدة، ولكن لا بد أن أسرع لأن الصلاحية تسقط خلال عشرين عامًا تقريبًا...

ـ ولكن ألستِ مصابة بالدوار؟

ـ ماريا فيتوريا، من يدري ماذا يحدث الآن في قلبي: لقد أتيتُ إلى هنا

خصوصًا بـ«الهولتر» لأتأكد من أنه يسجل لي أيضًا اللحظات التي أغضب فيها.

ـ ماذا تريدين أن يحدث له؟ سيشرد قليلًا.

عندئذٍ أخذ البروفيسور يبحث عن زوجَي حذاء لم أرَهما من قبل، على الأقل على أساس الوصف الذي قدَّمه. تقف فالِّي في ركن نادمة، ثم اعترفت في النهاية:

ـ كانا مثيرَين للإحراج، فألقيتهما.

ـ ابتعتهما مع إليزا وقت تساقط الثلوج.

ـ وكم مرة تساقط الثلج في ليفورنو في الأعوام الثلاثين الأخيرة؟

ـ فقط تلك المرة، ولكن سرنا مدة طويلة في أنتينيانو، وكان يمكن رؤية الجورجونا.

ـ حسنًا، الآن وقد تقدمنا في العمر عندما يتساقط الثلج، نحبس أنفسنا في المنزل لأن هذا أفضل. على كل حال لا ثلوج اليوم.

خرجا في صمت، ربما كان لدى فالِّي بعض المهام، أو حوار آخر بغيض. وضعت حساء الحنطة على النار، وحاولت أن أتصل بالطبيب بلا جدوى. ثم ذهبت إلى المكتب، المكتبة تقريبًا فارغة. فارغة مثل زجاجة شمبانيا بعد حفلة.

نزلت لأرن جرس الباب عند الطبيب، على أمل أن يكون بالمنزل. وجدته. قصصت عليه أن البروفيسور مر بحادث مقلق، وأنني أخشى أن أطهو شيئًا غير مناسب لمعدته. هز رأسه وقال لي إن المتاعب لا تعتمد بالتأكيد على ما أطهوه.

ـ منذ بضعة أيام أتت السيد فافيلّا إليَّ. قالت لي إن البروفيسور طرق بابها في الرابعة صباحًا وهو يعتقد أنه في المطبخ. ناداها باسم زوجته، واضطرت إلى أن تصحبه إلى المنزل وتهدئه. فعل ذلك مرتين، وفي المرة الثانية هرب منها قطها.

صُدمت.

ـ لم أعرف شيئًا عن هذا، قال لي إنه «يتوه في الغرف»، ولكنني اعتقدت أنه تعبير ما. لماذا، في رأي حضرتك، لم يقص عليَّ ما حدث؟

ـ لأنه ينسى على الفور ما حدث.

ـ ولكن في أثناء النهار يبدو كعادته تقريبًا. ما العمل؟

ـ لا شيء، ولكنني اضطررت إلى أن أحكي ما حدث لابنته التي رأيتها منذ بضعة أيام، لا بد أن تتحمل مسؤولياتها.

إذن، هرعت السيدة فالِّي لنجدته حتى لا تترك زوج أختها تحت رحمة إليزا. ولكن أي خطة ستخطر في ذهنهما ستحتاج إلى وقت.

ومن جهة الوقت ليس بالإمكان هزيمة البروفيسور.

الفصل الثاني والعشرون

غراب إبكتيتوس

كان عيد القيامة على الأبواب عندما اتصلت إليزا لتقول لأبيها إنها عثرت على مؤسسة مناسبة له، مكان «مُرحب»، الذي ستأخذه إليه بعد الصيف.

ـ بعد الصيف؟

بدا البروفيسور مدهوشًا. وشعرت أنا بالدوار، إذا تحركت إليزا شخصيًّا، فالأمر بالنسبة إليَّ انتهى.

من بعض العبارات المتقطعة فهمت أنها موجودة في النمسا في عمل، وليس في دير، ربما في هذا الوقت لديها أشياء مختلفة للغاية لتفكر فيها.

ـ لكنني لن أستبعد الفكرة.

علق البروفيسور بعد ذلك بيأس:

ـ سأحاول بالتأكيد، وخاصة فيما بعد عندما أُصبح عائقًا بالفعل.

حاولت أن ألخص لنفسي ما تبادلاه من حديث: سيقضون الإجازات معًا، ثم ستكرس هي نفسها لنوع من «الدخول التدريجي» في «أرض النعيم» هذا، كما يطلق عليه هو.

من يدري ماذا تعني بتدريجي، حيث إن طبيعتها هي الوصول ثم الرحيل مرة أخرى كالإعصار.

لم يكن لديها خيار، شرحت له: الفتاتان تكبران ولديهما العديد من

الاحتياجات، والالتزامات كثيرة، والعمل يأخذ منها دائمًا وقتًا أكثر. تشعر هي بالالتزام المعنوي لمواجهة المسألة من جذورها.

شعرت أنا بالاستبعاد، قلت له هذا بحرص لأنني فهمت أن أي ارتباك يخصني لن يكون سوى أمطار تهطل على المياه. ولكنه لم يرد.

لأول مرة سألني إذا كان منتبهًا، وشعرت بالخجل من تلك الفكرة. أفضل تخيل أن تيهاته تلك لم تكن سوى وسيلة ليسخر منا جميعًا، وليست علامة على أن حالته المرضية تتدهور.

نظرت إليه، يقف مثل أبي الهول تمامًا. أخرج كتيبه:

ـ هل يمكن أن تقرئي الثامن عشر من فضلك؟

توقفت عن تقطيع الجزر وجففت يديَّ:

ـ «إذا تصادف أن نعق غراب بالشؤم فلا تدع المظاهر تأخذك بعيدًا، بل سارع إلى التمييز وقل لنفسك: «لا شيء من هذه الأشياء يشير إليَّ، إنما يشير إلى جسدي التافه، أو إلى ممتلكاتي الضئيلة، أو سمعتي...»».

ـ وكيف يختتم؟

ـ «... أما بالنسبة إليَّ فكل النُّذُر هي نُذُر خير إذا شئتُ ذلك. فإذا ما ألمَّ بي أي شيء من هذه الأشياء فما زال بوسعي أن أفيد منه خيرًا».

ـ هل يمكن أن تتركيه على صوان السفرة، من فضلك؟ لا بد أنني قد ارتكبت العديد من الكوارث التي لا أدركها.

ـ يجب ألا تقلق من ذلك.

ـ ولكن حضرتك التزمت الصمت، أليس كذلك؟

ـ أنا مثل القبر، يمكنني أن أسير أيضًا ضد مصلحتي، ألا تعرف هذا؟

ـ بالتأكيد!

وعرضت عليه أن أنام بعض المرات هنا، كما حدث عندما احتجت أنا إلى هذا. ويكفي أن أُبعد عنه احتماليات مكان «مُرحب».

ولكنه قال بعد أن تأمل في العرض:

ـ لا، ما دمتُ تمكنت من ذلك، لا.

رنت كلماته وكأنها النعيق الحزين لغراب إبكتيتوس، ولكنني لم أعد إلى الموضوع.

ثم طلب مني قهوة، أراد أن أقرأ له مقالًا سياسيًّا قديمًا من شهر، وجلس بجوار الهاتف على «الأفنتينو».

ـ الآن سنرى إذا كان هذا الجهاز سيخرج شيئًا أفضل من بيت الراحة، عندما تحين الساعة.

وخرج «باقتراح جديد غير متوقع»:

ـ تقترح أورورا اليوم فيلًّا فابريكوتي، مع السجين المُسلح بالمقالات. يرقد كوستانتينو في الفراش بالتهاب في المفاصل.

ابتهج الجو فجأة كعبور نسمة هواء. بحث عن الصحف الأحدث من دون أن يعثر عليها، ومن دون حتى أن يقلق لأنه لم يعثر عليها، بل أكد أن ذلك الذي يعرفه بالفعل يكفي ويزيد، إلا أنه أراد أن يخبرني بشيء «أساسي»:

ـ نظرًا إلى المشاريع الحربية لابنتي وأخت زوجتي، سنخترع خطة لإجراء بديل لمستقبلك التي عليها سأضع ختم التصديق.

ثم قبل أن يخرج من الباب أضاف:

ـ نسيت أن أقول لحضرتك إنه في حالة إذا كنتِ ترغبين في عمل الكوسة المسلوقة...

ـ أن أحترس جيدًا.

ـ لا، يمكنكِ إعدادها أيضًا.

سبَّب لي هذا الأمر الاضطراب أكثر من الخبر السابق. نظرت من النافذة لأتأكد من تحركاته، كانت أورورا تغرس أنفها بين صفحات مجلة. وصلت نغمات التحيات حتى الطابق الأخير ثم توجهوا إلى نهاية الشارع حيث تقدم السجين منحنيًا ونظرته ملتصقة بالأرض حتى لا يتعثر.

مكثت أحدق بضع ثوانٍ إلى الشارع الفارغ الآن، وإلى السماء، والسحب

التي تحركها رياح خفيفة. تطلق الصنوبريات رائحتها، والأغصان القاتمة والمنتفخة كوسائد متزنة على الجذوع. لسبب غير مفهوم لم أكن محبطة كما توقعت. ربما سيعجبني أن أذهب وأجمع جوز الصنوبر في دفء بداية الصيف، سأكسر القشرة بالحجارة وأوسخ يدَي بطينها اللزج. تناول حفنة من الصنوبر يتطلب مجهودًا خرافيًا، ولكن يستحق دائمًا التعب.

أغلقت النافذة مرة أخرى.

الآن يبدو الهواء المالح وضوء الصباح منصهرَين في عجينة واحدة تلف الملفات القليلة المتبقية. أخذت أحدها بين يدَي وأدركت أنه يكرر فكرة واحدة موزعة على خمسين واجهة: «لطالما انتابني الخوف الشديد من أن أخدع نفسي، وأن أجد بعد ذلك أن الديانة المسيحية حقيقية، ولا أن أخدع نفسي بأن أصدق أنها حقيقية».

فوجئت بأنني أؤدي الحركة نفسها التي يؤديها البروفيسور وهو يدير بسرعة تحت الإبهام الصفحات كلها، ولاحظت أن جميعها بيضاء. ذلك الملف، قلت لنفسي، يشبه في العمق زجاجة نبيذ جيدة. البقية من الكريستال لبحر من التأملات المجزأة والموضوعة هناك، ولكنها شربت بالفعل.

اجتهدت في محاولة فهم معنى تلك الخاطرة، ووصلت إلى استنتاج أنها خاطرة رائعة لإغلاق الدائرة.

عادوا معًا جميعًا، البروفيسور وأورورا والسجين. كانوا سعداء.

أعلن السجين بمهابة:

ـ لدينا خبر سيئ وآخر جيد. وسنبدأ بذلك السيئ.

واستمر متحدثًا معي.

تزحلقت نظارته الثقيلة على أنفه الذي بدا وكأنه زعنفة سمكة قرش. من قريب تصدر عنه رائحة نفتالين التي تميز سترته القديمة. لا بد أنه في زمنه كان يرهب الطلبة غير المستعدين.

ـ الخبر السيئ أن زوجتي اكتشفت كل شيء.

علق البروفيسور:

- أوباا...

وأطلقت أورورا صرخة قصيرة، وهي تدور بخفة، وكأنها طفلة نشيطة.

- الخبر الجيد أنها وافقت على الأمر، قائلة إنها تجد في منحك شقتي تصرفًا مفيدًا اجتماعيًّا، على الرغم من أنها لا تفهمه، نظرًا إلى المصدر.

نغَّمَت أورورا منفعلة بعد أن عثرت على مركز التوازن:

- لا بد أن نحتفل!

- ولكن اسمع هذا الأمر المدهش...

قال السجين موجهًا زعنفة أنفه نحو البروفيسور:

- أكدت أن الفكرة إذا كانت فكرتك كان يمكن أيضًا أن تقدم اعتذاراتها، ولكن...

- لا أتطلع إلى الكثير في كل الأحوال وأفضل أن أتلقاه بعد الموت. الخلاصة كيف يُفهم كل هذا؟

- بالتصديق على الوضع الحالي. يمكن لماريا فيتوريا أن تمكث في هدوء لمدة طويلة، لنقُل أيضًا لبضعة أعوام.

كانت عطية أخرى، إشارة أخرى تُضاف إلى علامات إغلاق الدائرة.

نظرت نحو تلال مونتيرو: تصارع سحابة قاتمة الضوء الذي يتصاعد من الغرب، تحلق طيور النورس على ارتفاع منخفض وتكاد تلمس العواكس، فاتحة مناقيرها وكأنها ترغب في التهام الهواء. كنت في أمان مهما حدث وشكرت السجين مرات لا تُحصى.

جهزت المائدة، ووضعت الفاصوليا المسلوقة في وسط الصحن ليعثر عليها البروفيسور بسهولة، ولكنه لم يُنهِ الكمية القليلة التي قدمتها له.

قال:

- أشعر ببعض التعب، ولكن تلك الأشياء شهية. سأحاول مرة أخرى هذا المساء، فحضرتك تخفيها لي بفن ولن يُهدَر أي شيء.

تنفس بصعوبة.

أخذ الهاتف يرن بغضب، وكان الوقت مبكرًا جدًّا على الساعة المعتادة للأصدقاء.

يجلس البروفيسور غائصًا في مقعده والباب مغلق والمذياع الصغير على درجة صوت عالية. كنت أريد أن أتصرف بمفردي من دون أن أزعجه.

أجبت، قال لي صوت رجل إنه اتصل بالفعل عدة مرات منذ الفجر. ولكن كان الصوت هادئًا.

ـ لقد عثرنا على أجندة في الحقيبة، ومن بين الأرقام تحت كلمة «طوارئ» كان هذا الرجل. حضرتك تعرفين الآنسة بودجي؟

ـ انتظر.

يبدو لي أنني سمعت هذا اللقب، ولكن لم يخطر على ذهني كيف ومتى في هذه اللحظة.

ذهبت لأسأل البروفيسور إذا كان يعرف الآنسة بودجي.

ـ وتعرفينها حضرتك أيضًا يا ماريا فيتوريا، إنها أخت زوجتي.

ـ السيدة فالِّي؟

بالتأكيد، كان لقب زوجته، كنت قد قرأته في ذلك المقال... قلت بإصرار:

ـ يطلبون التحدث مع شخص يعرفها.

ـ إذن، يمكنهم أيضًا التحدث مع حضرتك.

اختتم البروفيسور بمنطق، ولم ينهض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عدت إلى الهاتف.

ـ أنا طبيب من مستشفى بيزا.

استمر الصوت، الذي أصبح متظاهرًا بالود (أكثر من اللازم).

ـ السيدة في غيبوبة بسبب نزيف في المخ في أعقاب حادث منزلي.

وحسب الإجراءات المعتادة أردت أن أخبر عائلتها، نظرًا إلى أنها

وصلت بسيارة الإسعاف في صحبة جار لها في البناية. كانت معها حقيبة وبداخلها الأجندة.

تسمرت كالصخرة.

لم يبدُ ممكنًا أن فالِّي التي أتت تقفز في المنزل منذ بضعة أيام، أصبحت في غيبوبة. شعرت بالأرض تغيب من تحت قدمَي، وابتلعت ريقي من دون أن أتمكن من النطق بكلمة. انتظر الصوت، الذي توقع رد الفعل، في صمت.

سألته أين توجد وعن حالتها، وإلى أي شيء تحتاج، ولكن الطبيب التزم الغموض قائلًا إنه في حاجة إلى التحدث مع القريب الأقرب لها. جريت إلى البروفيسور وجذبته بثقله من فوق الأريكة، من دون أن أهتم باعتراضاته. وضعت في يده سماعة الهاتف، وأنا أنبهه أنها مشكلة ضخمة. مكثت بجواره مستعدة لأن أسنده حتى وإن كانت قدماي ترتعشان. واحتياطيًّا أجلسته.

أملاه البروفيسور بياناته الشخصية، ثم صمت طويلًا، متنفسًا بعمق بضع مرات. عندئذٍ قال إنه يتحمل كل المسؤولية عن المريضة. وكرر مرتين:

ـ بالتأكيد حضرتك تعرف أكثر مني، وأنا أفهم وسأتحمل مسؤولية هذا الأمر.

كان وجهه رماديًّا، وشفتاه ممتعضتين وكأنه يضع قشرة ليمون في فمه. بحث ببطء عن مكان وضع السماعة من جديد، ثم ذهب إلى المكتب من دون أن يتفوه بكلمة.

ذلك الصباح كان الضوء شفافًا والريح تصفر في تجاويف المصاريع الملفوفة، ربما بدأت الرياح الجنوبية الغربية في تضخيم المياه بالفعل. دخل إلى المكتب ومد يديه نحو مقبض النافذة ليتأكد أنها مغلقة جيدًا، ثم أسند رأسه إلى الزجاج، بتعب شديد.

لا بد أن أفعل شيئًا معتادًا، حياديًّا، بسيطًا، إذا أردت مساعدته:

ـ هل ترغب في قهوة؟

ـ أجل، ربما هذا أفضل.

دخل إلى المطبخ مترددًا وجلس على «الأفنتينو» وكأنه لا بد أن يمكث مدة: وضع يديه على ركبتيه المعظمتين، وعيناه متجهتان نحو الجدار المقابل، والمُضاء بانعكاس الضوء. ربما تذكر أن الشمس في تلك الساعة تغزو الغرفة.

قال:

ـ لا بد أن نتصل بإليزا، ولكن في هذه اللحظة تهرب مني الأرقام الأخيرة من الرقم، مع كل ذكرياتي الشاحبة. بهذا الصدد، هل شحب لون البساط المزخرف للصالون؟ ابتاعته زوجتي.

ـ أعتقد ذلك، مع كل الضوء الذي يتعرض له خلال النهار.

ـ بالفعل.

أخذ يحتسي القهوة بلا رغبة.

ـ الحياة مثل بساط شحب لونه بسبب أشعة الشمس القاسية.

وضع الفنجان بحرص نصف ممتلئ على طرف المنضدة، في توازن.

ـ يبدو لي أن مذاقها مختلف.

اتصلت برقم هاتف منزل إليزا التي لم ترد. قال البروفيسور:

ـ ستكون في العمل بالتأكيد.

نهض، وبعدها بقليل عاد ومعه نسخته من إبكتيتوس.

ـ الحادية عشرة من فضلك... أريدها.

ـ «لا تقولن لشيء: «إني فقدته»، بل قل: «إني رددته». هل مات ولدك؟ «لقد استُرِد». هل ماتت امرأتك؟ «لقد استُردت». وممتلكاتك هل نُزعت منك؟».

ـ العبارتان الأخيرتان، من فضلك.

ـ «فهل يهمك بوساطة من استرد منك الواهب ما أعطى؟ فما دام قد أعطاكها فتعدها شيئًا يخص غيرك، تمامًا مثلما يتعامل عابرو السبيل مع النُّزل».

ـ أعطيني هذا، شكرًا.

حاولت أن أواسي نفسي أنا أيضًا بتلك الكلمات، ولكنني لم أستطع. شعرت بالصدمة ولا بد أن أتصرف، وهكذا أخذت صابون مارسيليا وانكببت على البقع المنتشرة على القمصان. أصبحت كبيرة جدًّا عليه، ينحف كل يوم أكثر ويعوم في ملابسه كسمكة حمراء في إناء زجاجي.

أتساءل إذا كنت يجب أن أغسل الأرضية أم أن أتصل بإليزا، إذا كان يجب أن أبحث عن أورورا أم أن أصلح ذلك الهاتف الذكي الصامت مستغلة المحال المفتوحة؟

اخترت مكالمة أورورا، أجهشت مضطربة، وقالت إنها تريد أن تساعد بأي شكل. بدا رد فعلها هو الوحيد الطبيعي، أنا والبروفيسور كنا عاجزين.

رحلنا في العصر، بين دفعات الرياح بسيارة أورورا الخمسمائة التي اهتزت على طريق الأوريليا وكأنها فرع صغير.

ـ هذا هو الطريق القديم، أليس كذلك؟

يمسك البروفيسور بمقبض الباب وكأنه يخشى الطيران، رفض الذهاب من أي طريق بديل، وأصر على أنه يوجد ذلك الذي لم يتغير منذ عام ١٩٧٠. كالمعتاد يحاول أن يضاهي ذكرياته مع الحقيقة. ربما فعل ذلك مئات المرات مع فالِّي التي تبرطم أو تنتقده، أو تؤكد له بعض الذكريات الماضية. في كل الحالات، كان يحتاج إلى ذلك الطريق.

ـ ربما يمكننا عندما ننتهي أن نطل على ميدان المعجزات. على الرغم من توقعات أخت زوجتي وتخطيطها، في النهاية اضطرت إلى أن تثق بشخص كفيف.

وصمت من جديد.

ركنت السيارة بجوار الجدار. في المستشفى تعبنا في العثور على الوجهة، شردنا طويلًا، «موجَّهين» من هذا القسم إلى آخر. حرارة غير آدمية، وكأنهم أرادوا وضع المرضى ذوي الحالات الحرجة في حضَّانات هائلة مثل الأطفال

الخدَّج. العديد منهم كانوا يرتدون أيضًا قمصانًا تشبه ملابس حديثي الولادة. وطلبوا منا أن نرتدي السترات الفوقية لنقابل فالِّي.

كانت هناك، ممددة وتبدو كما هي دائمًا، فيما عدا جهاز يرن بجوارها، تبدو لا مبالية بأي شيء. نظرها مسدد إلى السقف وبلا كلمات نقدية لأحد. علق:

ـ إذا فهمت أننا هنا فستزجرنا، وستطلب منا أن نعود قبل الظلام. فهي لا تقود في الظلام. في أي اتجاه توجد؟

نقلت سبابته نحو الفراش، وكان النيون يضيء المرضى الأربعة في الغرفة، جميعهم مربوطون في جهاز غريب يصدر الصوت نفسه.

ـ يوجد ثقب صغير في رأسها يا بروفيسور.

ـ أجل، منحت أنا الإذن لجراح الأعصاب لبزل الدم، ليفرغ النزيف.

ثم بعد ثانية:

ـ قررت أن هذا سيتناسب مع مفهوم الكرم. ذلك القائم على التخلص من ذلك الذي لا نحتاج إلى الاحتفاظ به.

من الثقب تخرج أنبوبة رفيعة يجري فيها الدم ببطء. سألت نفسي كم يمكن للمرء أن يعيش في هذه الظروف.

قال البروفيسور، بصوت منخفض، وكأنه سمع أفكاري:

ـ من يدري؟!

مكثنا هناك، حتى وصل جراح الأعصاب: شعره رمادي وعيناه صغيرتان خلف عدسة النظارة، وجبهته عريضة، وابتسامة من لديه خبرة بالحياة والموت. فهم على الفور، أمسك بيد البروفيسور وشكره لأنه سهَّل عليه الاختيار. ثم أجلسه في مكتب صغير يواجه الممر وأغلق الباب قليلًا. مكثت أنا لأنظر إلى الممرضات اللاتي يتحركن بسرعة حول المرضى، تظهر عليهن جميعًا اللامبالاة، وكأنهن يتعاملن في تجربة محاكاة. ربما يفعلن ذلك وسيلةً لحماية أنفسهن.

غابت الشمس خلف القلعة عندما خرجنا. كان لنهر الأرنو الألوان نفسها للسماء المجزَّعة بالأحمر، بدت واجهات المباني كاللحم، تقريبًا. فكرت في أفق ليفورنو لا بد أنه مشتعل، بهيئة جورجونا مقابل القبلات الأخيرة للشمس. ربما سأكون قادرة أيضًا على وصف ذلك المنظر، ولكن البروفيسور لم يطلب مني، يريد فقط أن يتمشى نحو الميدان، في صمت، متنفسًا في عمق.

ماتت السيدة فالِّي بعدها ببضعة أيام، وحيدة، وبلا مقدمات كما كانت تفعل عندما تدخل المنزل وهي تقفز على أطراف أصابعها، وبسرعة، كما كانت تأتي إلى ليفورنو، عندما تختار الساعات غير المزدحمة، لتصل مبكرًا.

وصلت إليزا «بعد انقضاء الأمر»، متقطعة الأنفاس، شاردة، وغاضبة من خالتها، كما لا بد أن الخالة كانت قد غضبت من أختها، حيث «ماتت بين يوم وليلة».

لم تختارا لحظة جيدة لتموتا، لا خالتها ولا أمها. رأيتها تبكي في ركن من أركان الصالة بينما تتظاهر بأنها تفتش إذا ما زالت اليمامات موجودة. تألمت من أجلها.

قطعت العديد من الكيلومترات بذلك الثقل في قلبها، الذي يُضاف إلى، من يدري، كم من الأثقال الخفية الأخرى.

ـ لقد عرفت أنها صدمت في زجاجة، واحدة من التي تبتاعها للاستنشاق.

استعادت نفسها، لتخفي الألم، أكثر من أي شيء. في نهاية الأمر كانت الخالة الوحيدة، بل الإنسانة الوحيدة التي رأتها تكبر.

ـ سقطت ضحية نزعة الكمال الصحية، كما توقعت. شرحوا لي أنها كانت تأخذ دواء يتسبب في النزيف.

علق البروفيسور بينه وبين نفسه.

ـ كل الآدميين ميتون، كما قال أرسطو، ولا بد أن فالِّي تنضم إلى هذا النوع.

هاجمته إليزا، وعيناها حمراوان وعدوانيتان:

ـ ولكن ما دخل أرسطو؟ جميعنا فانون، ولكنك لا بد أن تتناول أدويتك في كل الأحوال. من فضلك.

ثم أخذت تفتش نفسها، لم تعثر على مناديل ورقية في جيبها، بعثرتها على الأرض كما يفعل أبوها. قالت إنها ستتعجل الأمور، وفي اليوم التالي سيذهبون للجناز المنظم في العصر. وجهها يقول شيئًا مختلفًا تمامًا، وبالتحديد «لا أشعر بأنني أريد أن أهتم بكل شيء بمفردي، هل يوجد أحد يمكنه أن يصحبني إلى بيزا؟».

الغريب أن البروفيسور لم يعرض مساعدته، ولكن قال لها إنه يوجد مكان في المقابر بالفعل، وهكذا في وقت وجيز اختفت إليزا من جديد تاركة إيانا لتتجول في المنزل بلا وجهة محددة.

همهم:

ـ لا بد أن أتأكد جيدًا، لا أعرف ما البيروقراطية الموجودة بالنسبة إلى الأموات، ولكن نظرًا إلى أنها توجد للأحياء...

لم يُضِف أي شيء، شعرت بشيء من البرودة والرطوبة، شيء يشبه الذهاب للبحر في الصباح الباكر أيام الضباب. خرج البروفيسور إلى الشرفة بمعطف خفيف وبدأ يتمشى ذهابًا وإيابًا في تأمل عميق، ومن دون أن يطلب أي شيء.

عندئذٍ أدركت أنه لم يعد يطلب شيئًا منذ مدة، ولا حتى الساعة الناطقة؛ كتابًا، قهوة، المذياع الصغير. كأنه يعيش حياة موازية، كلها داخلية. المرة الأخيرة التي رأيته فيها بالمذياع الصغير ملتصقًا بأذنه اقتصر القول إن الصحفيين «يتزحلقون على الكلمات المهمة ويتعثرون في الظروف، لأن الشيء الوحيد المهم، حاليًا، الدعاية». منذ ذلك أطفأه وفتحه فقط بحثًا عن بعض «الموسيقى الجيدة، ربما موتسارت».

كان مجبرًا على الدخول مرة أخرى، عندما وصل فجأة وفد أصدقائه كاملًا، كما في الأوقات الحلوة. حتى كوستانتينو، على الرغم من ألم ظهره، ظهر على الباب مرتديًا قبعته من اللباد، وقدم للبروفيسور انحناءة جامدة من الاحترام التي استطاع تقديرها فقط أورورا والسجين وأنا.

كانت أورورا تبكي.

نظرت إلى البروفيسور، كان شاحبًا بعض الشيء، أو ربما كان الضوء شفافًا بكل رياح الخماسين المتزايدة.

قال السجين:

ـ ربما يمكن أن نشرب بعض الماء.

سأل البروفيسور فيما ذهبتُ لأحضر شيئًا ليشربوه:

ـ متى يحين وقت عيد القيامة؟

ـ لا بد أن يكون متأخرًا هذا العام.

نفخت أورورا أنفها بصوت منخفض.

انتقلوا إلى الصالون، متماسكين ومترددين بعض الشيء، وكأنهم ضيف لم يقدَّم للآخرين، وُجد في الصحبة بطريقة ما، ولكنهم لا يعرفونه جيدًا.

جلس كوستانتينو متجمدًا، كان يبدو وأنه يرتدي درعًا من العصور الوسطى. اعتزلت أورورا في مقعد جانبي، وغاص السجين في معطفه الذي لم يكن يرغب في خلعه. ثم سأل:

ـ ولكن يا لوتشانو، وأنت الذي لديه دائمًا بعض الخواطر الحاضرة...

ـ لا أعرف إذا ما زالت لديَّ «رسالة إلى ميناقيوس».

ـ إبيقور؟

ـ ماريا فيتوريا، من فضلك، في درج الكومودينو، مع كتيب إبكتيتوس.

عثرت على بضع صفحات مُشبكة معًا، وأحضرتها له ليتأكد إذا كانت هي الصحيحة.

ـ أجل. العبارات المُخطط تحتها.

- «إن أبشع أنواع الشرور، الموت، لا يعنينا في شيء، فحيث نوجد لا وجود للموت وحيث يوجد الموت، إذن، لا وجود لنا. وهكذا لا يهمنا في شيء، سواء أكنا أحياءً أم أمواتًا، لأنه لا يوجد في تلك الحالات، وفي الحالات الأخرى لا أوجد أنا».

كانت أورورا تبكي. وضعت الأوراق على صوان الصالون.

قال البروفيسور:

- هذه العبارة ستعجبكم، أما أنا فتعجبني عبارة لباسكال.

سأله السجين:

- أيها؟

- «بيننا وبين الجحيم أو السماء لا يوجد وسيط إلا الحياة التي هي أكثر الأشياء هشاشة في العالم».

- هل يقول هذا بالتحديد؟

- تمامًا. كل الفلاسفة يتحدثون بإيجاز عندما يوجهون حديثهم إلى الأصدقاء.

ذهب السجين إلى المكتب، أصبحت الأرفف الآن كلها تقريبًا فارغة. تذكر شيئًا ما، وأخذ ملفًّا مشبوكًا يحتوي فقط على تلك العبارة، مكررة أكثر من مرة. قبلها ببضعة أسابيع لاحظت تلك الظاهرة الغريبة مع عبارة أخرى.

- هل تعرف أن مكتبتك تدل تمامًا على ما تفكر فيه؟

لم يبدُ أنه دُهش من ذلك كثيرًا.

- في الواقع، أفكر أقل باستمرار.

نهض بإنهاك، وأمسكوا جميعهم بحنانٍ يده التي مدها بضعف في اتجاه عام.

خرجوا بالتحديد فيما بدأ أرتورو الحك خلف باب نافذة غرفة المعيشة. اندفع داخل المنزل بخفة وجرأة.

الفصل الثالث والعشرون

أسماك نادرة

كانت إليزا ما زالت موجودة عندما تعب البروفيسور في المرة الأولى. تعب بطريقة لا تفسير لها، وليس كما حدث في الأيام السابقة.

أتذكر الأمر، لأنه كان موقفًا غير معتاد: بعد جناز السيدة فالِّي، قالت إليزا إنها تريد أن تستفيد من الإجازات التي راكمتها. في الهاتف مع زوجها كانت حاسمة، تحتاج إلى أن تُترك في سلام، ستتمكن الفتاتان من التصرف. ولكن سرعان ما شعرت بالذنب.

ـ بالتأكيد، أنا عندما ماتت أمي لم أكن أعرف كيف أعد لنفسي بيضة في الطاسة.

عقب البروفيسور:

ـ بشع.

ـ ما البشع؟

قال:

ـ البيض.

بمجرد أن وزع الفتات الذي في جيبه، تمدد على الفراش ولم يتمكن من التحدث على الأقل لمدة ساعتين. لم يكن مفهومًا ماذا به، واستدعت إليزا الطبيب. قال إن الأمر سيمر في المساء.

أخذنا نحن نفحصه، وكأنه سمكة نادرة في حوض السمك: كان ممددًا

وعيناه مغمضتان، يتنفس بصعوبة، وأحيانًا ينهج. ومن حين إلى آخر ينقل قدمًا أو ذراعًا لبضعة سنتيمترات.

أخذت إليزا تدور بين الغرف بحثًا عن إشارات، تنظر إلى الأدوية، وتسأله ماذا يريد أن يأخذ ليشعر بتحسن، ولكن أقصى ما يفعله هو أن يهز يده وكأنه يبعد ذبابة. تتجمد، ولكن لا تغضب منه، أو بالأحرى أنها تغضب فقط عندما تلمح شيئًا كابتسامة خفيفة بين شفتيه.

ـ هل تسخر مني؟

لا شيء، كان يهز يده.

ـ ماذا تفعل، تحيي؟

عندئذٍ يترك يده لتسقط على المرتبة وكأنها شيء بلا فائدة، ربما لكيلا يمنح مجالًا لمزيد من النقاشات.

ـ مارفي، هل تفهمين ما يحدث؟

أمام تلك الكلمات يحدث للبروفيسور شيء كالانتفاض ويشير نافيًا برأسه.

نجلس لننظر إلى ظواهر الإغماءات التخشبية تلك غير المفهومة، وعندما قلت إنني سأذهب لأعد له شيئًا خفيفًا جدًّا، أعلن:

ـ طمس الأسماء أمر غير مقبول. شيء يشبه السخرية.

ـ أجل، أعرف هذا يا بابا، فقط لننجز.

ـ بالضبط، لا فائدة من ذلك، فالزمن شيء نسبي جدًّا.

ـ أيتها السماء!

تمرر إليزا يدها على شعرها.

ـ إنه يتفلسف أيضًا وهو ينهج.

وغاص في إغماءة جديدة.

ذهبتُ على الفور لأضع المياه على النار، بشكل آلي. على كل حال، بمجرد أن تبدأ الغليان يوجد شيء ما يمكن وضعه بداخلها.

ومع الهواء الأكثر دفئًا عاودت أيضًا الجارة «الكي جي بي» الظهور بين السياج النباتي في كل الساعات، ورنت الجرس ومعها خطاب مُسجل في يدها:

ـ لقد قابلت ساعي البريد في الأسفل.

كانت تبدو راضية، ساعي البريد والخطاب المُسجل الذي لا بد من توقيعه. سقطت بسهولة، ومن ثَم لديها عذر لتدس أنفها. سألت عن أخبار البروفيسور، ولكنني لم أمنحها الكثير من المعلومات.

ـ لا بد أنه سئم، الرجل المسكين.

علقت، واختفت في المصعد بتلك العربة المعلقة. لم تعجبني تلك الكلمة «سئم»، ولكنها تشرح الكثير.

نزعت إليزا الخطاب المسجل من يدي وذهبت لتعلم أبيها. أيقظه الخبر، حتى ولو لمدة وجيزة:

ـ من أرسله؟

صمتت إليزا، يبدو أنها هي أيضًا لم تفهم، أو لم ترغب في قول الحقيقة، إلا أنها قالتها في النهاية:

ـ إنه التسجيل في ذلك المكان الذي ذكرته لك، اسمه فيلَّا أزميرالدا.

ـ فيلَّا أزميرالدا، لتلك الأماكن أسماء مهدئة دائمًا، ولكن المفهوم هو نفسه.

لمست جبهته، كان يعرق.

ـ أين يوجد هذا المكان؟

ـ في مدينة نوجولا.

فتح البروفيسور عينيه محدقًا بهما نحو السقف متسائلًا:

ـ نوجولا؟

ـ في إحدى المرات أخذتك إلى هناك لتتمشى، مكان لطيف، في وسط الأخضر.

ـ بالفعل، أخضر الكوسة...

ثم تداعى مرة أخرى في شيء كالخدر.

مكثت هي بالورقة في يدها، متشككة. فيما يبدو توجد أيضًا شروط لسقوط الحجز وهي، مما يبدو عليها، غير مقتنعة بهذا.

ابتعدتُ وشعرت بالغثيان لمجرد التفكير في البروفيسور خارج بيئته. في القريب العاجل، مسألة شهور، سيتخذ كل منا طريقًا مختلفًا، أعلم ذلك، ولكن بعد عام تقريبًا أصبحت شخصًا مختلفًا ولم أستطع قبول فكرة انفصالي عنه.

ـ ماريا فيتوريا.

أتت إليزا للبحث عني في المطبخ بينما أقشر البنجر لأضعه بدلًا من الكوسة. كنت أشعر، أنا أيضًا، بالرغبة في لون حيوي.

قالت ساخرة، مخفية قلقها:

ـ يستدعيكِ أبي في صومعته.

وذهبتُ والمقشرة ما زالت في يدي.

سألني:

ـ ولكن هل ستأتين لزيارتي في نوجولا؟

طمأنته، ولم أعرف ماذا يمكنني أن أفعل لأبدو مقنعة، ولأهزم ذلك الشعور بالتخلي، الذي ربما يشعر به. الذهاب إلى نوجولا بالسكوتر سيكون رحلة جميلة، سأذهب فحسب، إذا بالفعل وجب لهذا أن يحدث.

وصلت إليزا أيضًا بآلتها وبدأت في عزف موسيقى مريحة جدًّا، ربما لتستقطع وقتًا لنفسها.

ـ هذا باخ، أليس كذلك؟

ـ بابا، هل يضايقك؟

ـ بالعكس.

وهز يده وكأنه يقول: «استمري».

لا بد أنها طريقتها لتوصيل فكرة لم تكن باستطاعتها التعبير عنها بالكلمات. استمرت لمدة نصف ساعة، حتى استعاد البروفيسور نفسه، بلا تفسير. أو هكذا بدا لي.

كانت أمسية غريبة، لم يقل لي أحد أن أذهب مبكرًا، وكأن وجودي يُشكل عنصرًا لا غنى عنه لحفظ توازن مؤقت. لم تنجح حتى زيارة الطبيب، في وقت متأخر، في تغيير ذلك المناخ.

سأل الطبيبُ البروفيسور:

ـ بمَ تشعر؟

ثم فتح الحقيبة الصغيرة وبدأ يسمع رئتيه بالسماعة. رفض البروفيسور أن يتنفس بعمق، أو ربما لم تكن لديه القوة لذلك.

ـ إذن، ما المشكلة؟ الرئتان في حالة جيدة.

ـ لا أعرف.

بدأ يتحسس بطنه.

ـ هل تشعر بألم في معدتك؟

ـ أيضًا.

ـ وهل تشعر برأسك ثقيلًا؟

ـ أيضًا.

ـ هل أكلت شيئًا؟

ـ ربما.

ـ إذن، فهمت.

أنهى الطبيب باستسلام:

ـ حضرتك فيلسوف ولست مريضًا، سنطلب إعداد مشروب بابونج جميل، وإذا استمر شعورك بالتعب حتى صباح الغد، سنذهب إلى المستشفى.

لم يكن البروفيسور يرغب في أن يسمع الحديث عن المستشفى، وهكذا

فردت إليزا النوتة الموسيقية فوق الغطاء. كان والدها سكن، ويؤدي دورًا أفضل من حامل النوتة. أرادت أن تعزف وقتًا أطول، نظرًا إلى التأثير الحسن للموسيقى.

وصلتُ إلى طريق ماتزيني بسرعة. لم أرَ غروب الشمس منذ بضعة أيام وشعرت بأنني أفتقده. في الحقيقة لم يتعلق الأمر بأوقات الغروب، ولكن بما يتبقى منه، أي تلك البقع من الألوان المُحملة باللون الفوشيا قبل أن يبتلعها الليل. ومن النافذة الصغيرة لمطبخي كان يمكنني أن أراقب مسار الفصل نحو قلب الربيع، على الشرفات ظهرت نباتات كانت في الداخل في الشتاء، وبعض طيور السنونو بحثًا عن مخبأ لعشها، أو تقف بالفعل على هوائيات التلفاز.

ذلك المنزل، على الرغم من قِدمه وصغره، أصبح الآن يدل عليَّ، وفقد جزءًا كبيرًا من مظهره كجُحر مهمل. لم أكن على مستوى التماثل بين البروفيسور ومكتبه، ولكن شيئًا ما في ذلك المنزل الصغير يعرف كيف يحكيني: إنني كنت مجنونة بالنظام، ولا تفوتني أي تفصيلة (مزيتة من الفخار، على سبيل المثال)، وأنني أجمع عينات مستحضرات التجميل باهظة الثمن في جيوبي، والأهم أنني أقرأ أكثر. أو الأفضل أن نقول أقرأ فحسب، بدلًا من أن أغسل الياقات، وأكوي القمصان، وأعيد تثبيت الأزرار، إلى حد أنني لم أبتَع حتى لوحًا للكي، وكنت أتصرف بمنضدة المطبخ الصغير.

ارتديت ملابس المنزل، وجلست واضعة قدمَي على المنضدة وأنا أقضم تفاحة.

يتربع كتاب «خواطر» على الكومودينو مع الإنجيل لا بد وقد أهداه إليَّ دون باراكيني مع تلك الكلمة «تَشجَّعي»، التي لا تنفع كثيرًا إذا لم تكن مصحوبة بشيء ما يشرحه لي. ثم توجد الصدفة البيضاء والمجزعة التي تُذكرني بالمجرة. وأنجيلو الذي ما زال بيننا شيء معلق. أنزلت قدمَي من على المنضدة الصغيرة.

مر بالفعل خمسة عشر يومًا ولم أرسل إليه حتى الآن أي رسالة بالبريد الإلكتروني.

في درج الغرفة وضعت ورقة التخفيض التي كتبت خلفها العنوان الذي أخذته من مانيكالي.

من يدري كيف هو سهل لمن هم مثله كتابة رسالة بارعة وواضحة وذكية بالبريد الإلكتروني. ولكن لا بد أن أخبر أنجيلو بشيء معقد جدًّا يقول: «أفتقدك قليلًا، وإن لم يكن الظرف المناسب للاعتراف بهذا»، وأيضًا: «اسمع، هنا تتدهور صحة البروفيسور، وربما أكون في حاجة إليك». الخلاصة، كنت أريد أن أقول أشياء صعبة. ثم إنه مع كل تلك المسافة الجغرافية التي بيننا، ستصل الكلمات ضعيفة، ربما سيقرأها أنجيلو في لحظة خاطئة. ففي النهاية عندما نستيقظ هنا ينامون في أمريكا، وبالعكس.

وبينما أسترجع تلك الأشياء ارتديت ملابسي بسرعة وذهبت إلى مركز للهواتف، حيث عادة يستطيع موظفوه تشغيل أي جهاز يُستخدم في الاتصال. عثرت على مجنون يضع علامة «واي فاي» وشمًا على عنقه. بدا لي مناسبًا، وبالفعل في ظرف ساعة عثر على طريقة ليحْيي هاتف إليزا الذكي ويسلمه لي هاتفًا جديدًا.

الآن، وبالشيء السوبر تكنولوجي في يدي، لن تكون لديَّ أي حجة.

جلست على أريكة لأفحصه. كان بالفعل مكثفًا بأشياء هائلة، وكنت أعبر عمليًّا من قلم ريشة الإوزة إلى آلة الزمن. ابتلعت ريقي وبدأت أكتب، موجهة الرسالة إلى نفسي:

عزيزي أنجيلو،

نفذ الهاتف الذكي بلا دهشة، واستلمته وقرأته من جديد. تلك الكفاءة الباردة أشعرتني بالرهبة، ولكن عند هذا الحد كان لا بد لي من الاستكمال، يكفي تغيير المُرسل إليه.

وكان هذا هو نص الرسالة بعد تفكير طويل وحريص:

عزيزي أنجيلو، البروفيسور في حالة سيئة، سأحب أن أتحدث معك قريبًا. م.ف.

بدا كتلغراف، ولكنه يحتوي على كل شيء.

الفصل الرابع والعشرون
نقطة البداية

رحلت إليزا تاركة المنزل منظمًا بشكل لا يُصدق. علقت سلسلة من الأوراق في كل مكان وكأنها ملحوظات لشحذ الذاكرة، بدت كتلك الخاصة بالبحث عن الكنز. شرحت لي بالفعل شفهيًّا وجوب تغيير الأدوية، وأن البروفيسور يتحدث الآن قليلًا جدًّا، ولكنه «طبيعي»، وأنها ألقت كمية من الصحف، وأنه لم تعد هناك حاجة إلى الطهي، وأن المذياع الصغير أصبح يصلح أكثر كأداة مطمئنة وليس لبث البرامج. وكأنها قد خشيت ألا تكون شرحت جيدًا، أو ربما فكرت في أن تحشد كل الاهتمام الذي لم يكتشفه أحد فيها.

وختمت حديثها:

ـ يجب ألا يُترك بعد ذلك ليلًا. فمن أجل السير معصوبي العينين في متاهة معروفة يلزمنا مرشد، من حين إلى آخر، لأن المخرج خفي.

تصبح ابنة أبيها أكثر، يومًا بعد يوم.

وهكذا نظمت نفسي بحيث أمكث لأراقب حزمة ضوء الفنار التي تجري على الخزانة، وأن أسمع الأصوات الليلية: تلفاز السيدة فافيلَّا المفتوح دائمًا، بعض المواء الغاضب لأرتورو، المذياع فاقد التناغم، طيور النورس في الفجر، السنونو ومصراع الفران في الصباح الباكر، واعتدت كل شيء وكأنه جزء من حياتي منذ الأزل.

تمددت منذ الليلة الأولى وأنا أرتدي كامل ملابسي وكأنني متأكدة أنني

سأضطر إلى الخروج بين لحظة وأخرى، وحاولت أن أضع نفسي مكان إليزا. لم أقاوم أكثر من بضع دقائق، حيث غطاني العرق البارد وشعور بالقمع لم أستطع أن أحمي نفسي منه. لم تكن لديَّ الأدوات اللازمة.

هل كانت لديها؟

فقط بعد بضعة أيام أدركت أنني يمكنني أيضًا أن أرتدي البيجاما وأن أتنازل عن روح متطوعة الصليب الأحمر، في نهاية الأمر يكفي أن أكون حاضرة وأن أتصرف عند الحاجة.

أجاب أنجيلو على كلماتي الأربع بعبارة بسيطة ومُطمئنة:

خلال بضعة أيام سأتصل أنا، يكفي أن ترني لي.

أرن له، كانت كلمة.

قال لي البروفيسور بنفَس واحد في إحدى الأمسيات:

- ماريا فيتوريا، أنا ليست لديَّ أي نية لأن أذهب إلى نوجولا، إلى تلك الفيلَّا ذات الاسم الجذاب. حتى وإن كان عليَّ أن أستغل تعليم إبكتيتوس.

أخذني على غفلة، لأنني اعتدت لحظات الصمت اللانهائية ورحلاتي الذهنية.

وأصر:

- هل لديكِ خطة كي لا أذهب؟

- هل تحدثت في هذا مع أصدقائك؟

- بالتأكيد، ولكننا لم نعد قادرين على أن نجري نقاشات مثمرة، ربما لأنني لم أعد كفؤًا في التفسيرات، أو ربما لأنهم يرغبون في حمايتي من الحزن، من يدري؟!

بدا لي حوارًا طويلًا على نحو خاص، في الواقع بحث على الفور عن مقعد ليستعيد قواه.

يأتون لزيارته أكثر من مرة في اليوم، ونادرًا ما كانوا يخرجون، كان السجين

أكثر مثابرة وحنانًا من الآخرين، يحضر معه دائمًا كتابًا ليقرأه بصوت عالٍ، ويسمعه البروفيسور في صمت، غائصًا في الأريكة، من دون أي تعليق. أحيانًا يبدو أنه راح في النوم تقريبًا.

يسأله السجين:

ـ هل سمعت يا لوتشانو؟ ما رأيك؟

ـ لا أفكر، أحاول أن أبحث عن روابط. غالبًا ما لا يقفز على الفور أمام العين أقوى من ذلك المفهوم على الفور.

ربما يعرف صديقه حق المعرفة إلى ما يشير، ولكنه لم يقله، تنهد فقط، ثم عاد ليقرأ من جديد.

ـ هل رواية الأمس أفضل؟

ـ ربما، ولكن غدًا أحضر معك «الحوارات».

ـ جميعها؟ إنها كتب كثيرة.

ـ لا، ليست «محاورات أفلاطون»، «الحوارات مع العناية الإلهية».

ـ ليست لديَّ بالفعل. هل هي للقديسة كاترينا دي سيينا؟

ـ أعتقد هذا، ولكنني سمعتهم يتحدثون عنها مرة في المذياع. أردت أن تكون عندي ربما لمدة.

أراد بالقوة أن يضع نقودًا في جيب السجين، ولكن هذا الأخير تركها في آنية الحساء الخالية في الصالون.

عندما عاد السجين إلى منزله، ونحو ساعة الغداء، سمعت التعليق المعتاد نفسه:

ـ يأتي ليزورني لأنه يعرف معنى السجن.

ـ لا تفوتك السخرية أبدًا يا بروفيسور.

ـ لكل منا سجونه، إلا حين يأتي ملاك لتحريرنا.

فكرت في ملاكي، في أنجيلو. كان ينتظر رنتي بصبر. ولكن مع الأيام والليالي المقلوبة لم أعثر قَطُّ على اللحظة المناسبة.

ـ حقًّا؟ أنا على سبيل المثال ليست لديَّ سجون.

ولكن هل هذا حقيقي؟

لجأ إلى الفراش، حتى وإن كانت ساعة وجبته الصغيرة، وهو يمسك المذياع الصغير بتلك الطريقة المعتادة، وكأنه فرخ صغير يداعبه. من الواضح أنه نام، منهكًا من تلك الأحداث القليلة للصباح.

همست:

ـ بروفيسور.

فتح عينيه على الفور.

ـ أين أنا؟

ـ في غرفتك.

ـ لاورا في الشغل؟

شعرت بأن الأرض اختفت من تحت قدمَي. حدث بالفعل.

ـ لا، يا بروفيسور.

هز رأسه:

ـ آه بالفعل. وحضرتك من تكونين إذن؟

ـ ماريا فيتوريا.

شعرت بوحدة عميقة، وكأنني نُسيت في مخزن للحقائب.

ـ إذن، أنا ما زلت هنا. لم أذهب إلى نوجولا، أليس كذلك؟

ـ بلى.

إذن، فهو يتذكر نوجولا، لا بد أنها كابوسه.

فكرت في أن أطرح عليه سؤالًا، لأساعده على التركيز، ولكن أيضًا لأنتزع منه معلومة.

ـ بروفيسور، كم ساعة الفارق بيننا وبين الولايات المتحدة؟

بحث بجهد في ذاكرته وأجابني بأنها على الأقل ست ساعات.

ـ هم متأخرون لأنهم في الغرب. والشمس تغرب في الغرب، إذن، هناك لا بد أنهم يعيشون هذا الصباح.

تنهد:

ـ أترين، الوقت نسبي.

أصبح يردد هذه العبارة كثيرًا.

وغاص في خدر. استبعد أيضًا صحن الحساء. سماع الحديث عن الولايات المتحدة لم يوقظه من أفكاره المؤلمة، على الأقل في الظاهر. ربما ينسى بعض الأشياء ليستوعب أخرى.

ابتعدت واتصلت بهاتف أنجيلو، ويداي ترتعشان.

هاتفني على الفور. مكالمة قصيرة لكن جميلة. قلت له ما أشعر به أمام المشروع الأصعب في حياتي: قيادة كفيف في متاهة مجهولة. تقريبًا كما قالت إليزا.

طمأنني:

ـ أفكر فيكِ، لنتحدث كل يوم، وهكذا يمكنني مساعدتكِ.

في البداية كانت حواراتنا مليئة بالخجل واللحظات الغريبة، ولكن سرعان ما استطعنا العثور على إيقاع ولغة تقربنا أكثر. يتصل بي في كل الأمسيات، بعد أن «أهيل الأغطية» على البروفيسور، كما يقول.

تلك العادة أشعرتني بالصحبة. لم أتخيل قَطُّ أنه في نبرة الصوت يمكن إخفاء أشياء كثيرة لم تُقَل. بدا لنا شيئًا طبيعيًّا التحدث عنه، تقريبًا قصة حياته تشير إلى مدار آمن. حكيت له عن ظاهرة الكتب المختفية التي في البداية بدت لي ظاهرة فوق طبيعية، ثم اكتشفت أنه يهديها.

قلت له:

ـ أتعرف؟ إن فضيلة الرجل تعتمد...

ـ على ما يفعله كعادة.

اختتمها هو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ خسارة، رؤية تلك المكتبة تفرغ تؤلمني بعض الشيء.

ـ أَصبت، إنه نزيف بطيء للكلمات، مشاعر ورغبات انطلقت بالتحديد من هنا، من ثروته الأساسية.

ذات مرة سألته ماذا يعرف عن الملفات التي حاليًّا تبرز أكثر مع تلك الكتب القليلة. وخاصة عن كتاب «خواطر» باسكال، والعبارات نفسها المتكررة بلا نهاية، وعشرات من الصفحات البيضاء.

ضحك:

ـ هي الفقرات التي يحبها أكثر. يحاول أن ينسخها ضوئيًّا بمفرده، في المدرسة. لم يرغب في انتظار الفراشين المشغولين دائمًا، لذلك تصرف. ولكنه تسبب في فوضى، ونسخ الصفحة نفسها عدة مرات.

ـ ولماذا ينسخها ضوئيًّا؟

ـ ليهديها، وليناقشها بعد ذلك مع تلاميذه أو مع أصدقائه.

ـ عندك حق، يناسبه هذا.

سألني أنجيلو فجأة:

ـ هل ينام في الليل؟

ـ قليلًا، ولكنه يستيقظ كثيرًا، يذهب إلى الحمام أو يتخيل أنه سيذهب. وهكذا يجب أن أنهض لأرشده إلى الباب المطلوب، ذلك الذي يصر، إلا أنه لم يعد حتى يُدرك أنه يصر صريرًا.

في الحقيقة، لم يعد يهتم باقتراحات الباب الخاصة بالطقس، أيضًا لأنه لا يخرج، وإذا خرج يذهب إلى التراس.

إذا أصرت أورورا وكوستانتينو على أن يخرجاه، كانا يبدوان بالأحرى كعسكريين يصحبان سجينًا ضعيفًا إلى السجن. أنظر إليهما مهتزَّين ومضطربين. يعودون تقريبًا في كل مرة في غضون نصف ساعة، وكأن فيلَّا فابريكوتي أصبحت هدفًا لا يمكن الوصول إليه.

في العصر، وفي نهاية جولاته، يظهر أيضًا الطبيب، يحاول أن يقول بعض

النكات، يقيس الضغط ويحس بطنه ويسأل أسئلة محددة، تبقى بلا إجابة. ولكن من ذلك الذي فهمته، لم تكن لدى البروفيسور إجابات محددة قَطُّ عن صحته.

ـ هل تشعر بأنك ضعيف؟ الضغط منخفض جدًّا.

ـ أيضًا.

ـ هل تؤلمك معدتك؟

ـ أيضًا.

ـ بالإضافة إلى ماذا يا بروفيسور؟

ـ بالإضافة إلى كل شيء آخر.

سألني في إحدى الأمسيات قبل أن يرحل:

ـ هل الأدوية كلها موجودة؟

صحبته إلى المطبخ ليفحص بنفسه جبل العلب، ودُهِش.

ـ ما قنينات القطرات هذه؟

ـ ليست لديَّ أدنى فكرة، أعتقدت أن حضرتك تعرف. كتبت إليزا فيما تفيد. وأطلعته على الوريقات:

للهضم

للنوم

عندما يفقد اتجاهه وينفصل عن الواقع

عندما يشعر بالحزن

عندما يشعر بالفرح

جحظت عيناه وأخذ بيده العلب، لم تكن عليها أي إرشادات من أي نوع، ولكنْ مكتوب عليها شيء ما بالألمانية.

عاد إلى البروفيسور الذي لا يزال على الفراش بالأغطية فوقه. يُسمَع تغريد العصافير بقوة حتى في الغرفة، ولكنه لم يهتم. رأيت طائر سنونو يبتعد بسرعة على بُعد نصف متر، أتى ليزوره.

ـ بروفيسور، هل انتقلت إلى العلاج «الهميوباثي» البديل ولم تقل لي أي شيء؟
ـ «هميو» ماذا؟
ـ العلاج التجانسي؟
ـ لا، لم أفعل شيئًا.
ـ أجل، ولكن أعتقد أن هناك قطرات «هميوباثية» هناك، وأنا من رأيي أنها لا تفيد في شيء.
ـ أُفضل على كل حال كل ما يعرف بأنه «هومو» يطيع بالتأكيد شيئًا نعرفه نحن فقط.
نظر إليه الطبيب متشككًا.
وحدد:
ـ الشوكران الذي شربه سقراط كان بالتأكيد «هميوباثي».
ـ «هميوباثي» بأي معنى؟
ابتسم من دون أن يفتح عينيه:
ـ لم يُفِد في شيء.
ـ بل قتله، إذا كنت أتذكر جيدًا.
ـ لا، بالتأكيد.
ـ أعرف أنني وحضرتك نرى الأمر بطريقة مختلفة.
ثم توجه إليَّ:
ـ ربما آخذ العبوات وأسأل زميلًا لي، ابتعد عن الطرق التقليدية، حضرتك ممكن أن تعطيها له فقط إذا طلب هو، أو إليزا.
خرج وهو يضيف:
ـ أنا أعرف أدويتي، ولكني مقتنع، على كل حال، أنه ليتحملها سيضيف ما يخصه. وحضرتك يمكنك أن تتخيلي كم الإضافات.
ثم سمعت الرد:

ـ عديدة.

مضى وهو يهز رأسه وقبل أن ينزل على السلالم أوصاني:

ـ اتصلي بي عندما تحتاجين إلى هذا.

عبارة اهتمام بطولي كانت فالِّي بالتأكيد ستقدرها كثيرًا.

في ذلك المساء نقلت إلى أنجيلو حكاية الأدوية.

ـ إذا كنتُ مكانكِ لطرحتُ أسئلة أكثر مما ينبغي لي، فهو لا يحتاج إلى شيء، يمكنك أن تري ذلك من المكتبة الفارغة.

ـ متى ستعود؟

ـ سريعًا، خلال عشرة أيام.

لم يتناول البروفيسور وجبة العشاء، أو الأصح أنه يحاول أن يقضم شيئًا ما، ويظل بعد ذلك متوازنًا على حافة الصحن، الذي يقل حجمه أكثر «للتغلب على الخوف من الأماكن الفارغة»، يقول ذلك مع بعض الومضات الساخرة التي تطمئنني قليلًا. ثم يذهب في رحلة إلى الصالون من دون أن يشغل التلفاز، يمر على المكتب ليتحسس بيأس الأرفف، ويصل أخيرًا إلى غرفته حيث يضع بمجهود البيجاما، ويتحمل مساحة الغرفة.

يتمتم عندما يصل إلى طرف الفراش:

ـ لا أعتقد أن هذه غرفتي.

وأنا، أتابعه كخياله، ألاحظ أنه يخطئ الاتجاهات، وأنه يترك علامات صغيرة مثل غطاء بلاستيك، أو عبوة مناديل ورقية، أو عملة نقدية على الطاولات والمقاعد ليتمكن مرة أخرى من التعرف على المكان. ربما تحدثت إليزا عن المتاهة لأنها رأت أباها يتحرك في المنزل بتلك الطريقة، تاركًا خلفه علامات إرشادية.

كان يقول:

ـ تمامًا، لقد مررت من هنا.

وكان لديَّ انطباع أنه يشير إلى شيء آخر.

سألته في إحدى الأمسيات التي بدا لي فيها أكثر قلقًا من المعتاد في جولاته:

ـ ولكن هل كان هذا منزلك دائمًا؟

كتب أنجيلو لتوِّه رسالة قائلًا إنه حطَّ في روما وكنت سعيدة لهذا، وأردت أن أنقل إليه بعضًا من تلك السعادة، ولكنني لم أستطع.

ـ أجل، هذا هو منزلي، على الأقل منذ خمسين عامًا.

ـ إذن، تعرفه جيدًا، أليس كذلك؟

ـ لم أعد أعرفه.

رفع نظره، وكأنه يبحث عن أشباح، مد يده ليلمس دعامة ما، يقيس عرض الباب. فهمت أنه يسترجع العديد من الذكريات تمثل مساحات المنزل فقط سطحها. ثم هز رأسه، مسح جبهته وقال لي إنه قد حانت اللحظة التي عليَّ فيها أن أستعيد ملكية حياتي.

كان مسهبًا للغاية في ذلك المساء.

ـ يبدو لي من غير المفيد أن تمكثي هنا، وخاصة ماذا يمكن أن يحدث لإنسان لا يحدث له شيء بالفعل منذ ملايين السنين؟

لم أعلم بمَ أجيبه.

أضاف ملتفتًا نحوي:

ـ أحب أن أترك ذكرى جيدة.

ـ لديَّ منك بالفعل المئات منها، من أجمل...

خشيت أن أشعر بالحزن يلفني.

ـ لا تفيد إذا لم تُنتج أعمالًا محسوسة.

هديته في عيد الميلاد تُترجَم لعمل محسوس، ولكنني لم أقل له لأنني لم أرغب في أن أهز توازن القدر. ثم الأمر يتطلب شيئًا يعتمد عليَّ بمفردي، نتيجة طبيعية لذلك اللقاء المفاجئ مع حياته.

ـ انظر، إذا فكرتَ فيَّ حضرتك، هناك شيء سأفعله بالتأكيد، سأعود إلى الدراسة.

لا أدري كيف خطر هذا ببالي، انفجرت الفكرة في رأسي كالفشار في الميكروويف، إلى حد أنني خشيت أن يكون عقلي مليئًا بكيزان الذرة.

على كل حال غيَّر هذا الانفجار مسار الأمسية.

ـ الدراسة؟

ـ أجل.

ـ فعلًا؟

ـ أجل، للدراسة!

شعرت بأنني بالفعل مقتنعة، لديَّ الدافع وفخور أكثر. سأجد الوقت بالتأكيد، توجد الأطعمة المجمدة بالإضافة إلى عدم الحاجة إلى كي الملابس.

ـ وعد؟

ـ وعد!

أراد أن أعطيه يدي لنوثق العهد، وشد عليها بقوة غير معتادة.

ـ إذن، لا بد أن نحتفل! أضيئي النور وابحثي على الفور على شيء جيد لنشربه!

ـ بروفيسور، من الأفضل ألا نفعل ذلك من أجل صحتك.

ـ ولكن من أجلكِ أجل. تلزمنا الروح لنتعلم، الروح!

أراد أن يرتدي حذاءه «ليمنح القرار فخامةً»، وارتدى سترة «المناسبات العامة»، ولبس النظارة القديمة التي ترقد بلا استخدام في درج الكومودينو، بل لبس أيضًا الساعة التي لا تعمل الموضوعة في المكتب بالقرب من حامل البطاقات، بحث عن ربطة عنق تعكس «اللحظات الرسمية» وبدأ يعطيني التعليمات.

ـ في خزانة الصالون توجد أكواب من الكريستال، بعضها للشمبانيا، أحضري اثنين من فضلك.

كان أمرًا مدهشًا، الخبر الذي منحته له أيقظ فيه حيوية لم يكن بالإمكان تخيلها منذ عشر دقائق.

ـ ابحثي في المكتب حيث لديَّ خزانة سرية، تلك الجانبية. في زمن ما كنت أضع فيها الكحول أو بعض الزجاجات لأستخدمها في المناسبات العظيمة، انظري جيدًا.

في الحقيقة أخفيتها كلها منذ وقت خوفًا من أن تدس فالِّي أنفها، ثم إن بعضها بدت رائحته كالخل، فأفرغتها كلها في الحوض.

ـ بروفيسور.

ـ أجل، أجل، أنا متأكد من ذلك، كانت موجودة في وقت ما، ولكن...

ثم توقف. ربما أدرك في تلك اللحظة أن ذاكرته تضع أمامه صورًا تصل من نجمة بعيدة، وجلس خلف المكتب كما لم يفعل من زمن. بإصبعه التي أخذت تلمس الحواف ليقيس الأبعاد، من يدري إذا كان يفكر من جديد في المنصة التي كان يصعد عليها عندما يُدرس. ربما في زمن ما كان يفعل تلك الحركة عندما يتأمل في أثناء الحصة. ثم ختم بصوت منخفض:

ـ أجل، معكِ حق. ربما أخطئ، ولكن يمكننا أن نحتفل بشيء آخر بعيدًا عن الأدوية، أليس كذلك؟

لم يفقد حماسه. كان سعيدًا، وعقد ثم فك عقدة ربطة العنق حتى تأكد أنها مُتقنة. لم يكن التناسق بين الألوان مقبولًا، ولكن لم يرَه أحد سواي في كل الأحوال، ثم إن حماسه كان معديًا بشكل كبير ليهتم أحد، الأمر يتعلق بإلقاء رائع، الجمال يعتمد على اللمس والكلمات وليس على الرؤية.

ـ لديَّ فكرة يا بروفيسور!

ـ رائع، أنا أثق بالدارسين، على كل حال لتعلمي أنني سأستجوبك فيما بعد.

ـ لا، لا، انتظر، لست مستعدة، ولكنني سأدهشك!

ذهبت لأبحث في المطبخ حيث كنت قد محوت آثار ذلك العشاء البائس

الذي لم ينتهِ الذي أعددت بعده الفاكهة. كان يوجد تفاح، بعض الفراولة، ثمرة كيوي وتوت بري، واستطعت أن أصنع شيئًا من سلطة الفواكه الصغيرة وأضفت إليها بعض سكر القصب، وجوزًا، ومكعب شوكولاتة. في النهاية، مأخوذة بالحماس، أنهيت العمل ببعض قطرات تلك الزجاجة التي كُتب عليها بخط إليزا «عندما يكون مسرورًا». عمل فني. لا يمكن تسميته حلوى، ولكنه لديه كل الاستعدادات لهذا. وخاصة كان له الشكل المناسب لينتهي في الكوب الكريستالي. قدمته له بحذر، حتى وإن لم يكن ممتلئًا لحافته. استخدمت قطع الفاكهة الزائدة ووضعتها في كأس مشابهة، لأرافقه في ذلك المشهد الرائع.

ـ ما هذا الشيء الرائع يا ترى؟

ـ كل ما عثرت عليه، لتتذوقه.

ـ ولكن هل الملعقة التي أعطيتني إياها ملعقة مطبخ؟

لم أعرف ماذا أقول.

ـ لماذا؟

ـ في الصالون أيضًا، وفي درج مخفي من الصوان، يوجد طقم سفرة من الفضة، إذا لم تأخذه إليزا، وضعته لاورا هناك.

كانت الملاعق مسودَّة بعض الشيء، أخذتها ونظفتها، ولكنه أراد أن يلمسها قبل أن نستخدمها.

ـ أجل، أعرفها.

وكان في السماء السابعة.

ـ لم أرَها منذ نحو ثلاثين عامًا.

جلسنا على الأريكة لنأكل سلطة الفواكه الاحتفالية.

أخذ البروفيسور يتناولها بصعوبة بالغة، ولكنه لم يتركها، يعيد خلط ما في الكأس طويلًا قبل أن يرفع أي شيء، ويبتسم.

ـ لذيذ، مذاقه كالانتصار، مذاق العلم. حضرتك لا يمكنك تخيل كيف

حمستني فكرة أنني استطعت، من يدري كيف تمكنت من أن أحث فيك الرغبة في استكمال الدراسة. إنه شيء جميل، العثور على نقطة الانطلاق.

سقطت قطعة تفاح على قميصه، والتقطتها أنا على الفور بمنديل ورقي من دون أن يُدرك.

بدأت ترعد في الخارج، بدا مفزوعًا.

ـ هل يقصفون قنابل؟

ـ بروفيسور، إنها عاصفة.

أخذ يصغي.

ـ عاصفة، ويظهر البرق أيضًا؟

ـ أجل، بعيد تجاه البحر.

ـ وهل ينير السماء المليئة بالسحب المنتفخة، الرمادية وكأنها الرصاص؟

ـ أجل.

ـ أتعرفين؟ ربما ماتت زوجتي بسببي.

كان أمرًا غير متوقع، تجمدتُ.

ـ لماذا تقول هذا؟

استمر هو في دفع الملعقة إلى عمق الكأس، ولكن بخجل، وكأنه يحاول أن يستعيد شيئًا سقط في حفرة.

ـ ذلك اليوم تناقشنا طويلًا، حول المستقبل غير الواضح لإليزا ولي. أرادت لاورا أن أدخل المستشفى لتجريب علاج جديد. ولكنني لم أوافق. أصررت بعناد، كنت أخشى الألم.

صمتَ لبضع ثوانٍ.

ـ وهل كان يمكن الشفاء من خلال ذلك العلاج؟

ـ لا.

أخذ يبحث عن بعض التوت في الكأس، بإصرار.

ـ كنا في السيارة، تقود هي بطبيعة الحال.

بدا لي أن الهواء يثقل، مثل تكاثف الهواء لأمطار في الخارج.

ـ صرخنا، قلنا أشياء يجب ألا تُقال. فجأة فتحتُ باب السيارة، حاولتْ هي أن تمنعني، واصطدمتْ بشاحنة مدرعة من المعسكر الأمريكي كامب داربي. تدحرجت أنا خارج السيارة في حفرة، ولكن هي... سمعتُ فقط أنينًا، ثم الصدمة.

صمتَ مرة أخرى، وكأنه يستعيد أنفاسه.

ـ لم تعرفي هذا، أليس كذلك؟

رفع رأسه وتوقف عن الصوت الذي يصنعه بملعقته وكأنه يريد التأكد من أنه يسمع إجابتي.

ـ عندما نغضب نقول جميعًا أشياء كثيرة، ولكنها ليست حقيقية.

ـ ولكنكِ لم تعرفيها. كانت لاورا شخصية هشة، تنفذ إليها الحياة.

حاول أن يشرب السكَّر القليل الموجود في القاع ودس أنفه في الكأس كما يفعل الأطفال. سقطت قطعة الفراولة على الأريكة.

ـ لم أعرف زوجتك، هذا حقيقي. ولكن حضرتك قاسٍ جدًّا على نفسك.

لم أعرف كيف أستكمل، أردت أن أقول له إن الجميع يحبونه، وإنه لا يستطيع أن يشعر بالذنب بسبب أشياء لم تعتمد عليه.

ـ وكانت توجد أيضًا كل تلك الأدوية التي تأخذها. لتتحملني.

تذكرت الحقيبة المليئة بالأدوية المهدئة منتهية الصلاحية، والمعلقة على شماعة الملابس.

نظرت إليه بشفقة، ولكن أيضًا بدهشة، اعتقدت أنني أعرفه جيدًا، ولكن فاتني شيء ما، وكان سيفوتني إلى الأبد. فكرت في أنه ربما تمنى بعند أن يفهم الكون ليتمكن من أن يستعيد في لا نهائيته قطرة من الراحة. إلا أنه حلق وحيدًا في ارتفاعات عالية، بحثًا عن كلمة «النهاية».

بدأ يتنفس بتعب، وكأنه يبذل مجهودًا في التفوُّه بكلمات أخرى.

ـ ماريا فيتوريا، أتعرفين أن هناك أشياء ما لن نعرفها أبدًا؟
ـ ولكن حضرتك تعتقد أنه لا غنى عن معرفتها؟
ابتسم بتعاطف.
ـ على سبيل المثال ألن تقولي لي ماذا يوجد بالفعل في هذه الكأس؟
مكثت متشككة فقط لبضع ثوانٍ.
ـ فاكهة فقط.
ـ كان هناك مذاق كالمرج، عشب قُطع للتوِّ مع أوراق من النعناع.
ـ وكان مذاقًا جيدًا؟
ـ جيدًا جدًّا، بل سمح لي لأن أصل إلى نهاية الكأس، إلا أنني متعب الآن وكأنني أنجزت مشروعًا كبيرًا.
ـ لقد أنجزته يا بروفيسور.
ـ بالفعل. لقد قربت حضرتك أيضًا من الكتب. كما ترين، لا تأتي كل الشرور لتُغرق، ولا حتى الأشرار.
مكثنا جالسَين فوق الأريكة نصف ساعة، كان متعبًا، ولكن مُبتسمًا، وكأنه يفكر في شيء مُفرح.
فهمت أنه بدأ ينفصل عن الواقع.
سألني:
ـ هل نامت الطفلة؟
ـ أي طفلة؟
أشار إلى الردهة.
ساعدته لينهض، بحذر.
ـ كل شيء هادئ، إذن نامت، وبالتفكير أن لاورا...
وضع يده على عينيه.
ـ معذرة يا ليليانا، ذهني يمزح معي مزحة ثقيلة. ولكن ربما، بعد ذلك، تقرئين شيئًا من «خواطر».

ليليانا!

ـ فكرت في أنكِ لن تعودي أبدًا.

رأيته يسير بجوار ذلك الإطار الذي أصبح الآن كله أبيض اللون. لم أعرف قَطُّ اسم أخته، ولوهلة تخيلت أنا أيضًا أنها معنا.

ـ ماذا ستقرئين لي؟

ـ لم أعد أرى «خواطر» هناك، ولكن هناك كتابًا يبدو جديدًا.

ـ هل يمكنكِ قراءة عنوانه في هذا الضوء القليل؟

ـ «الاعترافات» للقديس أغسطينوس.

ـ حسنًا، إذن أريد أن تقرئي لي تلك الفقرة الجميلة جدًّا، تلك التي تقول: «لقد أحببتك متأخرًا، أيها الجمال بالغ القدم ودائم التجدد».

ـ تقريبًا في أي جزء؟

ـ في الكتاب العاشر.

ـ «لقد أحببتك متأخرًا، أيها الجمال بالغ القدم ودائم التجدد، أحببتك متأخرًا. أجل، لأنك فيما كنت بداخلي كنت أنا خارج نفسي».

همس بها هو معي، كلمة كلمة، وسألت نفسي لماذا أراد أن أقرأها له إذا كان يحفظها بالفعل عن ظهر قلب. ولكن ربما يشبه الأمر عندما تعجبنا أغنية ما، ونعيدها لنسمعها آلاف المرات.

صحبته إلى غرفته وأراد أن يغير ملابسه بمفرده ويضع بيجامته، على الرغم من أنه يفعل ذلك بجهد شديد. من المؤكد لم تكن أخته تساعده، وهكذا مكثت جانبًا. وفي الوقت نفسه أخذت أتصفح الكتاب، وبمجرد أن تمدد أخذت أقرأه من البداية. وعندما بدا لي أنه نام، توقفت. إلا أنه قال بينما أبتعد:

ـ أشعر بصمت تام، انظري إلى الخارج، وصفي لي ما ترين.

كانت السحب قد تفرقت وظهرت أجزاء من السماء الزرقاء عبرها تتراءى النجوم. قلت له هذا مستخدمة الكلمات نفسها.

ـ أحسنتِ، أراها أنا أيضًا.

عدت إلى المطبخ، وأعدت نقاط إليزا التي أحضرتها من سويسرا مكانها. «ست على الأقل»، أضافت بإيجاز. فتحت العبوة من جديد، واستنشقت المحتوى عن قرب: رائحة كالعشب المقطوع والنعناع، مثل مرج في حديقة جميلة يمكن الاستلقاء عليه.

الفصل الخامس والعشرون

أحببتك متأخرًا

وصلت إليزا مع الشمس الحارقة لمنتصف النهار، كنت أضع أشيائي في حقيبة لأترك لها الغرفة. كانت عيناي منفوختين من البكاء ومشتتة الذهن من ليلة بلا نوم.

ذهبت مباشرة إلى كومودينو أبيها وأخذت الكتاب الذي تركته هناك في فوضى الليلة. نظرَت إليَّ وكأنني صديقتها الوحيدة على الأرض:

ـ هل رأيتِ ماذا يوجد في نهاية المتاهة؟

وأطلعتني على الكتاب ثم ضمتني.

ـ أراد أن أقرأ له بعض الأسطر قبل أن يخلد للنوم.

ـ «لقد أحببتك متأخرًا، أيها الجمال بالغ القدم ودائم التجدد، أحببتك متأخرًا. أجل، لأنك فيما كنت بداخلي كنت أنا خارج نفسي».

تحفظها عن ظهر قلب.

يمتلئ المنزل بالضوء والرياح ورائحة البحر الذي استيقظ للتوِّ من الصيف، رائحة «البيتوسبوروم»، ورائحة الزهور الدافئة والمعطرة. لم نكن أنا وهي فقط، حيث شعرت بكمية غير عادية من المخلوقات المتنوعة تدور في الغرف: نمل، خرج من ثقبه في المطبخ، طيور السنونو التي أخذت تدور حول سقف المكتب، واليمام القلق حول الزهور في انتظار الفتات، القراقف، وبعض من حجر الصوان على جدار الممر، وأرتورو على التراس يترجانا.

رفعت المصراع الملفوف ورأيت الكف السوداء تبرز.

ـ إليزا، ما رأيكِ، أرفع أكثر؟

تحدثت بفرح وكأن البروفيسور غائص على الأريكة ومعه مذياعه الصغير.

ـ بالتأكيد، القطط فأل جيد دائمًا.

ـ هل تحرصين بشدة على الأريكة؟

ـ هل يبدو لكِ هذا؟

بعد لحظة رن الجرس وظهرت أورورا وكوستانتينو والسجين محمَّلِين بصحف قديمة، فاقدي الاتجاه وكأنهم بلا بوصلة.

حاولت أورورا أن تشكل الكلمات بلا فائدة:

ـ كان لوتشانو معنا، وإلا لما تمكنا من عبور فيلَّا فابريكوتي.

ثم انكسر صوتها.

ـ الصديق، الصديق العزيز الذي لأجله رتبنا جميعًا يومنا، هكذا كما تتكون الصدفة من عمل الحيوان الرخوي، إلا أنها تعمل بإخلاص الآن أيضًا.

انفجر كوستانتينو بالبكاء. انتظرت إليزا في صمت. بمجرد أن فتحت الباب اندفع أرتورو نحو مصطبة السلم، ومر كالبرق بين قدمَي السجين المتجمد والمنسحق.

في تلك اللحظة كانت الجارة «الكي جي بي» تعود من السطح وسلتها فارغة.

ـ في يوم جميل كهذا تجف الملابس المبتلة على الفور.

الفصل السادس والعشرون

رؤية ما لا يُرى

ـ من أجل أخينا...

ونسي دون باراكيني الاسم. هكذا قامت امرأة عجوز وأخذت له ورقة حتى المنبر. كانت قصيرة القامة، ولكن خطوتها طويلة وحاسمة واجتازت نصف الهيكل مع كلمة «آمين». لم أرَها قَطُّ.

همستُ لأنجيلو:

ـ مَن تكون، هل تعرفها؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ زوجة السجين.

ـ وأنت كيف تعرفها؟

ـ درَّستني اليونانية في المرحلة الثانوية، أعرفها جيدًا.

وأمسك يدي، للمرة الأولى، وأدركت من العذوبة التي تصاعدت بطول ذراعي إلى أي اتجاه سيسير المستقبل.

لم أتخيلها بهذا الشكل، زوجة السجين المخيفة، بل تقف هناك، باستقامة واحترام أمام نعش العدو الذي وضعتْ فوقه وردة بيضاء.

ثم كان هو هناك، السجين، على مسافة مناسبة من زوجته، مرتديًا معطفه الرمادي الذي رأيته منذ نهاية شهر مارس، والصحيفة مندسة في جيبه، وكأنه أتى ليقرأ مقالًا ما للبروفيسور.

يقف أيضًا كوستانتينو بعكاز وسترة زرقاء، يتأرجح، ربما بتأثير عِرق النَّسا.

ثم أورورا تحت قبعة سوداء تخفي دموعها، السيدة فافيلّا، وبالتأكيد تلك «الكي جي بي»، ومانيكالي والطبيب، بل حتى بائع الصحف في شارع فاتوري بيدَيْه المتسختين بالحبر. وهو بالتحديد من وضع صحيفة اليوم فوق إكليل الزهور.

تفوح روائح العرق والبخور والمياه المالحة وتطغى أيضًا على رائحة الزهور، كما هي عادة كنائس البحر.

لم تكن تلك الجنازة المقامة في عصر أحد أيام بداية الصيف حزينة ولا حتى منمقة. استدعى دون باراكيني النيجيري الوحيد الذي بدا قادرًا على عزف الأرغن. لم ترغب إليزا في عِظة. بعد التضرعات للقديسين المختلفين، قرأ بعض خواطر باسكال. وجد دون باراكيني صعوبة في ذلك الأمر، لكنه اضطر إلى الخضوع لأن الهدف كان اصطحاب نفس استطاعت في نهاية الأمر أن ترى ما لا يُرى.

في أثناء ذلك، في الخارج، وبعد طقس البركة، ارتفعت الرياح الغربية الجنوبية فجأة، ودفعت بالسفن برفق نحو الميناء، كما في نهاية الأمر تدفع الجميع بعض الشيء.

ـ هل حان الوقت؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألني أنجيلو على سلالم الكنيسة.

ـ لنذهب لنتمشى قليلًا؟

وأخذني تحت ذراعه.

شعرت بغصة في حلقي، تلك التي تجيء للأطفال عندما يشعرون بألم، ولكن يلهيهم شيء جميل، فلا يعرفون إذا كانوا يرغبون في الضحك أم في البكاء.

ـ لنمر من فيلّا فابريكوتي.

استطعت أن أقول هذا بطريقة ما.

اتجهنا إلى هناك، وكنت أعرف بالفعل ماذا سيحدث بعد ذلك.

قبل كل شيء، سأستعيد أتشيتو.

الشكر إلى المحامي باولو فيرارا، وإلى إيميليا بوسدراجي وفيدريكا ماتزانتي.

مصادر الاستشهادات

الفصل الرابع

أرتور شوبنهاور. العالم إرادة وتمثلًا، ترجمة سعيد توفيق. المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٦.

Arthur Schopenhauer, *L'artedi trattare le donne*, a cura di Franco Volpi, Adelphi, Milano 2000, p. 44.

العبارة التي يقولها البروفيسور: «لا يوجد رجل عظيم بالنسبة إلى وصيفه»، والتي تتكرر عدة مرات في النص، هي ترجمة حكمة مدام كورنويل:

«Il n'y avoit point de héros pour les valets de chambre».

كما اقتبسها هيجل:

Georg Wilhelm Friedrich Hegel, *La fenomenologia dello spirito*, a cura di Gianluca Garelli, Einaudi, Torino 2008, cap. vi, p. 440.

الفصل السادس

Manuale di Epitteto, a cura di Pierre Hadot, trad. it. di Angelica Taglia, Einaudi, Torino 2006, p. 143.

إبكتيتوس. المختصر، ترجمة عادل مصطفى. مؤسسة هنداوي، ٢٠١٩، ص ٢١.

الفصل السابع

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٣٨.

الفصل الثامن

Epicuro, *Opere, frammenti, testimonianze*, trad. it. di Ettore Bignone, Laterza, Roma-Bari 2003, p. 36.

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٤٣ و٤٧، مع بعض التصرف لتناسب ما جاء في النص الإيطالي.

الفصل العاشر

Baruch Spinoza, *Tractatus Politicus*, a cura di Omero Proietti, trad. fr. di Charles Ramond, Epiméthée - Presses Universitaires de France, Paris 2005, p. 90.

حول اللعنة على سبينوزا:

Steven Nadler, *Baruch Spinoza e l'Olanda del Seicento*, trad. it. di Davide Tarizzo, Einaudi, Torino 2002, pp. 133-34.

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٩.

Epicuro, *Opere, frammenti, testimonianze* cit., libro I, fr. XXIX, p. 89.

Schopenhauer, *L'arte di trattare le donne* cit., pp. 69 e 72.

الفصل الحادي عشر

Blaise Pascal, *Pensieri*, trad. it. Di Ugo Bernasconi, Bietti, Milano 1932, par. XVIII, n. 10, p. 162.

Pascal, *Pensieri* [Bernasconi] cit., par. XVIII, n. 1, p. 159 e par. V, nn. 1 e 2, p. 55.

الفصل الثاني عشر

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٣.

Seneca, *Sull'ira*, in Id., *I dialoghi*, a cura di Renato Laurenti, Laterza, Roma-Bari 1987, par. XXVIII, p. 168.

Baruch Spinoza, *Ethica*, trad. it. di Gaetano Durante, Sansoni, Firenze 1963, pp. 35 e 283.

باروخ سبينوزا. علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد. المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩.

الفصل الثالث عشر

عبارة: «لا تُقاس فضيلة الرجل بمجهوداته ولكن بما يفعله كعادة» هي ترجمة المؤلفة بتصرف للعبارة الأصلية للفرنسي بليز باسكال:

«Ce que peut la vertu d'un homme ne se doit pas mesurer par ses efforts, mais par son ordinaire».

Blaise Pascal, *Pensieri*, a cura di Adriano Bausola, trad. it. di Adriano Bausola e Remo Tapella, Bompiani, Milano 2000, p. 177.

Galileo Galilei, *Sidereus Nuncius*, a cura di Andrea Battistini, trad. it. di Maria Timpanaro Cardini, Marsilio, Venezia 1993, p. 44.

Aristotele, *La Metafisica*, a cura di Giovanni Reale, Vita e Pensiero, Milano 1993, pp. 409 e 411.

Blaise Pascal, *Pensieri*, trad. it. di Franco De Poli, Rizzoli, Milano 2010, n. 196.

الفصل الرابع عشر

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., nn. 134 e 162.

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٣١.

Pascal, *Pensieri* [Bernasconi] cit., par. XX, n. 8, p. 167.

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٥.

الفصل الخامس عشر

Aristotele, *L'Etica Nicomachea*, a cura di Armando Carlini, Laterza, Bari 1927, p. 30.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 73.

الفصل السادس عشر

I frammenti degli Stoici antichi, a cura di Nicola Festa, vol. I. *Zenone*, Laterza, Bari 1932, p. 62.

الفصل السابع عشر

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٧.

Enrico Bergson, *L'evoluzione creatrice*, trad. it. di Umberto Segre, Dall'Oglio, Milano 1954, pp. 29 e 31.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 341.

الفصل التاسع عشر

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 346.

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٥٣ (١).

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 241.

الفصل العشرون

إبكتيتوس، مرجع سابق، ٤١.

David Hume, *La natura umana*, trad. it. e cura di Mario Dal Pra, La Nuova Italia, Firenze 1951, p. 55.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., nn. 103 e 108.

الفصل الواحد والعشرون

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., nn. 103 e 108.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 74.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 162.

الفصل الثاني والعشرون

إبكتيتوس، مرجع سابق، ١٨.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 137.

إبكتيتوس، مرجع سابق، ١١.

Epicuro, *Opere, frammenti, testimonianze* cit., p. 32.

Pascal, *Pensieri* [De Poli] cit., n. 125.

الفصل الرابع والعشرون

Sant'Agostino, *Le confessioni*, Introduzione, traduzione e note di Carlo Carena, Città Nuova Editrice, Roma 1991, libro X, p. 288.

المؤلفة

آليتشه كابالي، ولِدت في ليفورنو الإيطالية، ودرست الفلسفة والموسيقى، وتعزف التشيلو منذ عام ١٩٨٢ في أوركسترا مسرح «لا سكالا» في ميلانو. نُشرت روايتها الأولى «لن نقدم القهوة لسبينوزا» في عام ٢٠١٩، وقد حققت نجاحًا باهرًا لدى الجمهور والنقاد على حدٍّ سواء، ثم رواية «تذكري باخ» في عام ٢٠٢٠.

المترجمة

أماني فوزي حبشي، ولِدت في القاهرة عام ١٩٦٨، وحصلت على ماجستير في الترجمة، ودكتوراه في الأدب الإيطالي، من كلية الألسن جامعة عين شمس.

حصلت على الجائزة الوطنية الإيطالية للترجمة عام ٢٠٠٣، وعلى وسام نجمة إيطاليا برتبة فارس عام ٢٠٠٤ لإسهاماتها في نشر الثقافة الإيطالية. وشاركت بعدد من المقالات والأبحاث الخاصة بالثقافة الإيطالية والترجمة نُشرت في الصحف والمجلات المصرية المختلفة. أسهمت في تأسيس صفحة «المقهى الثقافي الإيطالي» عام ٢٠١٧، وهي صفحة تعمل كببليوجرافيا للأعمال المُترجمة من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية.

ترجمت لدار الكرمة «أصوات المساء» لنتاليا جينزبورج، و«أربطة» لدومينيكو ستارنونه، و«سأبقى هنا» لماركو بالزانو. ومن أهم ترجماتها الأخرى: «بندول فوكو» لأومبرتو إيكو، و«ثلاثية أسلافنا: الفسكونت المشطور، البارون ساكن الأشجار، وفارس بلا وجود» لإيتالو كالفينو، و«بلا دماء» لأليساندرو باريكو، و«اذهب حيث يقودك قلبك» و«صوت منفرد» لسوزانا تامارو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات – جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين – هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر – أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك – جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل – جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ – جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير – أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة – دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة – جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء – هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم – أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان – سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز – آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة – نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي – كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٩. بندقية صيد - ياسوشي إينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - آليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤١. سأبقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

«رواية ممتعة. رحلة بين الوداع والميلاد الجديد بصحبة باسكال وسبينوزا وإبيقور والقديس أغسطينوس». - لوتشانا ليتيتزيتو

«بعد قراءة هذه الرواية يبقى هناك شعور برؤية الحياة والموت والسعادة بشكل أفضل». - فيتوريا باروفالدي، جريدة «لا ستامبا»

تقرأ له كتب الفلاسفة وترتب منزله، وهو يعلمها أن الكتب يمكن أن تمنحها الأفكار اللازمة لترتب حياتها.

عندما تعرض وكالة التوظيف على ماريا وظيفة مدبرة منزل وقارئة لكبار السن لدى أستاذ فلسفة فقد بصره، تقبل بلا تردد. فزواجها على وشك الانهيار، وكل شيء حولها يبدو كأنه يخبرها بأنها وصلت إلى النهاية. تنشأ صداقة حقيقية ومختلفة بين البروفيسور وماريا. تطبخ ماريا الكوسة وتقرأ للبروفيسور من كتابات باسكال وسبينوزا وإبيقور والقديس أغسطينوس. يعرف البروفيسور كيف يفسر ما يطرحه المفكرون العظماء من خلال أبسط الأعمال المنزلية، وتكتشف ماريا دور الفلسفة في الحياة اليومية، وتصبح كل قراءة عدسة تمنحها القدرة على رؤية الأشياء المشوشة بوضوح، وعلى جمع شظايا وجود أضاعته في سبيل الآخرين.

رويدًا رويدًا يتعلمان أشياء كثيرة من حواراتهما، ويساعد كلٌّ منهما الآخر في رحلته الشخصية: ماريا نحو الحياة، والبروفيسور - تماشيًا مع نظام الأشياء - نحو الرحيل.

رواية فاتنة، ترجمتها أماني فوزي حبشي عن الإيطالية بأمانة وإتقان.

telegram @soramnqraa

الكرمة
ISBN 978-977-6743-97-7
9 789776 743977